مسابقة سامي الدروبي
للترجمة (٢٠٠٩)
الجائزة الثانية

وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب



أدريين موزيرا

رواية

تأليف: جوليان غرين
ترجمة: عبود كاسوحة



أدريين موزيرا



أدريـين مـوزيــرا



الإشراف الطباعي

م. ماجد الزهر

مسابقة سامي الدروبي
للترجمة (٢٠٠٩)

الجائزة الثانية

أدريـين موزيــرا

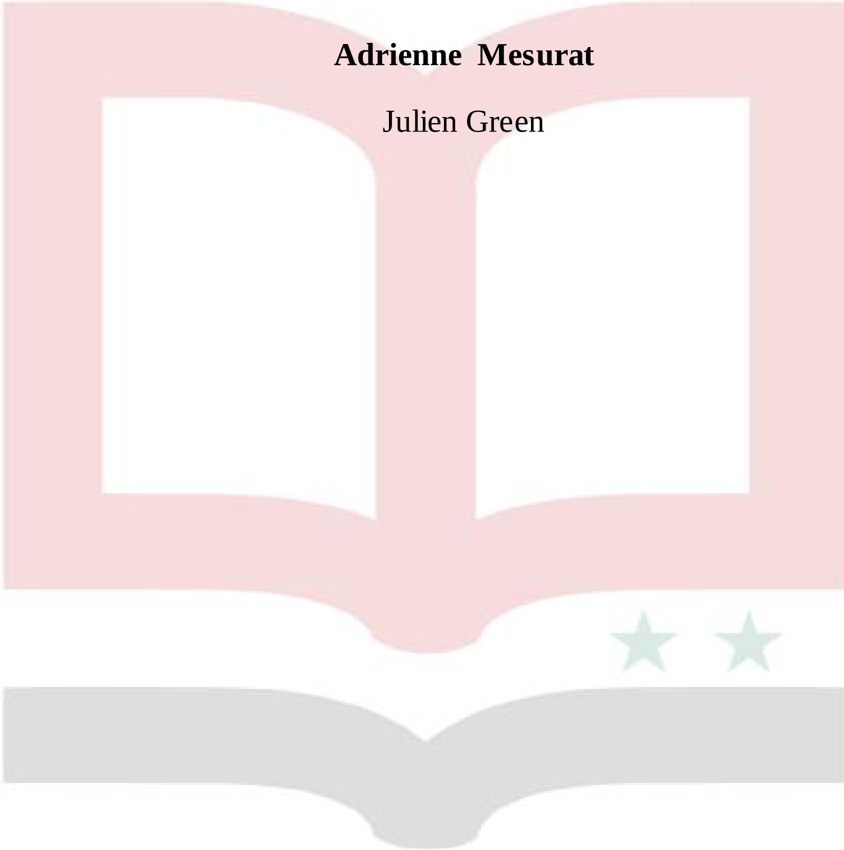
رواية

تأليف : جوليـان غريـن

ترجمة: عبود كاسوحة

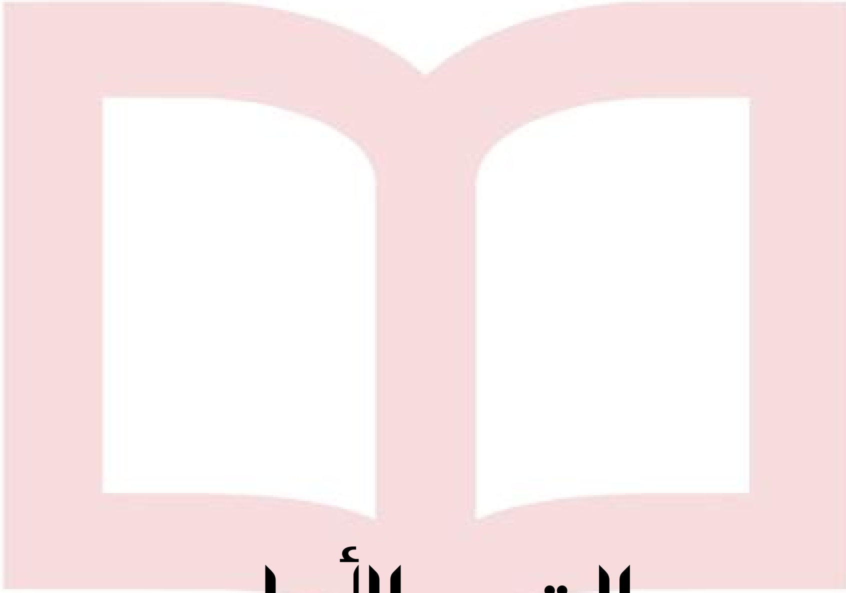
منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب
وزارة الثقافة – دمشق ٢٠١٠

العنوان الأصلي للرواية:



Adrienne Mesurat

Julien Green



القسم الأول







-١-

وقفت أدريين تنظر إلى **المقبرة**، ويداها معقودتان خلف ظهرها.

كانوا عند آل موزيرا، يطلقون تلك التسمية على مجموعة من اثنتي عشرة صورة معلّقة فوق طاولة جانبية في قاعة الطعام، وقد صُفّ بعضها إلى جانب البعض الآخر، لتغطي جانباً بحاله من الخزانة. كانت سبع من بينها لآل موزيرا، وثلاث لآل سير واثنتان لآل ليكوبيه، وهم أعضاء أسرتين نسيبتين لآل موزيرا، وكلّهم ماتوا. وإذا ما استثنينا صورة بالألوان سوف نتناولها بالكلام من بعد، فهي من تلك الصوَر الفوتوغرافية على نحو ما كانوا يفعلون قبل خمسة وعشرين عاماً، صُوَرٌ فجّة وأمينة، يظهر فيها الوجه على خلفية بيضاء، من غير أن يأتي ظلّ رحيم فيلطّف من عيوبه، وحيث الحقيقة وحدها تنطق بلغتها القاسية.

كان يسيراً تمييز آل موزيرا عن آل سير وليكوبيه. فجبهتهم ضيّقة وقسماتهم بارزة، ويعلو محياهم شيء من العزيمة، فتعوّد الناس على القول إنّهم أشبه بالزعماء.

كانوا، رجالاً ونساءً، يحدّقون ناظرين إلى أمام بالنظرة شبه العدائية التي يتحلّى بها ذوو الضمائر النقيّة. حتى لكأنّ لسان حالهم يقول: "وأنتم، أتدرون ما القلبُ المطمئنّ الذي لا تتسارع دقاته أبداً، قلبٌ لا يعرف الخوف ولا القلق وإنّما يقيس فرحه، ويستقبل ألمه في سكينة، لأنّه لا يندم على شيء؟" فيهم الشيب وفيهم الشباب، فهذه الصبيّة التي يلتفّ رأسها بوشاح قد ماتت قبل الثلاثين، وكانت راهبة في رهبانية نشيطة. إنّ خدّيها مسبلان

وذقنها ملتوية بشدة مثل هذا العجوز ذي الوشاح، ولا ريب في أنّ هذه المرأة أمّها، بفمها الضنين وعينيها المتيقّظتين كأنما تُجريان حساباً.

وخلافاً لآل موزيرا، الذين كان يستحيل الخلط بينهم وبين عائلة غريبة، فإنّ آل سير وآل ليكوبيه ما كان ليختلف بعضهم عن البعض الآخر قط، فيتشابهون فيما بينهم على الرغم من عدم صدورهم عن الأرومة نفسها.

فيتراءى للمرء أنّهم قد وُلِدوا فكبُروا ورحلوا، مثلما يقع للنبتات تقريباً، وهم قانعون بالعيش، وقانعون بالموت أيضاً، من غير أن تشفّ عيونهم عن أي شيء كان، باستثناء تلك الروح الذاهلة المتغيّرة والوديعة التي تُشاهدُ بين الحشود في بعض الأحيان . وقد ساد الرأي بـــأنّ ثرواتهم وحدها تفسِّر مصاهراتهم آل موزيرا، حتى إنَّ الأشخاص الذين شبّهوا آل موزيرا بالزعماء هم أنفسهم الذين قالوا أيضاً إنّهم قد انقضّوا على آل سير وليكوبيه انقضاض الصقور على الحِملان.

ومع ذلك فإنّ آل موزيرا وسير وليكوبيه، أقوياء كانوا أم ضعفاء، يتوارون جميعاً من أمام العجوز أنطوانيت موزيرا التي كانت تهيمن ملكةً حتى على الأعضاء الأكثر عنفواناً من بين أسرتها القويّة الشكيمة. وصورتها التي تولت رسمها يدٌ متفانية في عملها، تستأثر بالاهتمام كلّه. قد تكون بلغت الخمسين، لكنّها من هاتيك النساء اللواتي لا يعلّقن على السنّ أهمية تُذكَر، واللواتي يكتسبن القسمات التي سوف تلازمهنّ طول العمر، اكتساباً سريعاً، كأنّ الطبيعة رضيت عن عملها فقررت عدم تعديل أي شيء فيه من بعد. كان الشعر الرمادي المرتد إلى الخلف يكشف عن شكل رأس صغير تتحرّك الأفكار فيه ضمن حيّز ضيّق، فليس للخواطر الأولى أن تُخلي المكان بيسر للواردة من بعد، فتتراءى للذهن على الفور صورة حائط أمام الجبهة العالية التي لا يخددها أي تجعيد. وليس في العينين السوداوين شيء من ذلك التعبير الذي يعكس شيئاً من البلاهة في عيون آل سير ولوكوبيه، التي كانت كتلك التي تحدّق في نقطة تقع في مدى بعيد. إنّهما عينا شخص هادئ الروع، مفتوحتان بكامل حدودهما وأبعادهما، وهو ينظر عن قرب فيعاير العائق من

غير أن يطرف له جفن. كانت ترتدي صدارة حريرية سوداء تلتفّ حول جذع ممتلىء ومنكبين قويين. راق الفنان أن يصوّر فيه نوعاً من الألق، لكن تلاعب الفنان كان بلا طائل، فلم يخفف بأيّ طريقة مما كان في إهاب ذات المنكبين العريضين من عزم وصمود.

لبثت أدريين ساكنة بعض الوقت حيال تلك الصور تتأمّل بعضها إثر بعضها الآخر، وهي تميل برأسها جانباً. ثم أطلقت تنهيدة. فجاءها صوت امرأة من الحجرة المجاورة سائلاً:

- أنت هنا يا أدريين؟ ما بك؟

مسحت أدريين بحركة آلية على رخام الخزانة بقطعة قماش تحملها بيدها، وقالت: "لا شيء. إنّ ألواح زجاج الصور متسخة كثيراً. فلا يسع المرء أن يتبيّن ما تحتها".

فقال الصوت بعد هنيهة: "ينبغي غسلها بشيء من الكحول ومسحها بقطعة قماش جافة".

ثم ساد شيء من الصمت.

قالت أدريين كأنّما تُكلّم نفسها: "سوف تظلّ الصوردميمة كحالها أبداً."

جلست على واحد من المقاعد المخمليّة المصطفة ملاصقة للجدار، وشرعت تنظر إلى البقعتين المستطيلتين اللتين صنعتهما أشعة الشمس على البساط أمام النافذتين.

أحنت رأسها تحت عبء السأم على نحو ما يفعل آخرون تعباً، لكنّ كتفيها ظلا ثابتين وقامتُها لم تنحن ِ. إنّ من يراها على تلك الحال، بشعرها الملتفّ بقطعة قماش، ومريلة زرقاء فوق تنّورتها، يظنّها للوهلة الأولى خادمة، لكنّها ذات نظرة مسيطرة قمينة بتبديد ذلك الانطباع على الفور، إنّها حقاً بنتٌ من آل موزيرا، ورغم كامل شبابها (لمّا تتجاوز الثامنة عشرة) فإنّ محيّاها قد بدأ ينمّ على ذلك الشغف بالسلطة الذي يُشاهَد تألّقه في قسمات جدّتها أنطوانيت موزيرا. يبقى أنّ بين المرأتين من الشبه الفريد ما لا يتمالك المرء نفسه عن الضحك حياله. كما يبقى أنّ عينيّ الصبية أكثر صفاء، وفمها

الممتلئ الشفتين ينمّ على صحة، يبحث المرء عنها عبثاً في وجه الجدة الأبيض. زِد أنّ في خدّي أدريين المستديرين نداوة طفولية تُسبغ هيئة براءة على ذلك المحيّا الذي تحتفظ العزيمة فيه بنصيب كبير على كل حال. وينبغي للمرء أن ينظر إليها ملياً ليتبيّن أنّها حسناء.

نهضت فمدّت يدها عبر النافذة ونفضت قطعة القماش. ثم اتّكأت على الحاجز الحديدي فألقت نظرة حتى نهاية الشارع. ليس من يغادر منزله في مثل هذا الجوّ الحار، حتى لا يكاد يعبر من أحدٍ بين ساعة وأخرى، ليساير الظلّ الشحيح عند أسفل الجدران. تأمّلت بعضَ الوقت أشجارَ الزيزفون الهزيلة التي تقع العين عليها في الحديقة المقابلة، ليتحوّل نظرها على الفور تقريباً إلى دارة لويزا، وهي المنزل الذي يحتلّ زاوية الشارع. كانت النوافذ مغلقة. إنّه بناء من الحجارة المخرّمة تتخللها شبكيات من الآجر، وقد بالغوا في طراز البناء، لا سيّما في شكل البرج الضئيل الذي احتلّ موقع المرقب، وسطحٍ من الآجر بألوان متعددة. يواجهه منزل آخر أبيض اللون تماماً، سطحه من ألواح حجر الأردواز. وحين انحنت الصبية بعض الشيء رأت أنّ نوافذه مغلقة أيضاً. طرق سمعها وقع خطا على الرصيف. فتراجعت أدريين بحركة عفوية ونزعت قطعة القماش التي تغطي شعرها ثم انحنت. فعرفت جارة لهم تمشي مطرقة الرأس، حاملة شبكة بيدها، فارتدّت بقوة إلى الوراء كأنّما خشيت أن يراها أحد، ولبثت ساكنة تستند إلى إطار النافذة، إلى حين أن ابتعدت الخطا.

ناداها الصوت ثانية، فأعادت أدريين وضع قطعة القماش على شعرها وعقدت الطرفين وراء قذالها، ثم توجّهت إلى القاعة الكبرى.

جالت بنظرها على ما حولها لترى إن كان كلّ شيء بنظام. فأضفت الكنبات والكراسي، وقد صُفّــت حلقة وسطة القاعة، جواً من المهابة على هذا القسم من المنزل. وتظهر ما بين الستائر ذات النوعية المتوسطة، وهي تغطي بمشهدها القاتم الجدران واللوحات المحمية بعناية خلف ألواح الزجاج، مخرّماتٌ لونُها قرمزي تتناثر فوقها مخرّمات بنفسجية. كانت قطع الأثاث المصنوعة من الخشب المعتم تماثل الخط المتحوّل عن طراز عهد الوصاية

مع التزامها بالميل إلى تأمين الراحة، وفقاً لما ساد في عهد الإمبراطورية الثانية. فظهور الكنبات العريضة وقوائمها الثابتة والقطيفة الكثيفة، تمنحك شعوراً بالثقة.

وُضِعت أريكة طويلة في أقرب مكان من النافذة، على نحو تستحيل معه رؤيةِ الشخصية المتمددة فوقها، لكنّ تلك الشخصيّة ثنت ساقيها فكنت تلمح كفاً صغيرة ونحيلة وضعتها فوق ركبتيها، إنّها هي التي توجّهت بالكلام قبل قليل إلى أدريين.

ما إن سمعت وقع خطا الفتاة حتى بادرتها بالقول: "عليك أن تغيّري الماء للأزهار".

- أجل، فيما بعد. أليست ديزيريه هنا؟

- ذهبت تتسوّق.

توجّهت أدريين صوب الموقد تتأمّل الشمعدانات الكبيرة من البرونز، وقالت بعد هنيهة وهي تقطّب حاجبيها:

- ألا قولي، هل تعرفين متى يصل دارةَ لويزا المستأجرون الجدد؟

- مستأجرو دارة لويزا الجدد؟ في حزيران أو في مطلع تموز حسب ظني. فهم لم يكتبوا لي بشأن ذلك. وحسناً يفعلون، على كل حال، إذا ما شذّبوا زيزفوناتهم وأعادوا طلاء نوافذهم.

وساد صمت قصير ليستأنف الصوت قائلاً:

"بيد أنّ الأمر هذا العام لا يتعلّق بالمستأجرين، بل بالمستأجرة، إنّها سيّدة تدعى مدام لوغرا، وهي وحيدة على ما يبدو".

أدارت أدريين رأسها صوب النافذة، فقالت:

"أجل، أدري. فقد قال لنا أبي ذلك".

حملتْ إناءً مليئاً بالغرنوقيات وتوجّهت به صوب الباب. فسألها الصوت:

- إلى أين أنت ذاهبة؟

- سأغيّر ماء الأزهار.

فُتِحَ الباب ثم أُغلِق. وساد الصالة صمت عميق. إنّه الصمت الذي يبدو أنّه يرافق طبيعياً حرارة أيام الصيف، كما النور. وألقى شعاع من الشمس على دفوف الأرضية الخشبية التي مُسِحت بشدة، خطاً معدنياً بين بساطين من النسيج المضلّع القرمزي. حامت ذبابات أمام النافذة دون طنين. وسُمِع صوت ماء يعلو داخل إناء. وعاد الباب ففُتح في غضون دقيقة. قالت أدريين وهي داخلة:

- ألا تتذكّرين متى وصلوا في العام الفائت؟

- من؟ تقصدين أيضاً المستأجرين في الجهة المقابلة؟

- ذلك أمر مسلّم به.

وجاء الرد بعد هنيهة.

- في نهاية أيار.

كانت أدريين تحمل الإناء فتسنده إلى مريلتها لتجفّف عنه قطرات الماء. فوضعته في وسط منضدة مستديرة وحيدة القائم واقتربت من الأريكة بعض الشيء.

سألت وهي تنظر عبر النافذة:

- وكيف حالك اليوم؟

فردّ الصوت بنبرة فيها شيء من الدهشة:

- لكنني بخير، يا أدريين. كما العادة.

وأطلقت أدريين تنهيدة.

اتشح محياها بصبغة من التفكّر والضيق في آن معاً.

أسندت كفّيها إلى وركيها وارتدت برأسها إلى الخلف، وعيناها تحدّقان في دارة لويزا.

قالت باقتضاب:

- لو كنتِ مقابلنا، لنعمتِ بمزيد من الشمس.

- لدينا الشمس هنا طول فترة الصباح.

- كانت هنالك ستأتيك في الصباح وبعد الظهيرة...

سكتت هنيهة ثم أوضحت قائلة كمن عيل صبره:

- ما دام البيت موجّهاً نحو الغرب والجنوب. وهكذا فلو كانت مدام لوغرا هنا الآن، لنعمَتْ بالشمس في شارع الرئيس كارنو.

تفوّهت بتلك الكلمات بمزيج من الأسى والسخط ، حتى لاقت عناء في ضبط نفسها، وعلى الرغم من عدم تمكّن أحد من رؤيتها، فقد أشارت بحركة من يدها إلى الشارع الذي أتت على ذكره.

مرّت بضع ثوانٍ بصمت.

فقال الصوت أخيرا: "أجل، هذا صحيح، إنّها لا تُفيد منها... هل تساعديني على النهوض يا أدريين ؟ ليتك تجرّين الكنبة صوبك..."

ومن غير أن تجيب، وضعت أدريين يدها على ظهر الكنبة التي أدارتها صوبها بكل يسر، لأنّها كانت قادرة. عندئذ نهضت الشخصية التي كانت ممددة أمام النافذة فمشت بضع خطاً في الصالة وهي تعتمد على قطع الأثاث. إنّها امرأة سنّها غير واضح لأنّ المرض، على ما يبدو، أصابها بالشيخوخة قبل الأوان، وقد يتردد المرء قبل أن يقدّر عمرها بخمسة وثلاثين عاما. لم يكن يبدوعلى جسمها الطويل والمنحني كجسم عجوز، القدرة على التوازن بمفرده، فأخذت تمشي وهي تمدّ يدها اليمنى صوبها مما أوحى بأنّها مكفوفة. فالخوف من السقوط يزيد في بروز التعبير عن الوجل، الذي يظهر ظهوراً طبيعياً على وجهها، أما حاجباها المعقودان على الدوام قلقاً وألماً، فقد انتهيا إلى حفر تجاعيد موازية لهما في الجبهة. ولها أنف كبير يُسبغ على قسماتها جرأة مغلوطة، وخدان شاحبان تخططهما تجاعيد ضئيلة.

تراجعت أدريين قليلا لتفسحِ لها مجالاً للمرور، لكنّها جلست في كنبة وتنهّدت وهي تدير عينيها فيما حولها، وشفتاها شبه مفتوحتين. ظلّت الفتاة، ويداها على وركيها، تتأمّلها لبعض الوقت دون أن تتكلّم، وتوجّه إليها نظرة ما كانت لترقّ البتة.

أخيراً سألتها بنبرة مباغتة:

- والآن، هل أنت متعبة ياجيرمين؟

فرفعت المريضة رأسها وقالت:

- كلا، فهل ترين وجهي شاحباً؟

واجتاحها فزع مباغت توسّعت بسببه عيناها. فقالت وهي ترى أدريين تلتزم الصمت:

- ألا قولي.

فنهزت أدريين بكتفيها. ثم أجابت مسرعة:

- لم أقل لك إنّ وجهك شاحب.

فاستأنفت جيرمين تقول بطلاقة لسان من يرافع دفاعاً عن نفسه:

- نمتُ خمس ساعات، وأشعر بأنني على خير ما يرام، وأنا كما في الأمس وفي باقي الأيام.

لكنّ أدريين كانت تنظر عبر النافذة من غير أن تصغي إليها.

* * *

-٢-

كانت الدار التي يقطنها آل موزيرا تحمل اسم دارة الزان، لأنّ شجرتين من هذه الفصيلة كانتا تنموان في الواقع داخل الحديقة الضيّقة الممتدة حتى الشارع. وقد اشتراها السيد موزيرا بعد أن أحيل على التقاعد فقرّر التوجّه للعيش في الريف. وكانت تروقه كأنّه قد رسم مخططها بيده. أما في المنطقة فكان من عادة الناس أن يقولوا إنّها تعدّت على مكان منزل جميل، وإنّها، وهي في شارع هام مثل شارع تيير، لتبدو في وضع يُرثى له. كانت والحق يقال رديئة البناء. لا ريب في أنّهم طلبوا إلى المعمار أن يقيم أكبر عدد ممكن من الغرف، فنجم عن ذلك عيب فاحش، حتى لم تعد هنالك من مسافة تفصل بين النوافذ في الواجهة، فتوشك أن تتلامس، وهي أربع في الطابق الثاني، وستٌ في الأول وأربع في الأرضي، اثنتان فاثنتان على كل جانب من الباب. لكن هل يمكن الاحتجاج بأن الجدار لا يشغل حيّزاً أكبر؟ ومادة البناء رديئة جداً! فقد استخدموا في عمارتها تلك الحجارة الصخرية المغطاة بالنتوءات الصغيرة، والتي يذكّرك لونها بنوع من النوغا البنّيّة. ألم يُشاهَد هذا النوع من المنازل مرات عديدة في الضاحية الباريسية؟ فقد بدا بدرجه الخارجي البارز عن البناء ومظلة بابه التي تتخذ شكل صدفة، المثل الأعلى لطبقة بحالها من المجتمع الفرنسي، مما دعا إلى الإقبال بحماس على تكرار بناء ذلك النموذج دون تغيير.

ومهما يكن من أمر فإنّ السيد موزيرا لم يكن غافلاً عن النواقص في دارته، بل كان ينتقدها بالقسوة نفسها حين يوجّه المرء نقده للأشخاص الذين يودّهم. قد يكون ذلك حتى لا يحمرّ وجهه خجلا. فحين يتكلّم عنها مع جيرانه، تظنّه يقصد قريبة له، فقيرة لكنْ شريفة. كان يودّ لو انّهم يهيمون بها

إعجاباً مثل هيامه بها. وينتابه الأسف أحياناً، بُعيد العصر، حين ينتهي من قراءة جريدته فلا يظلّ لديه ما يقوم به حتى ساعة العشاء، لعدم وجود أصدقاء له يستطيع دعوتهم لدخول بيته لبعض الوقت، ليجعلهم يدركون مزايا دارته، من اتساع الحجرات، إلى الإطلالة الرائعة على الحديقة وعلى دارة لويزا، ليس إلا... فمن عساه يظن، وهو ينظر إلى الدارة من الخارج، أنّها على تلك الدرجة من جودة البناء، وذلك الكمال؟ فهل من سيقول بعد ذلك إنّ موزيرا قد غلط؟

ولئن كان، وهو في البيت، البشوش والآمر الناهي، فإنّه، ما إن يضع قدميه خارج عتبة دارة الزان حتى يغدو خجولاً هيّاباً كالطفل. كان مأمور محطة لاتور ديفيك، الشخص الوحيد حتى الآن، الذي استطاع أن يقيم علاقة معه إلى حد ما، على أثر آلاف المناسبات الصغيرة، التي أقلّها الشراء المزدوج يومياً لجريدته من المكتبة الصغيرة في المحطة. ولا ريب في أنّ من الناس من قد جاء إلى دارة الزان، لكنّ تلك الزيارات توقّفت منذ بعض الوقت، لأسباب سوف نأتي على ذكرها بعد قليل.

كان غرور صاحب الملك الملاحظ على أنطوان موزيرا يبدو سخيفاً مضحكاً في نظر ابنتيه اللتين كانت لديهما مآخذ كثيرة على دارة الزان، أما هو فلم يتمكّن، بسبب تأثير وضع نفسي يبدأ مع بلوغ سنٍ بعينها، من ملاحظة أي شيء يمكن أن يجرح شعوره أو يدفع به إلى تغيير سلوكه.

كان ذلك العجوز يمثّل صفاء السريرة. وهو قصير القامة ممتلىء الجسم، يلجأ إلى الدقّ على صدره بقبضتيه ليبيّن متانة بنيته، وكانت بادية على وجهه علائم الطمأنينة والعزم التي يتحلّى بها أولئك الذين لا يسمحون للحياة بتكديرهم، والذين يحرصون على مزاجهم الرائق حرص البخيل على مدّخراته. فما كنت تقرأ قط في عينيه أثراً لأيّ انفعال، بل يعجب المرء من فراغ هاتين الحدقتين بلونهما الشديد الزرقة، حتى كأنّهما تشيعان نوعاً من الضوء على خدّيه الأحمرين وصدغيه وجبهته. كانت لحيته المصفرّة والبيضاء في أطرافها تخفي ذقنه وتنزل حتى ربطة عنقه، وحين ينظر المرء

إليه، يلحظ لديه طريقة هزلية في المسح على أنفه الكبير والغمز بعينه، لكنّها عنده حركة عصبية آلية، خالية من أية نيّة هزلية. وهو في العادة يُكثِر من الكلام، ويميل إلى الابتسام بسهولة.

كان سعيداً بكل تأكيد: فحياته بسيطة جداً، لكنّها قائمة على عادات اتخذها، بعضها إثر بعضها الآخر، مثلما ينتقي المرء أزهاراً أو بعض الحصى النادرة في أثناء رحلة طويلة، فيحرص عليها من كل قلبه. فالجولة اليومية عبر المدينة ووصول صحف المساء وموعد الطعام، هي كلّها أوقات يستعذبها هذا الرجل الذي يبدو كأنّه لن يغادر هذا العالم أبداً، لشدة ما يبدي من غبطة وهمّة في الحفاظ على موقعه فيه.

كان سابقاً معلّم خطٍّ في إحدى ثانويات باريس، بلغ الستين من عمره عام ١٩٠٨، أي حين بدأت هذه القصة. وقبل ذلك بخمسة عشر عاماً فقد زوجته، وهي امرأة من آل ليكوبيه، لم تكن ذات رونق خاص، فقلّما تكلّم عنها، كما لم يأسف على فراقها. وربح بعد ذلك مبلغاً كبيراً في اليانصيب سمح له بالتقاعد قبل الموعد بأعوام بدلاً من القيام بعمل آخر، وبأن ينعم بعيش يسير، لا سيّما أنّ أهواءه كانت بسيطة. كان كل ما في دارة الزان منظّماً على ما يُرام. هنالك ثلاث غرف نوم، وهم تحديداً ثلاثة: هو وابنتاه جيرمين وأدريين. فيقول إنّ كل شيء على ما يرام، وهو يمرّ بظفر إبهامه على لحيته، وفمه مفتوح.

لم تأتِ جيرمين في ذلك المساء لتجلس إلى المائدة. فقطّب السيد موزيرا حاجبيه. ما كان يروقه أي خروج عن المألوف. فقال وهو يجلس: "ألنْ تتعشى معنا؟"

كانت أدريين واقفة تقوم بتدلية ثريا ضخمة ذات زجاج أغبش ومقنطر، حتى كادت تلامس الأزهار التي تزين المائدة، إنّها آلة ثقيلة يُنزلونها بالاستعانة بثِقَلٍ معلّق بسلاسل.

وسأل السيد موزيرا مجدداً: "ألا تريد جيرمين أن تتعشّى؟"

دمدمت أدريين مجيبة فضاعت إجابتها وسط صرير السلاسل الحديدية. وجلست أخيراً فبسطت فوطة المائدة.

قال العجوز بصبر نافد: "وبعد؟ ألم تسمعي؟"

حدّقت الفتاة في عينيه، ثم قالت بجفاء:

- لقد أجبت. ليست جيرمين على ما يرام.

- إذن لن تأتي لتتعشى؟

- قلت كلا.

هزّ رأسه ثم فتت قطعة من الخبز في طبق حسائه من غير أن يلقي أسئلة أخرى. كانت أدريين تأكل وهي تلوذ بالصمت.

حين أتى على طبقه مسح فمه ومسّد لحيته. ثم قال وهو يتناول زجاجة النبيذ:

- قمت بعد الظهر بجولتي المعهودة في المدينة. إنّهم يقومون بعمليات بناء كثيرة، هنالك، فيما وراء الدير.

- هكذا!

- أجل، الدار الكبيرة، أنت تعلمين...

ردّت بهزّة من رأسها.

- إنّهم في الطابق الثالث. سوف يرفعون العَلَم قبل شهر تموز.

ملأ كأسه ثم بدأ ينقر على غطاء المائدة بأصابعه الخمس، مباعداً مابينها بحركة عازف على البيانو. وبعد هنيهة سألته أدريين :

- هل تعرف متى سيأتي المستأجرون إلى البيت المقابل لنا؟

- الحق أنّي لا أدري. لكن لم تريدين معرفة ذلك؟

وتوقف عن النقر بأصابعه ونظر إليها.

- لا أريد شيئا.

- مستأجرو العام الفائت...

فتنهّدت أدريين رغماً عنها.

- يبدو لي حقاً أنّهم جاؤوا في حزيران. أترغبين في رؤية مدام لوغرا؟

فردّت بصوت متسرّع قائلة:

- أنا؟ كلا. بل نحن في راحة من دونها.

وأزاحت طبقها إلى أمام وصالبت ذراعيها فوق المائدة.

سألها أبوها قائلاً:

- هل انتهيت؟

- نعم.

فرنّ الجرس ثم عاد ينقر بأصابعه وعليه هيئة من الحبور. تحدث إلى ابنته طول فترة العشاء عن التغييرات التي لاحظها في لاتور ليفيك من يوم وصوله، لكنّها لم تكن تصغي إليه. كانت تمسح أحياناً بكفها على شعرها كأنما لتتأكد من أنّه حسن التسريح، ورغم أنّها كانت، بين حين وآخر، تهزّ رأسها صوب والدها موافقة، إلا أنّ نظرها كان زائغاً. ومن الواضح أنّها تلاحق مجرى فكرة بعيدة كل البعد عما يقدّم السيد موزيرا من إيضاحات.

كان نور المصباح يقع عليها فيسبغ على وجهها بياضاً يزيد في حدّة طبعها البارد بعض الشيء. ويقع ظلّ فيدعم خط حاجبيها المستقيم ومحيط شفتها السفلى القاسي قليلاً، فكأنّه رسام يمرّ بريشته ثانية على بعض القسمات التي يرغب في إبراز قوتها.

فور انتهاء العشاء تركت أباها الذي مضى ليجلس في قاعة الاستقبال وخرجت. كان الهواء لطيفاً. لفّت رأسها بوشاح وسلكت شارع تيير، فتجاوزت دارة لويزا ثم توقّفت في شارع الرئيس كارنو الذي يمضي مستقيما فيلتقي بالطريق العام. أصاخت السمع هنيهة لتصغي إلى صوت كلام آتٍ من حديقة قريبة، لكنّ الجوّ معتم فما تخشى أن يراها أحد. استندت إلى الجدار ورفعت عينيها. استطاعت أن ترى على بضعة أمتار منها، عند زاوية الشارع، جناحاً كبيراً مربّع الشكل، يغيب سطحه في العتمة، لكن بدت جدرانه

المطلية بالكلس كأنّها تنشر فيما حولها نوعاً من البهاء. ودلّت بقعتان سوداوان، إحداهما فوق الأخرى، على موقعي النافذتين المغلقتين.

مرّت دقائق. كان أحدهم مقبلا من الطريق العام. ينزل الشارع بمشية متجوّل بطيء الخطا. فتركت موقعها على مضض ودارت حول دارة لويزا، ثم مضت صُعُداً في شارع تيير لتصل إلى شارع آخر يقطعه، من غير أن تقرّر العودة إلى البيت. فوقفت هنالك تنتظر. كانت تتدلى من فوق أحد الجدران عناقيد من الوستارية فتعطّر الجوّ بتلك الرائحة الثقيلة التي تفوح بها أزهارٌ أتعبتها حرارة النهار. تأمّلت بعض الوقت النافذتين المضاءتين من دارة الزان، ففي الطابق الأرضي قاعة الاستقبال وفي الطابق الثاني غرفة شقيقتها. وفي سعيها للتخفيف من وطأة انتظار طويل، جهدت، وهي تصغي لوقع الخطا التي تهبط شارع الرئيس كارنو، أن تتخيّل أنطوان موزيرا جالساً في كنبته، باسطا ساقيه، ممسكاً بجريدته والنعاس يداعب جفنيه. ثم تخيّلت جيرمين جالسة في سريرها، تسند ظهرها إلى كدسة من الوسائد، وقد اصطبغ وجهها بلون أرجواني بفعل الحمّى التي تساورها كل مساء، فيما تتابع عيناها بنظرة شاردة صفحة كتاب تمسك به مفتوحاً أمامها.

صار وقع الخطا أكثر وضوحاً فعبرت شارع تيير وواصلت الهبوط في شارع الرئيس كورنو. ارتعشت أدريين بهجة وشرعت تهرول على رأس قدميها قاطعة الطريق الذي سلكته في الاتجاه المعاكس. توقفت لاهثة عند حاجز دارة لويزا قابضة بيدها على إحدى العوارض. كان في ملامحها شيء يشبه السعادة. كما كان الانفعال ينعكس بريقاً في عينيها، وينطلق من بين شفتيها المنفرجتين لهاث يبدو أنّها كانت تصغي إليه. وحين ابتعدت الخطا عادت أدراجها إلى المكان الذي غادرته قبل قليل.

استندت مجدداً إلى دارة لويزا. فبوسعها الآن أن تميّز تمييزاً تاماً شكل الجناح المواجه، حتى التزيينات الحجرية الغامقة التي تتغلّب على بياض الجدران. وينفذ شعاع أحياناً عبر الغيوم فينزلق لحظة على أردواز السطح.

حينئذ تتابع الفتاة بنظرها تبدّل ذلك البريق الهارب. وظهر الكوكب على نحو مباغت: بدا جانب بحاله من الشارع وقد برز فانتصب ضمن بريق ذلك الضوء الميت. وكان ذلك مباغتاً حتى بدرت عن أدريين حركة مفاجئة. تقدّمت إلى منتصف الشارع. كان سطح الأردواز يلتمع مثل مياه أصابها ضياء عنيف. وارتعشت قمة شجرة، بسوادها التام، وسط مداخن الآجر العالية. وسُمِع في البعيد، من أطراف حديقة كبيرة، نباح كلبين معاً.

أصغت ونظرت وبدت تنتظر حصول شيء ما. أما في النهاية، وقد عاد الشارع فأظلم من جديد، فقد تنشّقت الهواء الرطب عدة مرات، ثم ألقت نظرة أخيرة على المنزل الذي بدا كأنّه تراجع وسط الظلمة، ونكّست رأسها وهي تعود إلى البيت.

وفيما هي تعبر قاعة الاستقبال لتأخذ منها كتاباً، أيقظ وقع خطاها أباها الذي كان راقداً في كنبته. فمدّ قبضته باتجاه السقف وهو يتثاءب قائلاً: "هل خرجتِ". حدّقت في عينيه وقالت: "كلا".

- لا بأس. كم يمكن أن تكون الساعة؟

- لا أدري.

تناولت كتاباً من الخزانة وانسحبت.

حين وصلت إلى عتبة غرفتها تلكّأت بعض الشيء في الممر، على غير عادتها، وأصاخت السمع للأصوات الصادرة عن البيت. كان العجوز موزيرا في الأسفل يتأكّد من أنّ الباب والنوافذ مغلقة بإحكام. كانت مشيته الثقيلة تنتقل من حجرة لأخرى مسبّبة صرير الألواح الخشبية. وسعل. سمعت بعدئذ صوت نفخته القوية وهو يطفئ السراجين في قاعة الاستقبال. ثم بدأ يدندن على الفور واحدا من ألحان الأوبرا. وعرفت أنّه على وشك الصعود فدخلت غرفتها، وأغلقت الباب بهدوء ولبثت ساكنة لبرهة في الظلمة. وفي اللحظة

نفسها بدأ موزيرا بصعود السلم. كانت يده تضغط بشدة على العارضة الخشبية، فتجعل كافة القضبان تصدر صريراً تعرفه أدريين حقّ المعرفة. ولدى مروره أمام باب ابنته ضرب المصراع بقبضته صائحاً: "طابت ليلتك".

فأجفلت ولم تجب. بدا لها ذلك الصوت الذي توقعت سماعه مقيتاً كالصدمة. فقالت: "آه"، وهي تتنفّس الصعداء ثم أضاءت المصباح. وابتعدت الخطا صاعدة إلى الطابق الأخير، حيث تقوم غرفة السيد موزيرا.

* * *

-٣-

لم يعد يُسمع الآن شيء في البيت. فما من ضجّة تصل من الشارع. وما كانت أدريين تحب هذه الساعة. كانت تودّ أن تسمع باباً يُغلَق، أو أحداً يقول كلمة، وتأمل دوماً في أن ترى أباها ينزل إلى القاعة مجدداً، ليأخذ غليونه أو جريدة يكون قد نسيها. حتى الصوت المشؤوم الصادر عن سعال أختها، كانت تترصّد سماعه كأنّه أضحى الآن شيئاً مرغوباً فيه، فذلك الصوت تمقته نهاراً، لكنّها تعرف أنّ جيرمين تخفي رأسها لتسعل تحت اللحاف عند هبوط الليل.

خلعت ملابسها ببطء، حريصة هي أيضاً على عدم إصدار أية ضجة، ذلك أنّ قوّة الصمت قوّة طاغية. وتمددت من غير أن تُطفىء السراج الذي وضعته على منضدة بجانب رأسها، لأنّها تعرف أنّ النوم لن يأتي قبل ساعات وهي لا تريد البقاء في الظلمة غير قادرة على النوم. كان الهواء ثقيلاً والمصباح يرفع الحرارة، فأنزلت الفتيل قليلاً. قلّبت لبعض الوقت صفحات الكتاب ذي الغلاف الأصفر الذي جلبته، لكنّ السأم اجتاحها حيال تلك المئات من الصفحات. فدسّت الكتاب تحت المخدة وطوت ذراعيها تحت رأسها في وضعية مألوفة لديها ولبثت ساكنة.

بدا لها أنّها تسمع وسط الصمت نأمة خفيفة متواصلة، أشبه بطنين حشرة ضئيلة، لكنّ ذلك الطنين كان في أذنيها فقط. وجال نظرها أمامها، سعياً وراء اكتشاف مظهر جديد للأشياء التي كانت تراها غالباً، أو تفصيلاً قد فاتها. كانت تكره غرفتها، لاسيّما في الليل في أثناء تلك الساعات الفارغة التي تسبق نومها. تكره ورق الجدران المزدان بالأزهار، ذاك الذي اختاره أبوها فكان يزهو به، والخزانة ذات البطن الكبير، التي أُهديَت إليها لدى

بلوغها السادسة عشرة، والسرير المعدني. ولَكَمْ يمثّل ذلك كله من ذكرياتٍ، ومن سنين يشقّ احتمالها، ومن ليالٍ عامرة بالقلق، شبيهة بهذه الليلة!

ما فكّرت بطفولتها قط أو بشبابها إلا انتابها نوع من السأم، لطالما بدت لها تلك الفترات من حياتها قاحلة. فمتى شعرت بالسعادة؟ أين هي ساعات الهناء تلك التي يفرضون أنّ الطفولة مجبولة بها، وأين هي إجازاتها؟ لقد تربّت على يد أبٍ لا يعرف العيش إلا على هواه وبصحبة أختٍ لا تفكّر إلا بمرضها، فتصلّبَ عودها سريعا. تعلّمت ألا تضحك كثيراً بحضور جيرمين وقد قطّبت حاجبيها، وأنْ تُقِلّ في الكلام. وكبُرت وسط التوجّس من الإساءة إلى العجوز موزيرا الذي كان يرفض من ناحيته رؤية الدموع وحالات الاستياء. وقد تكيّفت عزيمتها في تلك المدرسة تكيّفاً سريعاً، حتى تغلّب ما فيها من كآبة وتعالٍ، أي باختصار، من طبع آل موزيرا، على كل ما خلاه، من طرف آل لوكوبيه. فرققت فمها قسوةٌ مبكرة، وهبطت بخط حاجبيها المستقيم، وأسبغت على محيّاها تلك الهيئة المتوترة والمنغلقة التي تبدو السمة المميّزة لعائلتها.

بدت في السادسة عشرة وقد اكتسبت الملامح النفسية والجسدية التي ينبغي أن تحافظ عليها أبداً. كانت تتوجّه دون صديقات، ودون رغبة ظاهرة في الارتباط بكائن من كان، لحضور دروس سانت سيسيل حيث أرسلتها أختها، فتردّ على أسئلة المعلّمات اللواتي يستجوبنها عن دروسها، وتعود إلى البيت لتتجوّل في الحديقة، وحيدة، أو لتعزل نفسها في غرفتها. ما كان لشيء من سيطرة عليها. وهي لا تخشى شيئاً وما من شيء يجتذبها. كان السأم ونوع من التنازل الساخط مقروئَيْن وحدهما على قسماتها.

انقضت أعوام على هذا النمط من الرتابة العميقة. وسارت الساعات في دارة الزان وفقاً لإيقاع أملته عليها جيرمين والسيد موزيرا، ولم تكن الحياة سوى متوالية من العادات والحركات الناجزة في أوقات ثابتة. إنّ تغييراً من أي نوع كان سيتخذ مظهراً فوضوياً.

بدت أدريين كأنّها تخضع لنظام ضمني، فأي شكل من أشكال اللهو كان مستحيلا، حتى توصّلت بالتدريج إلى تصريف وقتها وفقاً لنمط دقيق وبطريقة

متشددة كأنّها في دير. فقد شعرت هي أيضاً بالحاجة إلى إنجاز عملها في وقت بعينه، لكنّ العجيب في الأمر أنّ ذلك كان يسوؤها، فهي أشبه براهبة فقدت كلّ إيمان، لكنّها تحافظ، في سبيل النظام على نوع من التشبّث الساخط، لأنّه النظام الذي اختارته بنفسها.

بلغت أدريين الثامنة عشرة من غير أن يأتي حدث ما، صالح أو طالح، ليؤثّر على مجرى حياتها. وغالباً ما كان أبوها يدعوها إلى النزول حين يستقبل زائراً ما. فيستبقيها لبضع دقائق، وهو يغمرها بنظر يفيض غبطة، لأنّه فخور بها ولأنّه يراها جميلة، ثم حين يحكم بأنّ الزائر قد استوعب ما فيه الكفاية من مظهر ابنته، يصرف أدريين كأنّما هي طفلة. وهذه واقعة طالما جرت ملاحظتها، فكأنّ العالم، بل كأنّ البشرية بحالها تكفّ عن التطوّر والتغيّر في نظر المسنّين. فكلّ شيء يتوقف ويثبت في مرحلة ما من حياتهم، وقد كفّت أدريين، التي كانت في الخامسة عشرة من عمرها يوم بلغ السيد موزيرا السابعة والخمسين، عن تخطي تلك السنّ في ذهن والدها.

قد يبدو مدهشاً أنّ مسألة زواج أدريين لم تجرِ إثارتها البتة. وعلى الرغم من أنّ أدريين لم تفكّر في ذلك وأنّ السيد موزيرا لم يكن راغباً في معرفة شيء حولها، فقد بدت الفتاة نفسها غير عابئة بالأمر. أليست الحياة تمضي بدونه على أحسن ما يرام؟ فما يدعو إلى تعقيدها؟

الحق أنّ عدة راغبين في الزواج قد تقدّموا اليها، ذلك أنّ ثروة آل موزيرا ليست شيئاً مهملا، لكنّ أولئك الرجال الذين يحملون في أشخاصهم طابع المدينة الصغيرة، من أبناء موثّقي العقود أو التجار، بدوا مرشّحين يستحيل قبولهم، كما بدت طلباتهم ضرباً من الجنون.

وما كانت أدريين بقادرة على أن تتخيّل ما ستكون عليه الحياة بصحبة واحد منهم، فيثير ذلك ضحكها. كان السيد موزيرا يرفض رفضاً قوياً فكرة رحيل ابنته التي رآها بقربه دوماً منذ زمن طويل، فيضحك بدوره كأنّ أحداً اقترح عليه إحدى الكبائر التي لا يسع المرء أن يأخذها على محمل الجِد. أما جيرمين فلا تنبث ببنت شفة. ومنذ ذلك الحين تباعدت الزيارات شيئاً فشيئاً، بسبب موقف السيد موزيرا شبه العدائي، ثم انقطعت نهائياً.

بيد أنّ أدريين، على الرغم من مظاهر حياة منسّقة ورتيبة، كانت تخفي قلقاً لا يسع أحداً أن يخمّن وجوده. فقد جعلوها في واقع الأمر مُرائية، وهي تظهَر حيال أبيها وأختها، بوجه يعجِز الواحد منهما عن أن يقرأ أي انفعال على صفحته، فيما لو كلّف نفسه ذلك العناء. وتراودها ليلاً وهي معتكفة في غرفتها، أو نهاراً في أثناء جولاتها، أفكارٌ ما كانت لتبوح بها لأحد، حتى لينتابها شيء من الضيق بسببها. لكن كم يلزمنا التزام جانب الحيطة للولوج إلى ذلك الخجل المزهو الذي تعتاده تلك النفوس المنطوية على نفسها فترفض العالم. وما الكلمات التي عسى أن تستخدمَها أدريين للتعبير عن مشاعرها؟ الأرجح أنّ هذا التعبير: **شعور**، سيبدو لها غريباً، ولن تمثّل ذكراه لها أي حزن أو فرح، لكنّ قوته كبيرة حتى لتمنعها من التفكير بشيء آخر.

رأت نفسها بادىء الأمر قبل ذلك بخمسة عشر يوماً. كانت تسلك درباً في ضواحي المدينة وهي ترتدي ثوباً من البركال القطني الأزرق، وذراعاها مثقلان بأزهار جنتها من الحقول. كان الهواء ساكناً. وشرعت قبّرة تطلق في الجو صيحات حادة تبدو كأنّها صوت الحرارة نفسها أو صوت الشمس. واقتصر الظلُّ على خط أسود عند جذوع الأشجار. أحست أدريين بقطرات فاترة تسيل ببطء على ذراعيها وصدغيها. ولمحت على حين غرّة عربة قادمة من المدينة ومقبلة صوبها، إنّها واحدة من عربات الأجرة، الباهتة أبداً، بنوابضها ذات الصرير ومقاعدها المغبرّة. كان الحوذي يرتدي سترة من وبر البكّة ويبسط منديلاً على رأسه تحت قبعة من القش. ولم تدرِ ما السبب الذي جعل مشهد تلك العربة المتوجهة صوبها يبدو لها ممتعاً، فتنحّت عن الدرب قليلا وتوقفت فوق العشب، كي تراها على نحو أفضل. وبعد قليل ميّزت الشخص الجالس في العربة فعرفت الدكتور موركور الذي استقرّ في لاتور ديفيك قبل بضعة شهور. لم يفكّر السيد موزيرا قط في دعوته لقضاء بعض الوقت في بيته، على الرغم من أنّهم جيران وأنّ العجوز شعر بشيء من الفضول حيال الدكتور. لكنّ خجل أنطوان موزيرا كان يمنعه من القيام بتمهيدات، زد أنّه يعرف أنّ الدكتور لن يقبل أية دعوة متذرّعا بالحجة الدائمة القائلة إنّه على عجلة من أمره. على عجلة؟ ولِمَ العجلة؟ فالمدينة ليست كبيرة،

وبالتالي فإنّ عدد الزبائن محدود، لكنّ الحقيقة أيضاً أنّ الدكتور لم يكن يقوم بزيارات ما لم تكن مهنيّة، وما من أحد شاهده قط متسكّعاً في الحديقة العامة، أو متوقفاً لبعض الوقت عند حواجز الدارات، للتحدّث مع جيرانه، على نحو مايفعل المرء في أثناء النزهات. بل كان بخلاف ذلك يمضي مسرعاً، مطرق الرأس.

مرّت العربة على مقربة من أدريين. وقد يكون الدكتور شعر بالنظرة الحادة التي وجّهتها الفتاة صوبه. لقد رفع نظره على كل حال عن الكتاب الذي كان يقرأ فيه وأدار رأسه صوب مكان وقوف أدريين. كان قصير القامة، وما يزال فتياً، لكنّ لون سحنته الممتقع جعله يبدو مسناً. لاحظت أدريين وسط ذلك الوجه الباهت قليلاً، عينين غامقتين، حدّقتا فيها بشيء من الفضول. وبدا عليه التردد، ثم لمس طرف قبعته بحركة وجلة. ولم يدم ذلك أكثر من ثانية واحدة لأنّ العربة قد مرّت.

خلّفت تلك الذكرى انطباعاً قوياً جداً في نفس أدريين، والأمر أشبه بحلم يصعب على المرء نسيانه بسبب طابعه الفريد. والواقع أنّ تلك الجولة جعلتها تفكّر بنوع من حلم اليقظة.

فعندما تنحّت عن الطريق لتقف فوق العشب، كانت على يقين من أنّ تلك الدقيقة ذات أهميّة، ومن أنّها سوف تفكّر فيها كثيراً من بعد. لكن أليس ذلك واقع كافة الأشخاص الذين لا تهبهم الحياة شيئاً فيعلّقون على المستقبل الفوري أملاً جنونياً ومتطيّراً؟ فكم من مرّة راودها اليقين نفسه؟ وكم من معتقل ارتعش قلبه بفرح قلق وهو يسمع المفتاح يدور في القفل دوراته اليومية؟

منذ ذلك الحين، وبفعل عادة اعتمدتها أدريين على الفور، أضحى الطريق الذي شهدت موركور عند حافته، مسار جولتها المنتظمة ولم تتخلّف قط عن قطف باقة كبيرة من أزهار الأقحوان أو ملكة المروج، تحملها على ذراعيها، كما في المرة الأولى، عاقدة الأمل دون شك، وواضعة في حسبان غامض داخل روحها التي فاض بها السأم، على أنّ الظروف نفسها لا بدّ من أن تأتي بالآثار نفسها. وعلى الرغم من أنّ الدكتور لم يظهر ثانية على ذلك

الطريق، فقد تشبّثت بكل العزم الذي ورثته عن أبيها وكرّرت تلك الجولة يومياً على مدى أسبوع.

لم يكن موركور هذا، الذي قلّما كان يُشاهد والذي لا يسعُ أحداً أن يزعُم أنّه يعرفه حقّ المعرفة، يقطن بعيداً عن دارة الزان. صحيح أنّه مرّ بعض الوقت من قبل أن تعرف أدريين عنه شيئاً. الواقع أنّها تكون شاردة الذهن، فقلّما تلقي بالاً للأنباء الصغيرة التي يهرف بها أبوها كل مساء. لكنّها صارت أشدّ فضولاً، بدءاً من يوم رؤيتها الدكتور في العربة، فهي تصغي من غير أن تسأل. لكن أمّا وأنّ السيد موزيرا من أولئك الذين يحتفظ لديهم الخبر بنداوته بعد أسابيع من تداوله، فقد عرفت أنّ الدكتور موركور استأجر الجناح الذي يواجه دارة لويزا. وهي لم تصدّق شيئاً بادىء الأمر، فالمرء يرفض تصديق واقع الأحداث حين تكون كارثية أو ملائمة جداً، فكان عليها أن تحدّق في عيني أبيها لتدرك أنّه يقول الحقيقة. كان العجوز يقطّع نصيبه من اللحم قطعاً صغيرة بذلك الاهتمام الذي يوليه الناس للطعام وهم يجدون فيه هواهم الأخير، فلم يتبيّن شيئاً من قلق كانت ابنته تحرص على إخفائه، حين قالت بعد هنيهة بلهجة حيادية:

- يا لحَسن حظ جيرمين، يا أبي!

- ما بها، جيرمين، فهي ليست مريضة.

فاستأنفت أدريين تقول:

- كلا، لكن إن أصابها المرض...

فجمجم السيد موزيرا قائلاً:

- لا بأس، لا شك في أنّ وجود طبيب قريب، مسألة مريحة لنا جميعاً.

- بلى.

وهرعت إلى غرفتها بأسرع ما تستطيع، لتختبىء فيها، وتخفي بريق عينيها واحمرار خديها اللذين شعرت بحرارتهما من شدّة الانفعال. انحنت من النافذة فأبصرت سطح الجناح وزاوية مصراع نافذة. ألم تكن تعرف ذلك

البيت؟ ألم تلحظْه قط من قبل؟ بدا لها أنّ ذلك المبنى الصغير الذي لا تُرى منه سوى زاوية، قد نبق هنالك، عند زاوية هذا الشارع كالقصر في الحكايات العربية، فتملّت بنظرها منه. وتأمّلت رأس شجرة فتية وهو يتراقص بخفّة بين مداخن القرميد الوردية، والرسم المنتظم لتزيينات الحجارة الغامقة.

عنّت لها فكرة على حين غرّة. فغادرت غرفتها ولبثت فترة فوق الدرج وهي تعتمد على الحاجز. جاءها من الصالة صوت محادثة، وعرفت صوت جيرمين وهي تلقي أسئلة على أبيها. فصعدت إلى غرفة أختها من غير إحداث ضجة، ودخلت فتوجّهت صوب النافذة المفتوحة. انحنت هنالك مرة أخرى متلهّفة. كان الشارع يمتدّ بطوله أمام ناظريها، فليس هنالك ما يُعيق النظر، كما في الطابق الأول، فكان بوسعها أن تغوص بحرية في حديقة دارة لويزا، لكن ليس ذلك ما يثير اهتمامها. أخذت تتفحّص الجناح الأبيض. لـَكـَم تراه رؤية واضحة من قمته حتى المنور الصغير للقبو! كانت نافذتاه الاثنتان مفتوحتين. اعتقدت أنّها تميّز سجادة حمراء وجانباً من قطعة أثاث قد تكون خزانة مكتب. استدارت وقلبها يخفق فجلست على حافة النافذة. وجالت بنظرة طويلة محمّلة بالغيرة والأسى المباغت، من هذه الغرفة التي تجلس فيها لكنّها ليست لها.

لم تعد تحلم، بدءاً من ذلك اليوم، إلا بغرفة جيرمين. إنّ القول إنّها صارت تفكر بذلك طول النهار لا يفي الواقع حقه، إذ ليس هنالك من تعابير وسيطة للكلام عن بعض النفوس التي طبعتها العزلة بطابعها فهي تنتقل من غير تمهيد من حياة فارغة إلى نوع من الهوس الداخلي المحموم الذي يُحدِث فيها انقلابا. وهكذا سيطرت على الفتاة الرغبة في امتلاك غرفة أختها سيطرة مباغتة وشاملة، وتشكّل سخفها العاطفي وسط السأم، فجُنّ جنونها على حين غرّة، وتملّكتها تلك الرغبة إلى حدّ أنّها أبعدت عن ناظريها السبب الذي جعلها راغبة في تلك الغرفة حتى إنّها أمضت يومها من غير أن تفكّر في موركور.

صارت تمضي الآن ورأسها مثقل بمشاريع شتى وغامضة لا تتعرّض لذكرها بكلمة، ذلك أنّ حذرها نما مع نموّ العادة التي سيطرت عليها، وما كان المرء بحاجة إلى شيء ضئيل من المراقبة ليدرك أنّ أقوالها كلها ترمي إلى

الغاية نفسها. لقد نشأ في داخلها مشروع معقّد. فجيرمين بحاجة للغرفة المشمسة أكثر، أي تلك التي تحتلها الآن والتي يُشاهَد منها الجناح الأبيض على أحسن ما يرام. ومن ناحية أخرى، فإنّ دارة لويزا أفضل موقعاً من دارة الزان، لأنها تطلّ على شارعين. إذن لِمَ لا تمضي جيرمين لتقطن في دارة لويزا؟ وهكذا تغدو غرفتها فارغة فتستطيع أدريين أن تقيم فيها. لكنّ جسامة هذا الحل تتبدّى على نحو أفضل حين نفكّر في أنّه لم يكن لدى أدريين، وأبيها وأختها مثلها، أدنى فكرة عن حال المستأجرة، تلك التي تُدعى مدام لوغرا، والتي يعرفون فقط أنّها متزوجة وأنّها سوف تأتي وحدها. فهل ستقبل بتسوية على تلك الدرجة من الغرابة؟ هذا ولم تكف أدريين عن الإيحاء لأختها بأنّها ستكون وهي في الجانب الأيسر من شارع تيير على حال أفضل بكثير منها على الجانب الأيمن.

لكنّ تلك الفكرة التي لم تفهمها جيرمين فرفضتها، ما لبثت أن احتلّت المكان أمام فكرة أخرى أحتلّت ذهن الفتاة. فلم لا تمضي هي نفسها لتقيم لدى مدام لوغرا؟ فلو استطاعت أن تشغل غرفة تطل على شارع الرئيس كورنو، لصارت إطلالتها على الجناح الأبيض أفضل بما لا يقارن من غرفة جيرمين؟ لكنّ مشروع الذهاب والعيش عند الآخرين، والذي بدا لها ممكناً ما دام يتعلّق بأختها، بدا مختلفاً تماماً حين طبّقته على نفسها. فهي خجولة في واقع الأمر، فكان منظور التفاوض مع شخص لا تعرفه كفيلا بجعلها تُعمِل في الأمر تفكيراً. لقد أدركت أنّها مخطئة. عندئذ امتلأت نفسها بحقد مباغت على المستأجرة المقبلة لتلك الدارة التي تستثير غيرتها حتى أنها لا تقوى على تحويل نظرها عنها. لقد انصبّ حقدها كله على مدام لوغرا، فتمنّت بحركة صبيانية أن ينالها مكروه، وأن يقع شيء يثأر لها منها، كأن يأتي طقس عاصف على سبيل المثال فيفسد عليها إجازتها.

رأت ذات صباح، وفيما هي تتحني من نافذة قاعة الطعام، رجلاً واقفاً على الرصيف المواجه. كان، على الرغم من الطقس الحار، متشحاً بالسواد من رأسه حتى قدميه ويرتدي نوعاً من حُلّة مراسم لكنّها من نوع رديء.

كان يمشي مسرعاً فواكبته هنيهة بنظرة زائغة، عبر شارع الرئيس كورنو وواصل السير بخط مستقيم، فصار بمحاذاة حائط الجناح، ثم رأته يتوقف أمام باب فيفتحه. رفعت أدريين يدها إلى فمها لتكتم صرخة: إنّه موركور.

كان الأسبوع الذي انقضى من بعد شاقاً. وقد يقول قائل إنّ النظرة التي رمقها بها ذلك الرجل عند حافة الطريق قد فتنتها. فكان عليها أن تراه مجدداً. وحسبها وفقاً لما تراءى لها أن تراه مرة أخرى يمرّ من أمام البيت ساعة تكون على النافذة. وبعد ذلك سوف يطمئن قلبها. لكن متى يخرج؟ قد يكون باكراً جداً، أو في وقت متأخر جداً، وربما في ساعات الطعام. وكيف لم تعرفه وهي تراه يمرّ؟ أصبحت الآن تنظر عبر نافذتها عشرين مرة في اليوم، لكنّها لم تعد تراه.

تسللت مرة أخرى، بعد العشاء، من دارة الزان ومضت تحوم حول الجناح. وهي لا تخشى من أن يراها أحد، لأنّ الناس في لاتور ديفيك، قلّما يخرجون من بيوتهم بعد غروب الشمس، لكن ما عساها تأمل؟ لمحت نوراً في الطابق الأول وتجوّلت في الشارع إلي أن انطفأ ذلك النور. وليست تدري ما السبب الذي جعلها تشعر بكثير من الرضى لرؤية ذلك النور ينطفىء، فعادت إلى البيت منهكة لكنّها ملأى بالثقة.

انتظرت الليل في اليوم التالي بنفاد صبر كـَبَحته بعناء أمام أختها وأبيها، وما إن أضحى بوسعها الخروج من غير أن تثير انتباهاً، حتى رجعت إلى موقعها المعهود عند زاوية الشارعين. غمرتها السعادة وهي أمام ذلك الجناح الأبيض ونافذته المضاءة. كانت تفكر قائلة في نفسها:" إنّه هناك، أنا أعرف ذلك." كان هذا اليقين يشكّل بالنسبة لها، وعلى نحو لا يقبل التفسير، نوعاً من ضمان أُعطي لها أو وعداً قطعه لها موركور على نفسه.

حلّت هذه العادة الجديدة الآن محل تلك التي كان قوامها جولة في الضاحية على أمل أن ترى ظهور عربة على الطريق. وما عادت الفتاة تفكّر منذ الصباح وحتى المساء إلا باللحظة التي ستتمكّن فيها من إسناد ظهرها إلى دارة لويزا ومواصلة مراقبة السماء، خشية أن تمرّ غيمة فتعكّر الطقس وتحرمها في الوقت نفسه من تلك الساعة، التي أضحت يوماً بعد يوم، أحد أسباب حياتها.

* * *

-٤-

تنزل أدريين في فصل الصيف، مرّتين إلى الحديقة في الأسبوع. فتقطف الأزهار، وعينا أبيها الواقف على درج المدخل، وأختها المستلقية على الأريكة ترقبها باهتمام. كانت تساير الأحواض المحاطة بالآجر، فتتوقف أحياناً لتقتلع تلك الأعشاب الصغيرة التي تظهر في سوقها نقطة حليب حين تلوى، وتحرّك المقص بيدها حركة تهديد حين تتوقّف أمام الأزهار التي أحرقتها الشمس. ولدى انتهاء جولة التفتيش هذه تقصّ خمساً أو ستاً من أزهار الغرنوقيات الحمراء، وهي النبتات الوحيدة التي قبلت أن تنبت في تلك الأرض القاحلة، ثم ترجع إلى الدارة كي تنسّقها في المزهريّات. وتقتصر مهمتها فيما تبقى من الوقت على التجول في المنزل، من بعد أن مرّت على حجراته بمكنستها ومنفضة الريش، وذلك كي تتأكّد من أنّ كلّ شيء على ما يرام. كانت فيما مضى تؤدى هذه المهمات بطيب خاطر، لأنّها تقلل من ساعات السأم التي تمرّ بين وجبات الطعام، أمّا الآن فتبدو لها بلا طائل. فهي تفضل عدم القيام بأي عمل وأن تستسلم لمجرى أحلام يقظتها، مع تلك المتعة المتمثلة بالانسياق باسترخاء وراء كافة الأفكار التي يمكن أن تخطر منها على بال. وتجلس في بعض الأحيان فوق الكنبة الكبرى في الصالة، فتلبث ساعة بحالها ملتفتة برأسها صوب النافذة ويداها تتشابكان فوق ركبتيها، وهي كأنّها مأخوذة بشيءٍ ما تراه في السماء. كانت تستمتع بتلك العطالة، وتأتي الحرارة لتجعلها تنزلق نحو حالة تقارب الخدر فيتشوّش كل شيء داخل ذهنها باختلاط محبّب.

إلا أنّ ذلك لم يكن بميل فطري من طبعها. كانت نشيطة، بخلاف ذلك، لكنّ ذلك النوع من التلاعب المتمثّل في عدم توجيه فكرها وتركه ينداح ويجري على هواه بكل حرية أو يدور حول ذكرى أو حول مشروع ما، يبدو

لها نافعاً لأنّه يمنعها من السقوط في الحزن ويتيح لها انتظار نهاية النهار من غير إفراط في الألم.

كانت أصغر نأمة في الشارع تجعلها تعود إلى نفسها فتجتذبها على الفور إلى النافذة. فتلتفت بعينيها يساراً بحركة غريزية، صوب الجناح الأبيض الذي تغلق نوافذه منذ الثامنة صباحاً، ولا تعود لتُفتَح إلا في السادسة مساء، حين يغدو الجو رطباً بعض الشيء.

تعرف أدريين تلك اللحظة حقّ المعرفة. فهي تترقّب حلولها بقلق كانت تعجز معه عن القول إنْ هو متعة لها أم عذاب. ولمّا تجرؤ على التجوّل في شارع الرئيس كارنو مخافة أن يراها أحد، وربما مخافة أن ترى الشخص الذي تموت شوقاً لرؤيته. ولا تعود قادرة بدءاً من الخامسة والنصف على الثبات في مكان، فتصعد بكل هدوء في السادسة إلا الربع إلى الغرفة في الطابق الثاني حيث لا تأتي جيرمين قبل حلول الليل، فتتمركز عند النافذة. كانت تجلس على حافتها، ضمن الفتحة، فتتشبّث بالستارة بيد ، كي ترى كما ينبغي، وتعتمد باليد الأخرى على الميزاب، وجسدها منحن فوق الحديقة.

وتلبث تنتظر على هذا النحو دقائق طويلة، ثم ترتدّ إلى الخلف قليلاً حين تشعر بالتعب أو حين تخشى من أن ترفع جيرمين رأسها، وهي تتجوّل فوق المرج، فتراها. كانت أصغر الأصوات تطرق سمعها، في صمت تلك الأماسي. فتسمع صوت أبيها الجالس فوق سطيحة درج المدخل، على كنبة من الخيزران لها صرير، وهو يبسط ثم يطوي الصفحات السميكة من جريدته **لوتان،** كما تسمع وقع الخطا المنتظمة لشقيقتها وهي تتجوّل فوق حصى الممشى. إنّ تلك الأصوات لَتثير أعصابها. فهي تذكّرها بسأم حياتها اليومية وتبدو كأنّها أصوات ماكرة تقول لها إنّها لن تفلت أبداً من تلك الدائرة المسحورة التي تخطّها جيرمين والسيد موزيرا من حولها. وكان يروقها أن تسدّ أذنيها دونها، لكنّها تنتظر صوتاً آخر، صوتاً خافتاً أكثر لأنّه أبعد، ولسوف يأتي من نهاية الشارع. وتستبدّ بها رغبة مباغتة أحياناً، وقد ضاقت ذرعاً بالنظر والإصغاء، في أن تشرع بالصراخ. فتصاب بتوعّك في اللحظات الأخيرة من ذلك الانتظار. فيتراءى لها أنّ السماء أضحت سوداء

قاتمة وأنّ سطح الجناح من الأردواز قد برز أبيض على خلفية صارت بغتة مظلمة. وتتساءل إن كان بوسعها مواصلة المكوث، وإنّ من الخير لها أن تمضي فتجلس، في اللحظة نفسها التي طال انتظارها لها، لكنّ ساعة قاعة الطعام تشرع دائماً بإطلاق دقاتها الست، حين تشعر بأنّها أضحت في منتهى ضعفها. وتمرّ بضع ثوانٍ. ثم تسمع طرقات مصاريع النوافذ وهي تُفتح فتدقّ الجدار واحداً بعد الآخر. عندئذ ترى امرأة مُسِنّة، هي الخادمة دون شك، تتكىء هنيهة على عارضة النافذة، في الطابق الثاني من الجناح، فتنتظر من طرف الشارع إلى طرفه الآخر. وحين تنسحب تلك المرأة، تعود أدريين، بعد أن ارتدّت برأسها كي لا يراها أحد، فتستردّ تمركزها واضعة قبضتها على الميزاب. وفي تلك اللحظة تميّز السجادة القرمزية والوجه الصقيل لخزانة مكتب مثقلة بالأوراق. فيصعد الدم إلى وجهها وتبدأ أذناها بالطنين. كان وزن جسمها كله يتركّز على قبضتها. ويتولاها انطباع فريد بأنّها على وشك الانطلاق في الفراغ، سابحة نحو تلك الحجرة التي تبدو لها بغتة قريبة جداً. وأخيراً تنتصب واقفة وقبضتها مرهقة، فتعود إلى الغرفة، وتتهالك فوق كنبة وقد استولى عليها الدوار.

وفيما كانت تغلق باب الغرفة ذات يوم وتستعد لهبوط السلّم، صادفت أختها وهي تصعد. نظرت إليها جيرمين نظرة ريبة، ثم سألتها:

"ماذا تفعلين فوق؟". اصطبغ وجه أدريين بلون أرجواني، فأجابت: "لاشيء."

ثم سألتها بغباء قائلة:

"وأنت، لماذا تصعدين؟"

فردّت جيرمين بصوت يعكس الرضى المسبَق عمّا ستردّ به:

"أنا، إنني صاعدة إلى غرفتي كي أستريح فيها".

ثم صعدت درجتين اثنتين فصارت قرب أدريين. أحسّت الفتاة بزفيرها يلفح وجهها فتراجعت قليلا. وكانت هنالك فترة صمت تبادلت الفتاتان النظر خلالها، ثم نهزت أدريين بكتفيها على حين غرة، فمرت بجانب أختها ودلفت الدرج بخطى سريعة.

دخلت غرفتها فصفقت الباب وراءها بعنف. واستبدّ بها غضب مباغت فخبطت الأرض بقدمها، وفجأة ارتمت فوق السرير فدفنت وجهها الملتهب في المخدة. أن تكون موضع مباغتة من جيرمين، من تلك الفتاة العانس التي يهيّئها مرضها لسوء النوايا! استندت إلى أحد مرفقيها وضربت بقبضتها على المخدة عدة ضربات وهي تقول بلهجة ساخطة: "الغبيّة! الغبيّة!"

تساءلت للمرّة الأولى ما عسى تقول عنها أختها ويقول أبوها، فيما لو أُتيح لهما أن يعرفا مكنونات قلبها. ونهزت بكتفيها، ثم تمتمت تقول بعد برهة من التفكير:"وما أثر ذلك!" وشعرت في داخلها بأنّها متفوّقة على هذين الشخصين، كأنّها قد وَعَت في غضون ثانية واحدة كل ما في حياتهما من باطل ومبتذل، وكل ما في حياتها هي من جديد وهام.

تناولت العشاء في ذلك المساء، هي والسيد موزيرا فقط، على نحو ما يقع كثيراً، لأنّ جيرمين لم تتنزل لأنّها ليست على ما يرام. وراق ذلك أدريين، فهي لم تكن راغبة في رؤية شقيقتها مجددا بعد وقت قصير من احمرار وجهها وهي حيالها. وخشيت فوق ذلك من أن تعمد الفتاة العانس لاستجوابها بشيء من الخبث، أثناء العشاء، عمّا كانت تفعل مساء ذلك اليوم في الطابق الثاني، وفي غرفة ليست غرفتها. تخيّلت مدى دهشة أبيها، والأسئلة التي سوف يرهقها بها. "في الساعة السادسة، فوق! ولكنك تكونين في تلك الساعة منهمكة بالقراءة في غرفتك؟ فماذا دهاك؟" وكأنّ هنالك طقوساً دينية ترغمها على أن تكون في تلك الساعة في هذا المكان بعينه وفي ساعة أخرى في ذاك. وشعرت حيال تلك الفكرة بالسخط ونفاد الصبر يملآن صدرها.

لا ريب في أن المشقّة لم تؤجّل إلا للغد. لكن يا لعذوبة الساعة التي تفصلها عن الغد! فما كاد أبوها يستقرّ في كنبته حتى كانت خارجاً. كانت المتعة تجعلها ترتجف. غرست أظافرها في الوشاح الذي يغطي كتفيها وهرعت بخفة حتى زاوية شارع الرئيس كارنو.

كان هنالك ما يكفي من الضياء لرؤية الجناح بكافة تفاصيله. صار الآن يتخذ في فكرها معنى أكثر وضوحاً كل يوم. فقد تأمّلته بادىء ذي بدء بفضول قلق، أما اليوم فهي تهرع إليه ملجأً. فهل هي معتوهة؟ وما الغبطة

الكامنة وراء تأمّل هذا البيت المبتذل؟ يُفهَم الأمر لو كان بوسع الشخص المقيم فيه أن يمدّ لها يد العون، لكنّ ذلك الشخص لا يعرفها. وما يعني من ناحية أخرى: أن يمدّ لها يد العون؟ على من يعينُها؟

أمسكت رأسها بيديها، وانتابها دوار من تلك الأفكار وهي تضطرب في نفسها اضطراباً مباغتاً، فنقمت على نفسها لتعكير صفو متعتها بالشرود وراء أفكار حمقاء، أمام ذلك المنزل حيث تمنّت أن تكون من لحظة نهوضها من النوم. فلم ليست سعيدة؟ وما بها إذن؟ وتزاحمت الدموع في عينيها. شعرت على نحو مباغت بوجود ما يسيطر عليها، ويدعوها من غير أن تعرف ماهو. فعبرت الشارع راكضة وجاءت تُلصِقُ شفتيها بجدار الجناح.

لكنّ الشارع كان فارغاً. فكتمت ما يشبه ضحكة وتمتمت قائلة: "حتى لو شاهدوني، لما فهموا." كانت وجنتاها ملتهبتين. فشرعت تصعد شارع الرئيس كارنو بأسرع ما تستطيع، وكأنّها هاربة من وجه أحد ما. ووجدت نفسها بعد قليل على الطريق العام فتوقّفت. كانت تلهث. جوّ الليل لطيف والهواء ساكن. إلا أنّ قمم الأشجار تتحرّك بهدوء في الأعلى بفعل نسمة لايشعر المرء بها.

أما في الطرف الآخر من الشارع، فتنبسط الحقول السوداء على مدّ النظر تحت سماء داكنة، تتلألأ فيها نقاط صغيرة مرتعشة. لاحظت أنّها تبكي، لكنّ دموعها بدت لها صبيانية ضمن عزلة الليل الشاسعة. قطعت بضع خطا فوق الطريق. كان لوقع كعبيها رنين فوق الحجارة. أصغت لذلك الصوت بالاهتمام المحموم الذي يبديه طفل متألّم وهو يعتقد أنّه عثر على أداة لهو. لو واصلت السير على ذلك النحو لوصلت إلى لونبريه، على ضفة الماء، ثم إلى كور... لقد سلك هذا الدربَ آلافُ الناس من كل صنف وجنس، فلمَ لا تسلكه بدورها؟ لمَ لا تواصل السير إلى حيث يروقها؟ ركضت قليلاً لكنّ ثيابها عاقتها فاضطرت لأن تتوقّف، وقلبها يخفق.

جلست فوق إحدى الصوّى وشرعت تدندن أغنية. بدا لها أنّها أضحت منذ بعض الوقت خارج ذاتها وأنّها تحرّرت من شيء ما بالتدريج. والمسألة

كأنما قد أمّحت بغتة من ذاكرتها آلاف الذكريات وأنّها قد أضحت شخصية أخرى.

مرّت عدة دقائق وهي ما انفكّت جالسة على حافة الطريق، غارقة في نوع من حلم يقظة يشبه النوم، حين جاءت هبّة ريح مسحت الأرض فجعلتها تجفل فنهضت. مشت على الطريق في اتجاه ثم في اتجاه آخر، ويداها معقودتان وراء ظهرها وعيناها تحدّقان في الأرض، وعادت تدندن لحناً بصوت خافت، لكنّها لاحظت على الفور أنّه لحن غالباً ما يصفر به السيد موزيرا، فلاذت بالصمت.

إنّها الآن معقودة الحاجبين، تمضي بخطى أسرع باتجاه شارع كارنو. وما إن تركت الطريق العام، حتى شعرت ببرد مفاجىء فمسحت بيديها على ذراعيها العاريتين. كانت بشرتها رطبة تماما. وتوقفت بغتة، كأنّما أيقظ في نفسها ذلك التماس فكرة قاهرة، فمدّت ذراعيها إلى أمام، ونظرت اليهما تحت الضوء الخافت الهابط من السماء. إنّهما بيضاوان مستديرتان تفوح منهما رائحة فواكه يصعب تحديدها، هي رائحة الجسد الذي يتمتع بصحة جيدة. وكان الخط المتعرّج يمضي من الكتف إلى المعصم ليرسم قوسين متعاكسين. تأمّلتهما هنيهة، وكانت البهجة في نظرتها تمتزج بالحزن، ثم أرختهما بحركة يائسة. لم يحدث قط أن قال أحد ما لها إنّها جميلة، لكنّها كانت تعرف ذلك. واستذكرت نفسها، ذات ليلة من الأسبوع المنصرم، وهي وحيدة في غرفتها، وقد أقضّت مضجعها إحدى نوبات الكآبة التي تعتادها كثيراً من غير سبب واضح. فقد جلست أمام طاولة الهندام، وذراعها فوق الرخام، ونظرت إلى نفسها في المرآة على نور المصباح. كان شعرها الأسود المنحدر جدائل على طول خديها يغطي كتفيها فيضفي على محياها شيئاً مهيباً وحزيناً. إلا أنّ عينيها تلتمعان والدم يجري بسرعة في عروقها. نظرت إلى نفسها على ذلك النحو مطوّلاً، وتأمّلت تلك القسمات التي تعكسها المرآة والتي لا عيب فيها. تأمّلت هذين الحاجبين المستقيمين والحازمين، وهاتين العينين الزرقاوين والفم بالشفتين الممتلئتين اللتين لا تنفرجان. باغتها مظهرها الجاد. سعت لأن تبتسم لكنّها لم تمتنع عن إغماض عينيها أمام تلك الهيئة بفرحها المتكلّف، وكأنها قد رأت شيئاً يتسبّب بالخجل. وعادت بعد لحظة ففتحتهما، وهزّت رأسها أمام

ذلك المحيّا الحزين المعروض أمامها، وأحسّت بأنّها تنوء فجأة تحت عبء يأس صامت، فتهاوت ليستند وجهها على الرخام ويتبعثر شعرها على الأمشاط وزجاجات العطور والعلب الصغيرة التي تتزاحم فوق طاولة الزينة.

أيقظتها تلك الذكرى تماماً. فما النفع في أن تكون في واقع الأمر جميلة؟ وهل يحول ذلك دون عذابها؟ وأي هناء تجني من هذا الشعر الغزير والبشرة النقية؟ كان لديها إحساس مؤلم بالسخف في الساعات التي تتألّم فيها. فتملّكتها الرغبة في العودة إلى البيت سريعاً لتتمدّد وتستسلم للنوم.

هبطت الشارع تجري فلم تتوقّف إلا أمام الجناح الأبيض. إلا أنّها حين لاحظت النور في الطابق الثاني مطفأ، تولاها، على الرغم مما يعتمل في نفسها من اضطراب، ذلك الإحساس بالرضى القلق الذي ينتابها في كافة الأماسي والذي يشكّل انتظاره هيكل حياتها.

بعد ذلك بقليل وصلت إلى الدارة. لا ريب في أنّها لبثت خارجاً فترة أطول من المعتاد، لأنّ أباها قد نام فكان عليها أن تتلمّس طريقها في الظلمة. صعدت على رؤوس أصابعها حتى باب غرفتها، وإذ بباب ينفتح في الطابق الثاني فيحدث صوتاً حاداً يمزّق الصمت.

ارتفع صوت جيرمين صائحة: "هذه أنت يا أدريين؟"

توقّفت الفتاة أمام عتبة الباب وقد خفق قلبها مباغتة وغضباً. وبعد تردّد قصير قالت بصوت خافت: "ماذا تريدين؟" فواصلت جيرمين تقول:

- أنت الآن تخرجين بعد العشاء، وها قد انقضت ساعة ونصف وأنت خارجاً.

فردت أدريين قائلة: "ليس هذا من شأنك."

وفتحت الباب فأوت إلى غرفتها، لكنّها سمعت أدريين تصرخ بصوت حاد وغاضب "بلى". كان ذلك قميناً بجعلها تخرج عن طورها. صفقت الباب وراءها وأدارت المفتاح في القفل مرّتين محدثة أكبر ضجة ممكنة. ثم ألصقت أذنها بمصراع الباب، لكنّ الصمت قد ساد. لبثت بضع دقائق في الظلمة، تصغي إلى زفيرها اللاهث، فسمعت باب أختها يُغلق بهدوء. لقد أجفلت من ذلك الصوت. شعرت بأنّه يكشف عن أشياء في طبع جيرمين ما كانت تعرفها حتى اليوم وتساءلت منذ كم من الوقت والمريضة تترصّدها.

قالت بصوت عال: "ما همّني، فليكن ما يكون!"

قامت بخطوتين أو ثلاث نحو المنضدة حيث يقوم المصباح، لكنّها ارتأت على الفور أن تخلع ثيابها في العتمة. لم تشأ أن تكرّر تجربة ذلك المساء فتبكي أمام مرآتها، بل تريد أن تتمدّد تحت الغطاء فتنام بأسرع مايمكن. خلعت ملابسها بيدين يحرّكهما الانفعال وحلّت عقدة شعرها وتمدّدت في السرير. لكنّ أفكارها منعتها من الرقاد، إنّها تشعر بالحر. كان الدم ينبض في شرايين عنقها فتقلّبت مرات عديدة من غير أن تجد الوضع الأكثر راحة. فدفعت حتى أسفل السرير باللحاف الذي وجدته ثقيلا ثم بالغطاء الذي كلن ملمسه يغيظها.

لبثت ساكنة وقتاً طويلا على أمل أن يأتي النوم إذا لم تقم بأية حركة، لكن ما إن تغمض عينيها حتى تأتي بقع وخطوط براقة فترغمها على فتحهما. ويُلزمها إحساس بالضيق في ذراعيها وساقيها بأن تستدير لتنام على جنبها. نهضت في نهاية الأمر فقعدت عند أسفل السرير. فعادت إلى ذهنها على حين غرّة جمهرة من الأشياء كأنّما لتسخر منها. تذكرت أنّها غنّت قبل قليل وهي على الطريق. وعادت فرأت نفسها وهي تلصق شفتيها بحائط الجناح الأبيض فشعرت بأنّ وجهها قد احمرّ تماماً وهي تفكّر بما أمكن لها أن تُقدِم عليه عبر ثانية من الاندفاع.

عادت لترقد في غضون ربع ساعة فأسدلت ذراعيها على طول جسمها، وهي تحسّ بثقل في رأسها، واستعادت ذاكرتُها أحداثَ طفولتها، على نحو ما يقع لها دائماً في الأوقات الأكثر شقاء. كرّرت بصوت خافت أسماء رفيقات نسيتهنّ ثم فكّرت بدروس مدرسة سانت- سيسيل وبإحدى معلمات الفرنسية التي كانت توبّخها على الدوام. كانت عانساً تضع نظارتين، وترتدي على الدوام مريلة بيضاء منشّاة جيداً وتحتها ثوباً من الصرج الأزرق كانت ثنياته تلتمع تحت الشمس. لا ريب في أنّها اجتازت مراحل عصيبة في حياتها لتصير إلى ما كانت عليه من شرّ. كانت أدريين تراها مجدداً، والكتاب في يدها، وهي تطلب تلاوة الأمثولة غيباً، فتترصّد أخطاء التلميذات بابتسامة لئيمة، ثم تسمع ذلك الصوت التعيس والأجش يهتف بلجة انتصار:" ثلاث خطيئات! سوف تحفظين غيباً عشرين بيتاً إضافياً!"

بدا لها فجأة أنّها تقع فتتماسك. أرادت أن تقوم بحركة لكنّ كفّيها متصالبان تحت قذالها فلم تقوَ على تحريكهما. وكان لديها إحساس بأنّها تتخبّط وفي اللحظة نفسها غزاها النوم.

استيقظت في غضون ساعات على نحو مباغت مثلما نامت. ونظرت فيما حولها لكنّ الظلمة تامة فلم تقوَ حتى على تمييز بياض مخدتها. وتذكّرت فجأة بيتاً من الشعر كانت قد حفظته فيما مضى وتواردت كلماته إلى شفتيها فتمتمت:

كان ذلك أثناء هَوْل ليل عميق

لم يسبق أن فكّرت قط في معنى تلك الكلمات، أما الآن وقد رفدتها ذاكرتها بها بعد سنين من النسيان، فقد بدت لها مصطبغة بجمال قوي ورهيب، فشعرت بالخوف. هنالك في الواقع شيء هادىء ومطمئن في الساعات الأولى من الظلمة، لكن كلّما سكن الليل وصمتت كافة أصوات الأرض، اتخذت العتمة والصمت بسرعة طابعاً مختلفاً. إنّه نوع من السكون الخارق ينوء بثقله على كل شيء وليس من كلمة بليغة سوى **الهول** لوصف الأوقات التي تسبق طلوع الفجر.

جذبت أدريين اللحاف على ساقيها واستدارت صوب الجدار الذي لمسته بيدها. وسمعت لهاثها فاعتبرته لثانية لهاث شخص منحنٍ فوقها، لكن تلك الخشية المتطيّرة تبدّدت حين استيقظت تماماً. هنالك أحلامٌ أقضّت مضجعها. فأية أحلام هي؟ لم يعد يسعها أن تتذكّر. إلا أنّها تساءلت هل صرخت أو قالت شيئاً ما أو كانت رنّة صوتها هي التي أيقظتها من نومها. وبدت لها فكرة أنّها قد تكلّمت وحدها وسط الليل فكرة مفزعة، إنّها تخشى ذلك الصمت وتخشى تعكيره بدرجة أكبر، فحرصت على أن تتنفس من فمها للتخفيف من صوت زفيرها.

داعب النعاس أجفانها مجدداً حين عبرت فكرة ذهنها: لا شكّ في أنّ مدام لوغرا ستأتي قريباً. وقد تستطيع مساعدتها. مساعدتها؟

وغرقت في النوم.

* * *

-٥-

لم يرد في اليوم التالي، على الفطور، ذكر للنزاع الذي نشب ليلاً بين أدريين وأختها، فما إن شربت جيرمين قهوتها حتى استقرّت كعادتها أمام نافذة الصالة. لكن ما إن خرج السيد موزيرا من الدارة ليقوم بجولته المعهودة، حتى استقامت العانس في جلستها فقالت لأدريين وهي تسوّي غطاء قطعة أثاث:

"هل ستقولين لي الآن ما كنت تفعلين خارجاً ليلة أمس؟"

استدارت أدريين بعنف. اصطبغ وجهها بلون أرجواني تحت المنديل الأبيض الذي يربط شعرها. فسألتها:

"هل قلتِ لأبي؟" فردّت جيرمين قائلة:

"وهل سيضيرك ذلك؟"

أدارت لها أدريين ظهرها وتظاهرت بالاهتمام بأحد أصص الزهر.

استأنفت جيرمين تقول وقد اعتمدت بمرفقها على حافة الأريكة: "ماذا، يا أدريين؟"

بدت بهيئة التصميم ورباطة الجأش كما يبدو الأشخاص الذين يتمتعون بتقدّم مسبق على الذين يدور معهم النقاش. فسألتها أختها:

- ولكن ماذا تريدين؟ فقالت جيرمين:

- أريد جواباً. لقد تغيّرتِ منذ بعض الوقت. أنت تخرجين ليلاً. فماذا تفعلين؟ ينبغي أن أعرف.

استدارت أدريين فمشت بضع خطاً صوب الأريكة ، وقالت:

- لماذا؟ أنت لستِ أمي.

وشعرت بأنّ صبرها قد عيل وأنّها ستأسف على ما ستقول. ثم استسلمت على نحو مباغت للغضب، وهي تشعر بالرغبة في التحرر من عبء وفي التسبّب بالأذى.

"هل الأمر لأنّك تكبرينني بسبعة عشر عاماً؟"

تدفّق الدم فجأة إلى خدّي جيرمين. بدت عليها المباغتة والشك من الوقاحة التي تضمنها جواب أختها، ثم عادت قسماتها لتتشنّج على الفور. قالت بصوت جعله الغيظ يضطرب قليلا:

"إنّي آخذ هنا مكان أمك. هنالك، لحسن الحظ، أحد يراقبك: ذلك أنا. ويفرض الواجب عليك أن تجيبي. أريد أن أعرف ما فعلت مساء أمس".

هزّت أدريين رأسها بقوة. فاستأنفت جيرمين تقول من غير أن تحوّل نظرها عنها:

"أتسمعين يا أدريين، أريد أن أعرف، وإلا فسوف أقول لأبي." فردّت الفتاة بصوت خافت:

- لن تعرفي شيئاً.

عادت جيرمين إلى جلستها المريحة فتكتّفت، وقالت بلهجة تهديد: "كما تشائين".

ابتعدت أدريين قليلا واستأنفت عملها. وساد صمت قصير، ثم عادت جيرمين تتكلّم بذلك العناد الذي يميز الضعفاء الذين لا يقبلون بالهزيمة فيستأنفون العراك دون كلل. قالت:

"إنْ كنت تظنين أنّي لا أعرف ما تفعلين، وأنّا لا نراقبك بما فيه الكفاية، فإنّ كل شيء مقروء على وجهك".

كانت أدريين تمسح المدخنة. فنظرت إلى نفسها في المرآة وقالت بصوت باهت:

"ماذا يقول وجهي؟" فردّت الفتاة العانس قائلة بعنف:

"يقول إنّك لا تنامين بما فيه الكفاية وإنّك تدورين في الشوارع".

مرّت أدريين بالممسحة على المرآة، بحركة آلية. بدت نظرة الدهشة في عينيها الصافيتين كأنّها تبحث عن معنى للكلمات التي تفوّهت بها جيرمين للتو.

أخيراً كررت القول: "إنّي أدور في الشوارع؟ لكنّها ليست جريمة. ولئن لم يكن بوسعي أن أنام، فهل هذه غلطتي؟"

عضت جيرمين على شفتيها. فمن المستحيل إظهار الغلط بهذه اللهجة. فشعرت بأنّها سخيفة وسمجة. فاستأنفت تقول بسرعة:

"أنت تعرفين ما أرمي إليه حقّ المعرفة. ولسوف أحيط أباك علماً بسلوكك ما لم تقولي لي ما فعلت أمس مساء".

وحيال صمت أدريين المتسم بالازدراء، ازداد فضولها حدة، ليتحوّل بغتة إلى غضب ساخط. فقالت وهي تمدّ السبابة متهددة أختها:

"أتعرفين أنك ستتكلّمين. أنا أعرف كيف أرغمك على ذلك".

لم تجب الفتاة. لكن ذلك الانفجار المباغت من الغضب ملأها دهشة.

ورفعت جيرمين صوتها كأنّها تريد إقناع نفسها بما تقول:

"أولاً لمَ أنت تتخفّين، لولا أنّه فعل سوء؟ فتنتظرين حلول الظلام لكي تتسللي خارجاً؟"

لم تعد تقوى على كتم غضبها الشديد حيال النظرة الصامتة التي توجهها أختها إليها. فأضافت تقول:

"إنّك لتفهمينني حقّ الفهم. فعبثاً تتصنّعين البراءة. لكنّك لن تحققي معي أي نجاح. فهل تحسبيني غبية؟ وتظنين أنّي لا أراك تصعدين الشارع في الساعة التاسعة من كل مساء؟"

امتُقِع لون أدريين. فتمتمت قائلة:

"ولمَ تريدين أن تجعليني شقيّة؟" فصاحت جيرمين:

"شقيّة! وأنا، أتظنين أنّي لم أكن بدوري شقيّة؟"

وبدرت عنها حركة تشنّجية ثم واصلت القول:

- تعذّبت بكافة الأشكال، أتسمعين، وعلى نحو رهيب. لكنّ تلك التجربة سوف تنفع. سأمنعك من ارتكاب الأخطاء نفسها التي وقعت أنا فيها.

- أية أخطاء؟

- لا حاجة بك لأن تعرفي. إنّما أنا أستجوبك لخيرك فقط، لا بدافع الشفقة.

ورفعت منديلها إلى شفتيها. ثم سألتها مرة أخرى:

"هل ستردين عليّ؟" فهزّت أدريين رأسها ، وقالت: "كل".

نظرت جيرمين اليها هنيهة ثم نهزت بكتفيها واستلقت على الأريكة من جديد. وقالت:

"اعتبري إذن أنّي لم أقل لك شيئاً." فقالت أدريين: "لابأس".

ثم حملت أصّ الأزهار وتوجّهت على الفور إلى الحمّام. لقد أدهشها ذلك المشهد حتى أنّها نسيت كل الغضب الذي امتلأت به نفسها بادىء الأمر من أختها. وضعت إناء الغرنوقيات في طست وفتحت الصنبور بكل قوتها. فبدأ الماء يسيل بفوران شديد فيضرب حافاتِ لسيراميك بضجة قوية. كانت الفتاة منحنية فوق الأزهار تنظر إلى الماء يرتفع ببطء حول الإناء فيجعله يتأرجح على قاعدته. وحين امتلأ الوعاء أغلقت الصنبور لكنّها أسفت على انقطاع خرير الماء الذي منعها من التفكير.

قعدت على كرسي وهي ما تزال مذهولة مما قالت لها أختها، إنّها لم تدخل قط في حوار مع جيرمين. فهذه المرأة تثير غيظها بكل ما تفعل، وأصغر حركاتها وسكناتها تثير استياءها. وكانت تشعر أيضاً بنفور غريزي من المرض الذي تشكو منه جيرمين فلا ترغب في مقاربتها. كان ذلك كله يضع بينهما مسافة ظلّت تكبر مع الزمن، ثم بدا للفتاة على نحو مباغت أنّها في حضرة امرأة مجهولة: كان ذلك ساعة تكلّمت جيرمين عن عذاباتها.

نهضت فاستعادت أناء الأزهار الذي مسحته بمريلتها وهي شاردة الذهن، ثم عادت إلى الصالة. لبثت واقفة هنيهة في وسطها، وعيناها تحدقان

في الرسم على السجادة القرمزية. كانت الشمس تلقي ببقعة مستطيلة، وسط كنبتين، في المكان المعهود.

دُهِشت أدريين لصمت أختها. مشت بضع خطا، فوضعت الأزهار فوق المنضدة المستديرة، وأزاحت بعض الكتب عن خزانة الأوراق.

قالت على حين غرّة: "ألا قولي".

لكنّ جيرمين لم تجب. فتوجّهت أدريين نحو الأريكة ونظرت في وجه أختها. لم تبدر عن العانس أية حركة لكنّ عينيها كانتا حمراوين. كانت الدموع ترتعش على الأهداب وتسيل على جانبي أنفها المعقوف.

قالت بصوت تخنقه العبرات:"لمَ تنظرين إلي؟"

أما وأنّ أدريين لم تجب، فقد أضافت وهي تشيح بوجهها عنها:

"هيا انصرفي، إنّي أكرهك".

في المساء، وبعد أن وضعت ديزيريه ركوة القهوة أمام السيد موزيرا، استدار العجوز نحو أدريين قائلا:

"أتدرين، لقد خطرت فكرة ببالي. فالسأم يتولانا هنا بعد العشاء. وسوف نلعب بالورق، لعبة الواحد والثلاثين".

رمت الفتاة من يدها فوطة المائدة التي كانت تقوم بطيّها ونظرت إلى أختها، لكنّ وجه جيرمين كان ساكنا وخالياً من أي تعبير.

ثم قال السيد موزيرا وهو يمرّ بقفا إبهامه على لحيته: "ما قولك؟"

شعر بالضيق من علائم المباغتة التي قرأها في وجه ابنته الثانية.

فردّت أدريين قائلة بسرعة:"يا أبي، أنا لا أعرف اللعب بالورق".

فقال السيد موزيرا بلهجة ضاحكة: "سوف أعلّمك. لن يحتاج الأمر لأكثر من دقيقتين. وسوف تلعب جيرمين معنا. أليس كذلك يا جيرمين؟"

فأومأت جيرمين برأسها.

واستأنف العجوز يقول: "الحق أننا هنا، لا نفعل شيئاً مساءً. فأنا أقرأ جريدتي، وأختك تصعد لتنام. يلزمنا شيء من التسلية. فما قولك؟"

نهضت أدريين فرفعت يدها إلى صدرها. لقد امتُقِع لونها فاعتمدت على مسند الكرسي، كأنما خشيت أن تقع أرضاً.

فكرّر السيد موزيرا القول بلهجة آمرة: "ما بك، يا أدريين ؟"

فتمتمت قائلة: "أريد التنحي قليلاً لأستريح".

فأمرَها السيد موزيرا قائلاً: "اقعدي".

وقبض على معصمها فأرغمها على الجلوس مجدداً. أغمضت عينيها وتغضّن جبينها.

قالت جيرمين بصوت بارد: "عجيب أمر هذا الوهن المباغت".

وهزّت رأسها ودفعت بفنجان البابونج الساخن الموضوع أمامها، فشابكت يديها فوق المائدة ونظرت إلى أختها.

وفسّر السيد موزيرا الأمر بقوله: "إنّها الحرارة. إنّ هذا السراج ينشر حرارة، وهو منخفض كثيراً: ارفعيه يا جيرمين".

مدّت جيرمين يدها نحو آلية التعليق فرفعت السراج قليلاً. بدا لون أدريين ممتقعاً تحت ذلك النور الهابط من الأعلى، فعقد السيد موزيرا حاجبيه.

قال لها وهو يملأ فنجان قهوة: "سوف تشربين شيئاً من القهوة".

فردّت أدريين قائلة: "لا أريد شيئاً، يا أبي".

بدا التردّد على العجوز لحظة. ثم نظر إلى جيرمين يستشيرها، فنهزت بكتفيها.

قال: "لا بأس".

جرع قهوته على دفعتين ونهض. في تلك اللحظة فتحت أدريين عينيها. فأشرق وجهها فجأة وهي ترى أباها قد نهض عن المائدة فظنّت لهنيهة أنّه صرف النظر عن لعب الورق، لكنّ السيد موزيرا ضرب بقبضته على مسند كرسيّها وقال لها بلهجة طيبة زائفة:

"انهضي. تقدّمي. سيكون وضعنا في الصالة أفضل".

أطاعت من غير أن تنبس ببنت شفة، ومرّت من أمام أبيها الذي ربّت على كتفها ضاحكاً.

مشت بضع خطا، فدخلت إلى الصالة ولبثت في وسط تلك القاعة المعتمة. تشوّش كل شيء في ذهنها. هنالك فكرة واحدة ما انفكّت تلحّ عليها فتتسبّب لها باضطراب يتنامى تدريجياً. لقد اقتربت الساعة التي تتوجّه فيها عادة إلى زاوية الشارع. الطقس جميل. والسماء ما زالت تلتمع عبر النافذة بذلك الضياء العذب الذي يشبه استطالة للنهار داخل الليل. ما من غيمة في السماء. أحسّت بانطلاق داخلها، بشيء يشبه ما كانت تشعر به في غرفة أختها، وهي منحنية على النافذة، فيملأ نفسها انطباع بأنّ الجناح قريب جداً وأنّها تستطيع أن تبلغه بوثبة فوق الحديقة والشارع. تشابكت أصابعها. سمعت أباها يصطدم بكنبة، تلا ذلك صوت احتكاك متكرّر لعود كبريت على طرف العلبة. وبعد قليل أضاء المصباح الصالة.

قال السيد موزيرا وهو يجلس إلى المنضدة المستديرة: "قرّبي كرسياً".

تحاملت على نفسها فجاءت بكرسي وجلست بين أبيها وجيرمين التي كانت تخلط الورق. كان المصباح الموضوع وسط الطاولة يدخّن قليلا فأبدت الملاحظة ذهنياً لكنّها لم تفكّر في الكلام. بدا لها ذلك حلماً مزعجاً، بدءاً من تلك العانس المريضة وهي تخلط الأوراق، إلى ذلك العجوز بلهاثه وزفيره المزعج، وانتهاء بها وهي جالسة إلى هذه المنضدة المستديرة بدلاً من أن تكون خارجاً بالقرب من الجناح الأبيض. وعاد بيت راسين الشّعري فخطر ببالها. فأيّ ليل يعادل في هوله المشهد الذي يجري أمام عينيها؟ أحنت رأسها بغتة ورفعت قبضتيها إلى جبينها. فهتف بها أبوها قائلاً:

"هيّا بنا، لا بأس! ماذا بك أيضاً؟"

أمسك بيدي أدريين فأرغمها على الكشف عن وجهها، وقال لها بصوت ينمّ على الغضب:

"سوف تقولين لي ما بك".

فاحتجّت أدريين قائلة بقنوط شديد: "ولكن ما بي من شيء" ووضعت يديها على ركبتيها.

قالت جيرمين بنفاد صبر:"إشرح لها اللعبة يا أبي، ولنبدأ".

أعاد هذا الكلام للسيد موزيرا هدوءه. فأخذ الأوراق التي وضعتها جيرمين على الطاولة وباشر بتوزيعها دون أن يقول شيئاً. كانت أدريين منكّسة الرأس تنظر إلى تلك القطع من الكرتون تتراكم أمامها بوقع حاد. فاستولى عليها نوع من الخدَر. أخذت الأوراق التي أُعطيت اليها، فراكمتها بآلية وشرعت تخلطها، فجاءتها صرخة من أبيها جعلتها تُجفِل.

قال: "ليس بعد! سوف أشرح لك".

وعرض عليها نظرية اللعب بكامله، مرفقاً كلماته بحركات صغيرة ودقيقة، رافعاً السبابة، عارضاً عليها أوراقه التي نسّقها في يده على شكل مروحة. فهزّت رأسها.

حين انتهى أوعز إليها قائلاً "ابدئي!"

فألقت لا على التعيين بورقة ما لبثت جيرمين أن غطتها بواحدة من يدها. وبدوره رمى السيد موزيرا بورقة وأرفق حركته بشرح جديد. ثم أوصاها قائلاً:

"أما الآن، فاختاري جيداً."

عقدت أدريين حاجبيها، وتأمّلت الأوراق التي أمسكت بها على شكل مروحة بناء على طلب أبيها، إنّها لم تصغِ لشروح السيد موزيرا الذي كان يترقّب الورقة التي ستلعبها، وتولاها للحظة ذلك الذعر الذي يصيب التلامذة حين يُلْقى عليهم سؤال فائق الصعوبة. كانت أوراق الختايرة والبنات والشباب تتراقص أمام عينيها. اختارت آس السباتي، وتراجعت، فأخذت العشرة الديناري. ولاحظت بغتة أنّ يدها ترتعش. ما كان أبوها أو أختها يفارقانها بنظراتهما. قرّبت الأوراق من صدرها كأنّها تريد أن تخفي لعبها. ثم قالت:

- لا أعرف.

فصاح أبوها ساخطاً:

- لم تفهمي إذن؟

وقالت العانس حانقة:

- العبي أيّ شيء. ونقرت على الرخام بقفا أصابعها.

أجابت أدريين وهي تكاد تفقد صوابها: "لا بأس".

تفحّصت أوراقها مرة أخرى ثم سحبت واحدة فرمت بها على الطاولة.

فصرخ السيد موزيرا: "كلا! لا يسعك أن تلعبي هذه. لكن أصغي إليّ!"

وانحنى صوبها ليعاود شروحه بصوت بطيء تتصاعد لهجته شيئاً فشيئاً. لم تستطع مواكبته. فكثيرة هي الأشياء التي اختلطت في رأسها حتى لم تعد تفهم كلماته البتة. لم تعد تسمع سوى أصوات يتجاوب فيها نفاد الصبر. لفح زفير العجوز وجهها. أغمضت عينيها وقد تولاها تقزّز مباغت وحاولت استجماع أفكارها. كانت كلمة تتجاوب في رأسها بإيقاع جرس ناشز: العذاب، العذاب. فكّرت بغتة في أنّ الساعة تجاوزت الموعد المعتاد حين تصل إلى زاوية الشارع. واجتاحها فزع متطيّر، إنّها تتخلّف للمرة الأولى عن هذا الشكل من الموعد. قد يكون ذلك مدعاة شؤم. قد يكون الدكتور في هذه اللحظة نفسها منحنياً ينظر عبر نافذته... نهضت بوثبة ورمت بالورق.

قالت: "لن ألعب".

فزمجر السيد موزيرا قائلا: "ماذا؟" وشعرت بيد أختها المعروقة تشدّ على معصمها، فجهدت لتتخلّص منها.

قالت العانس بلهجة آمرة: "اجلسي، اجلسي".

أخذ السيد موزيرا يضرب براحة يده على الطاولة.

ثم زمجر قائلاً: "سوف تطيعين. ستقولين لي ما القضية".

وكررت جيرمين القول: "اجلسي".

حاولت أدريين التخلّص لكنّ قوتها خذلتها فجأة فلم تتمكن من الإفلات. فشدّت ذراعها وشرعت تصرخ قائلة: "دعوني وشأني! دعوني وشأني!"

فصاح بها السيد موزيرا: "هلا كففت عن الصراخ! سوف يتجمّع الجيران. اخرسي".

صاحت جيرمين: "انتظري".

فأرخت ذراع أختها ونهضت ثم جرّت نفسها بأسرع ما تستطيع إلى النافذة فأغلقتها.

وقالت وهي تتسنّد إلى الجدار: "الآن اصرخي".

نهض السيد موزيرا بدوره. كان خدّاه محتقنين، لكنّه تكلّف الكلام بلهجة متوازنة، مثل رجل رابط الجأش تماماً.

قال: "لا ضرورة للصراخ. ولسوف تشرح لنا أدريين ما القضية".

وأمسك بالفتاة من ذراعها. كانت شاحبة تماماً وتعتمد بيدها على ظهر الكنبة.

قالت: "ماذا تريد يا أبي؟"

- أن تكلّمينا، أن تقولي لنا ما بك.

- ما بي من شيء.

فقالت جيرمين وقد عادت إلى مكانها: "إذن، العبي".

لم تجب أدريين. بدا لها كأنّ شيئاً مجهولاً قد تسلّل إلى هذه القاعة التي تعرفها حق المعرفة. وقع تغيير يصعب تعريفه. إنّه انطباع مماثل لانطباعنا في الأحلام حول أماكن نعرف أننا لم نرها قط فنراها مألوفة. فبعد أول حركة أثارها الفضول يأتي الفزع، ثم يتلوه الرعب الناجم عن العجز عن الهروب، وبقاء المرء ساكناً وأسيرا. تساءلت إن كانت قد أُصيبت بالجنون، فألقت نظرة على ما حولها. لم يكن المظهر المألوف للأشياء هو الذي يتسبّب لها بالصدمة، وإنّما طابعها الغريب والبعيد. وأحسّت مع ذلك بالهول، كما في الحلم، لعجزها عن الإتيان بحركة، وأنّها أسيرة قوّة مجهولة تمسك بها ما بين

هذه الكنبة وهذه الطاولة. توقفت عيناها لحظة عند المصباح: لاحظت أنّه لم يعد يدخّن وقاست عبر هذا التفصيل مدى الاضطراب الذي انتابها من لحظة جلوسها إلى هذه الطاولة المستديرة، ما دام واحد من اثنين قد اهتمّ بإنزال الفتيل، من غير أن تلحظ هي شيئاً. وأعادها صوت السيد موزيرا إلى وعيها.

قال وهو يميل صوب الفتاة: "إن كنت غير راغبة في الكلام، فأنا سوف أقوم بذلك. تقولين إنّه ما بك من شيء، لكنك تحلمين، وأنت شاردة اللب، وترفضين اللعب. وعرفت، من ناحية أخرى..."

بدرت حركة عن جيرمين، لكنّ السيد موزيرا رمقها بنظرة جانبية، وواصل قائلاً:

"علمت من شخص لن أذكر اسمه أنّك، منذ بعض الوقت، تخرجين ليلاً. وأنّك تلبثين خارجاً ساعة بل ساعتين، لست أدري. فماذا؟ قولي إنّ ذلك غير صحيح".

وقرّب وجهه من وجه أدريين. رأت عينيه بأجفانهما الثقيلة، وأنفه الضخم الذي تتعرج فوقه أوردة صغيرة. فاختنقت في حلقها الكلمات التي رغبت في أن تنطق بها.

وواصل يقول: "ألا يكفيك ذلك؟ تظنين أنّك حاذقة، وتتخيّلين أنّنا لسنا على علم بما تقومين به، أليس كذلك؟"

وصمت لحظة ثم استأنف يقول:

"تصعدين عصر كل يوم، بين الساعة الخامسة والنصف والسادسة، إلى غرفة جيرمين، فتنحنين فوق النافذة وتراقبين...

فهتفت الفتاة: "هذا ليس صحيحاً".

فقال السيد موزيرا: "يا جيرمين!"

احمرّ وجه جيرمين بشدّة ولزمت الصمت.

خبط العجوز على الطاولة بقبضته وصرخ قائلاً:

"وبعد، أتعرفين أنّي لم أعد أحتمل. أريد أن أعرف، هل تفهمين؟ أنت تُخفين شيئاً. هل ستتكلّمين؟"

وهزّها من ذراعها.

"أنت تقابلين أحدهم، أليس كذلك؟ اعترفي!"

أطلقت أدريين صرخة ألم، وسعت لأنْ تتخلّص، لكنّ يد أبيها كانت حازمة. قال:

"كلا، لن أدعك. سوف تقولين لي. أنت تعشقين أحدهم، أليس كذلك؟"

وهزّها بعنف حتى أوشكت أن تقع أرضاً. ورأت الفزع يرتسم على وجه أختها فاستولى عليها نوع من الهلع.

صرخت بصوت حاد أدهشها هي نفسها "أجل".

أرخى السيد موزيرا قبضته قليلاً. فسألها:" حسناً! من هو؟"

سادت لحظة من الصمت سُمِع أثناءها لهاثُ العجوز الذي أنهكته جهوده.

وكرر السؤال: "من هو؟"

فتمتمت الفتاة قائلة: "لا أعرف اسمه".

فجأر أنطوان موزيرا بالصراخ، وهو يمسك بأدريين من كتفيها:

"لا تعرفين اسمه؟ وتجرؤين على اعتباري غبياً؟"

كان تحت تأثير سورة غضب لم يقوَ على كظمها، فهزّ الفتاة بكل قواه. سمع أسنانها تصطك لدى كل حركة من رأسها فأطلقت صرخات مخنوقة. وخرست جيرمين رعباً فلم تتحرّك عن كرسيها. وبغتة تهالكت أدريين على صدر أبيها ثم سقطت ككتلة واحدة عند قدمي العجوز. لقد أُغمي عليها.

* * *

-٦-

فتحت عينيها في غرفتها وسمعت في اللحظة نفسها وقع خطا تبتعد عنها وباباً يُغلق، ثم همهمة أصوات وراء الباب. ساد الصمت على الفور تقريباً. كانت ترقد في سريرها بكامل ملابسها. هنالك ذبابات صغيرة تحوم حول المصباح فيُسمَع لها طنين. الطقس حار. سحبت نفساً عميقاً واتكأت على مرفقها عند حافة السرير ونظرت فيما حولها. توقفت عيناها على الخزانة ذات المرآة التي وهبها إياها أبوها لبلوغها السادسة عشرة. كان في تلك الذكرى شيء سخيف جداً وعنيف جداً لم تقوَ معه على كتم تنهيدة تقزّز. شاهدت في المرآة أنّ شعرها مشعث وينسدل حتى كتفيها، وعلى الرغم من الصدمة التي سببتها لها تلك الفوضى، لم تفكّر في استدراكها وواصلت النظر إلى نفسها. كان خداها ممتقعين، ووجهها في هيئة كئيبة لم تعرفها من قبل. كان فمها نصف مفتوح. ووجدت نفسها وقد شاخت على نحو مباغت لكنّها لم تحوّل عينيها. هل في قسماتها من تغيير؟ لاحظت أنّ المصباح يرسم ظلالاً تحت أجفانها. وقد أسبغ عليها ذلك تعبيراً بغيضاً. وفكّرت قائلة:"إنّني أشبه بميتة." وتراءى لها بعد قليل، لطول ما حدّقت في المرآة، أنّها تلمح خطاً غامقا يرتعش حول رأسها، ثم بدا لها وجهها يتضاعف ومعه كتفاها وتراءت صورة ثانية لها، ترددت لحظة فصعدت ببطء فوق الأولى. كذلك بدا لها أنّ شيئاً ما يشدّ عينيها، فلم تتوصّل إلى إغماضهما. تأمّلت هذين الشخصين اللذين يتراقصان أمام حدقتيها ويلبثان رغم ذلك ساكنين. وتوقفت كل فكرة في ذهنها. وبغتة سقطت مجدداً فوق مخدتها، كأنّها تلقّت ضربة على رأسها. ونامت.

حين استيقظت كان النهار طالعاً، فعانت من مشقة في النهوض ومكثت بضع دقائق في السرير. بعد نصف ساعة، ستكون في الأسفل كعادتها.

ستسمع أباها وهو يقرأ عناوين الصحيفة، وترى أختها وهي تتفحّص قعر فنجانها فتمسحه بطرف فوطتها على نحو ما تفعل دائماً قبل أن تسكب فيه قهوتها. ولسوف تواصل الحياة مسيرتها كالعادة، على الرغم من تلك المشادّة الرهيبة مساء أمس، في حين بدا لها أنّ كلّ شيء فيها قد تغيّر.

والواقع أنّها حين نزلت إلى قاعة الطعام، رأت السيد موزيرا وجريدته بيده. أما وأنّ النهار يبدو حاراً فقد خلع سترته السوداء من وبر الباكة ووضعها على ظهر الكرسي. كان الاهتمام يحفر في وجهه المحتقن تجاعيد صغيرة حول العينين والأنف، ذلك أنّه كان قاصي النظر فلا يقرأ من غير أن تظهر على وجهه بعض التجاعيد.

ولمح أدريين داخلة فرمقها بطرف عينه، وقال ببهجة: "صباح الخير".

وقالت جيرمين وهي تحرّك السكر في فنجانها: "صباح الخير، يا أدريين".

وردت أدريين: "صباح الخير".

وجلست. لا بأس بذلك. فما من شيء قد تغيّر. تأمّلت بنوع من الدهشة غطاء المائدة بمربعاته والفناجين الخزفية. ورأت على بطن ركوة القهوة المعدنية صورة مشوهة لوجهها، وهو ممطوط على نحو كان يُسَلّيها كثيراً وهي بنت صغيرة. فكّرت قليلا، وسكبت القهوة في فنجانها، وأحسّت بأنّها تحت تأثير قوة سحر، حين سمعت صوتها هي يتوجّه بالسؤال إلى أبيها في هذا الصباح، مثلما في كل الصباحات الأخرى:

"كم تبلغ اليوم درجة الحرارة، يا أبي؟"

عندئذ مرت فترة صمت ريثما يجري البحث عن جواب على هذا السؤال في أعلى الصفحة الثالثة من الصحيفة، وارتفع صوت أبيها، وهو يعلن من وراء الصفحات السميكة التي تفوح منها رائحة الحبر:

"الاحتمالات ليوم ١٧: ارتفاع خفيف للحرارة، ستٌ وعشرون درجة".

شعرت بأنّها مغلوبة. ورفعت عينيها خلسة فرأت جيرمين تتبادل النظر مع السيد موزيرا. ذلك التبادل الصامت للتهنئة التي وجّهها كل منهما للآخر جعلها تشعر بالهول، فأدارت رأسها. كانت السماء خارجاً بيضاء، يملؤها

ضياء شاسع وقوي حتى ليعجز النظر عن احتماله. وكان بوسع أدريين وهي في مكانها أن تميّز دارة لويزا عبر شجيرات الزيزفون العجفاء. ألا ليتها كانت ابنة تلك السيدة لوغرا. لربما كانت معاناتها أقل. وأدركت أنّ أباها وأختها يراقبانها فلم تقوَ على تحمّل صمتهما.

قالت على سبيل أن تحطم الصمت: "متى يأتي المستأجرون إلى الجهة المقابلة؟"

أزاح السيد موزيرا صحيفته ونظر من فوق نظارتيه إلى أمام. وبدا عليه إنّه يتذكر.

"مستأجرو العام الفائت، أعتقد...

قالت جيرمين وهي تقطع الرغيف: "جاؤوا في حزيران. لكن ليس ما يدعو للظن أنّ مدام لوغرا ستتصل في التاريخ نفسه".

قال العجوز مقتنعاً:"هذا أمر مسلّم به".

ألقى نظرة أخيرة على صحيفته وغمس قطعة من شطيرته في فنجان القهوة.

سألت جيرمين بلهجة تصنّعت اللامبالاة: "ولم تريدين أن تعرفي؟"

- لست حريصة جداً على أن أعرف. قلت ذلك...

فواصلت العانس تقول:"ومع ذلك فقد سألتِ".

نهزت أدريين بكتفيها ولم تُجِب. وأسند السيد موزيرا صحيفته إلى ركوة القهوة وشرع يقرأ وهو يتناول طعامه.

قال بين لقمة وأخرى: "سوف تسقط الوزارة، ذلك أكيد".

نظر العجوز إلى ابنتيه خلسة من فوق حافة الصحيفة. كانت أدريين منكّسة الرأس، وغير مصممة على شرب القهوة. أما جيرمين فما كانت تحوّل نظرها عنها.

بعد الفطور بدقائق أخذت أدريين المقراض من دُرْج في المطبخ وهمّت بالخروج. كان أبوها قد اعتمر قبعة القش العريضة، لكنه على غير عادته لم يخرج ليتجوّل بل استقرّ فوق كنبته على سطيحة درج المدخل، وصحيفته بيده. ولمح أدريين مقبلة نحوه من الممر الداخلي فسألها:

- إلى أين أنت ذاهبة؟

- إلى الحديقة، أقطف أزهارا.

فجاءها صوت يقول: "ليس هذا باليوم المناسب".

استدارت الفتاة لترى أختها تراقبها من كنبتها، عبر نافذة الصالة. فلبثت حيرى.

استأنفت جيرمين تقول بعد هنيهة: "لقد ذبلت الغرنوقيات. يلزمنا غيرها".

احمرّ وجهها وهي تشدّ بيدها اليمنى على المقراض بكل قوة.

ومدّ السيد موزيرا ساقيه إلى أمام كأنما ليمنعها من المرور.

وعاد فسألها: "هل سمعتِ ما قالت أختك؟"

اتكأت أدريين إلى إطار الباب ونظرت إلى أبيها. كانت عينا العجوز تبدوان سوداوين من تحت إطار قبعة القش، لكنّ الظل لم يحجب أنفه الكبير والخدين المنتفخين اللذين يختفيان تحت اللحية الصفراء. وتغضّن رأس خدّيه وقد ظهرت على وجهه ابتسامة رضى.

قال بعد قليل:"لمَ تنظرين إليّ؟"

فردّت بصوت مخنوق:"أريد أن أخرج".

فردّ عليها السيد موزيرا وهو يوقّع جوابه بحركة من صحيفته: "ولكنّك لن تخرجي".

فهتفت: "لماذا؟"

لم يجب على الفور، بل حدّق فيها، ولاحظت أنّ جريدته ترتجف بين يديه، فاستولى عليها الخوف فجأة فتراجعت قليلا إلى الممر. ونهض نهوضاً مباغتاً فتبعها. تراجعت أيضاً، فالتصقت بالجدار، ولامست راحة كفها اليسرى الإكساء الخشبي فوجدته فاتراً. كانت تهزّ كيانها حاجة عصبية للصراخ لكن أسنانها كانت تصرّ. ورأت أباها مقبلا صوبها. صفق الباب وراءه بكل قوة وصرخ بها:

"تريدين أن تعرفي لماذا؟"

جعلها ذلك الصوت الساخط تجفل. وسمعت أختها في الحجرة المجاورة تنهض فتغلق النافذة كما بالأمس. كان قلبها يخفق بشكل رهيب. فأرخت المقراض وأشارت برأسها أن لا.

فواصل السيد موزيرا يقول ببطء، لكن بلهجة متصاعدة:" سوف أقول لك. لا أريد أن تخرجي إلى الحديقة، لا أريد أن تغادري هذا المنزل ما دمتِ لم تقولي ما اسم ذلك الرجل. فهل فهمتِ، يا أدريين؟"

قالت "نعم" بصوت شبه مسموع. وانتابها وهنٌ في ركبتيها فأرغمها على التمسّك بالإكساء الخشبي الذي تحسّسته بيديها، حتى لا تقع أرضاً.

قال العجوز: "لا بأس. هيا الآن فاهتمي بشؤون المنزل".

وخرج فاستقرّ مجدداً على كنبته. شاهدته عبر شبك الباب يسترد جريدته فيفتحها. أغمضت عينيها هنيهة، ثم التقطت المقراض ودخلت إلى الصالة. كانت أختها واقفة ووجهها متيقّظ. كانت تتسنّد على المدخنة فرأت أدريين في المرآة التي تعكس باب الصدر. وضعت أدريين المقراض على المنضدة المستديرة ونظرت إلى الغرنوقيات التي تزينها. فأسقطت بإصبعها البتلات الذابلة، وحين انتهت من ذلك لبثت واقفة. سمعت جيرمين تمشي وراءها فتتوجّه صوب الكنبة ثم تحاول فتح النافذة. وبعد عدة محاولات بدت بلا طائل، سألتها الفتاة العانس قائلة:

"هل يسعك أن تساعديني على فتح هذه النافذة؟"

كان صوتها العذب ينمّ على التعب. ومن غير أن تنتظر جواب أختها تهالكت فوق الكنبة.

سألتها أدريين بلهجة كئيبة: "وكيف أغلقتها؟"

- لست أدري. لا ريب في أن الأمر كان أسهل.

ترددت أدريين هنيهة ثم توجّهت إلى النافذة ففتحتها. وأعادت من تلقاء نفسها الكنبة التي أزاحتها جيرمين عن موضعها. وجلست أخيراً على كنبة في

وسط الصالة. لقد أصابها الانفعال بالذهول فلم تعد تعي ما تقوم به. وسمعت لهاثها أكثر تواتراً من المألوف، لكنّها أخذت تهدأ شيئاً فشيئاً. كانت أشعة الشمس تصل إلى قدميها وتطبع أسفل ثوبها ببقعة طويلة مستقيمة ظلّت تراقبها لحين أن شعرت بألم في عينيها فرفعت رأسها. عبرت السماء غيوم رقيقة وبدت وهي تتبعثر تحت النور. كان الحرّ ثقيلاً. فما من نأمة تأتي من الخارج، ولا صوت عصفور. كما لم تعد تسمع أباها يحرّك أوراق صحيفته فأدركت أنّه استسلم للرقاد.

* * *

-٧-

بعد ذلك بأيام كانت جالسة إلى نافذة غرفة الطعام تنظر إلى الشارع. لقد عادت لتوّها من جولة بصحبة أبيها فلمّا ترفعْ قبعتها. صار السيد موزيرا يصطحبها الآن فيتوجهان إلى الطرف الآخر من المدينة، وراء الدير، فيشاهدان معاً أين وصلت الأعمال في المنزل الذي يُشاد هنالك. وقد أصبحت سقالة القمة مرفوعة. صفّق السيد موزيرا في عصر ذلك اليوم معبّرا عن اغتباطه، حين شاهد غصن شجرة والعلم ثلاثي الألوان يُعلّقان تعليق انتصارعلى أعلى نقطة مما سيغدو السطح.

كانت الساعة تقارب السادسة لكنّ السماء صافية صفاءها ساعة الظهيرة. وفكّرت في أنّ تلك المظاهر المختلفة للسماء هي التغيّرات الوحيدة التي تلاحظها في المشهد الذي يقع تحت ناظريها. كانت زيزفونات دارة لويزا محافظة على شكلها نفسه تقريباً، وتواصل الغرنوقيات الوردية والحمراء بأوراقها العريضة القطنية نموّها بكل طمأنينة. مالت برأسها قليلاً فلمحت الشجرة التي تنحني أغصانها بهدوء من فوق سطح الجناح الأبيض. امتلأ صدرها غماً. فما من شيء في حياتها قد تغيّر. حاولت مرات عديدة أن تقول وهي على المائدة: "بلى. إنّي أحب موركور، الدكتور المقيم في شارع كارنو"، لترى ما يمكن أن يقع، إلا أنّها لم تتوصّل قط للتفوّه بتلك الكلمات. كما أنّها لاحظت، حين كانت تعتقد أنّها على وشك النطق بتلك الجملة، أنّ جيرمين أو أبيها يبادران إلى الكلام، كأنّهما قد خمّنا قصدها فرغبا في منعها من الإدلاء بذلك الاعتراف. كانت تلك المفارقة تدهشها. فنسبتها إلى مصدر غامض ورأت فيها إشارة إلى الامتناع عن الكلام عن حبها، والاحتفاظ به سراً.

تعوّدت وهي وحيدة في غرفتها، بعد أن يُخلد كل من أبيها وأختها للنوم، أن تنطق باسم موركور بصوت عال، مع حرصها على حماية فمها بيديها حتى لا يقوى أحد على سماعها. وكانت تردّد هذا الاسم، الذي لم يقوَ كلٌّ من السيد موزيرا وجيرمين على انتزاعه منها، عشر مرات، بل عشرين

مرة، بفرح عنيف يسبّب لها ألماً. ويتراءى لها مع ذلك أنّها سوف تختنق ما لم تتلفّظ به. وما كانت لتبكي، إلا أنّها في بعض الأوقات التي يتعاقب فيها الخذلان والكآبة والقلق والآمال الخائبة، تشعر بشيء يمسك بخناقها، وبالدم يصعد إلى رأسها فيضرب صدغيها ضربات موجعة.

رفعت قبّعتها وأدخلت يديها في شعرها كأنّها تسعى برفعه إلى التخفيف من وزنه. وكانت ملابسها تشعِرها بالحر. نهضت فأسندت ركبتيها إلى حافة النافذة، واتكأت بمرفقيها إلى العارضة. مرّت في البعيد عربة على الطريق العام، لكنّ الصوت القادم من بعيد خفتَ تدريجياً.

فكّرت بكآبة في أنّ الساعة تقترب من موعد صعودها خفية فيما مضى إلى غرفة جيرمين. صار باب تلك الغرفة يقفل الآن بالمفتاح. إلا أنّها تستطيع إذا ما انحنت، أن ترى الجناح من النوافذ الأخرى، لكن ليس بالوضوح نفسه.

نسمت ريح خفيفة. فتنشّقت الهواء طويلاً وعيناها مغمضتان. وسمعت بغتة وقع خطا تصعد الشارع فالتفتت برأسها صوب الجناح على الفور. وانقبض قلبها. فهذا الرجل القصير الذي يمشي بمحاذاة الجدار هو موركور. تولاها الشك ثانية واحدة ثم تراجعت غريزيا، خشية أن تُشاهَد، متمنية بكلّ جوارحها أن تُشاهَد. كان يمضي مسرعاً، من غير أن يرفع عينيه. سوف يتوارى بعد هنيهة. جُنّ جنونها ، فبادرت بالقيام صوبه بحركة ثم كبحتها على الفور فانتقلت بيدها إلى فمها كأنّما لمنع نفسها من مناداته. إنّه الآن هنا، يمرّ من أمام البيت تماماً ويواصل السير باتجاه دارة لويزا. تشبثت بالعارضة وانحنت نحو الشارع كأنّها ستناديه. بل رفعت أحد ذراعيها، لكن لم يعد بوسعه أن يراها وواصل دربه. لم تعد تراه إلا من الخلف وما من سبيل سوى الصياح. عندئذ سيستدير. لكنّها لم تقوَ على ذلك. فالأمر كما في تلك الكوابيس حيث يعجز المرء عن الحركة وعن النطق ولو بكلمة. وتراءى لها أنّها ممتلئة بقوة لا تستطيع استخدامها. سمعت وقع خطاه المتباعدة، وبغتة ترك شارع تيير وسلك شارعاً آخر. إيه! بوسعها الآن أن تومىء ! دارت حول نفسها كالمجنونة. كيف تفعل كي تراه، كي تناديه؟ وخطرت فكرة ببالها. لو كان بوسعها أن تقع مريضة، فسوف يأتي. مريضة أو جريحة. جريحة.

أغلقت درفة من النافذة، وبحركة مباغتة، أغمضت عينيها ودفعت ذراعيها العاريين عبر الزجاج.

فاجأها صوت الزجاج المتكسّر. ورأت ذراعيها محزّزين بالأحمر وفي ثانية واحدة بدأ الدم يسيل منهما، فتأوّهت رغم أنّها لم تتألم، وشرعت تصرخ. أراحها كثيراً أن تصرخ. لكنّ الخوف تولاها وهي ترى ثوبها وقد تلطخ كله دماً، فاندفعت صوب الباب وذراعاها ممدودتان أمامها.

دخل أبوها تتبعه جيرمين لاهثة. وزال التوتر عن وجهيهما المهيّئين للغضب، لتصدر عن الاثنين صيحة "آه !" في آنٍ معاً. تراجع العجوز ونظر إلى جيرمين نظرة هلع.

قالت الفتاة العانس بصوت متقطّع: "كيف فعلتِ ذلك؟ إنّه عمل أحمق. "وواصلت تقول لأبيها: "هات بسرعة صبغة اليود ولفّة الشاش. في خزانة غرفتي".

مضى السيد موزيرا. فأخذت جيرمين فوطة مائدة من الخزانة الصغيرة ولفّت بهما ذراعي أختها، لكن ملامسة القماش للجراح جعل أدريين تصرخ وتحاول نزع الضماد. لقد جعلها مشهد دمها تخرج عن طورها وتولاها الإحساس بأنّها فقدت صوابها. فتهالكت فوق كرسي.

قالت جيرمين وقد التقطت الفوطة الملطخة بالدم: "هل تدعيني أتصرّف؟"

- أرسلي فاستدعي الطبيب.

فأمرتها جيرمين قائلة: "الزمي الصمت. ارفعي ذراعيك".

نفّذت أدريين الأمر. كانت شاحبة تماماً وتساءلت بارتباك لمَ أصيبت بالجراح. فهل كانت تأمل حقاً باستدعاء طبيب بسبب الجروح البليغة في ذراعيها؟ وأية فوضى قد حلّت مؤكّداً في ذهنها لتعتقد بذلك ولو لثانية واحدة؟ كان من اليسر بمكان أن تقوم بإيماءة نحو الطبيب ساعة مروره. كان سيتوقف. وبوسعها عندئذ التظاهر بشيء ما، أو بحصول تشنّج. كان بوسعها أن تضع يدها على رأسها فتطلق صرخة...

جاء السيد موزيرا يحمل زجاجة صغيرة ولفّة صغيرة بيضاء.

قالت جيرمين: "هات بسرعة".

أخذت الزجاجة الصغيرة، وقامت بواسطة ملقط صغير معلّق بالسدادة، بطلي جروح أدريين التي كانت تجأر بالصراخ. وبعد وقت قصير انقطع النزيف فلفــّت جيرمين ذراعي الفتاة بالشاش. فيما السيد موزيرا يراقب المشهد بهيئة من الضيق والفضول في آن معاً. لقد عرض على جيرمين اكثر من مرّة أن يمدّ لها يد العون فكانت تبعده بحركة آمرة لا تُعرَف بها في العادة. إنّ تلك المرأة، التي لم تكن حياتها سوى التطوّر الطويل لمرض واحد، لــَتجدُ نفسها في جوّها الطبيعي إذا صحّ القول، حين يتعلّق الأمر بالضمادات أو العقاقير. وتتجلى لديها في تلك الأوقات موهبة فريدة. فهي التي تعالج السيد موزيرا من نزلاته الصدرية وأدريين من آلام الرأس. ولديها على الدوام، في خزانة غرفتها، كل ما يلزم. أما كان يبدو عليها، وهي الخاملة فيما تبقى من الوقت، أنّها قد استيقظت، لمجرّد تدهور طارىء في صحة أبيها وأختها. فتقوم بإعطاء الأدوية بيد حازمة، ولا يتولاها الهلع أبداً في الحوادث البسيطة، فتُجيد المعالجة والشفاء بمهارة وحضور ذهن. لم تكن طيبة قلبها هي التي تدفع بها إلى التصرّف على ذلك النحو، بل مردّ المسألة دون ريب، إلى فطرة المريض الذي يكره المرض في كافة صوره وأشكاله، فيقومُ بمحاربته لدى الآخرين، لكي يثأر، إن صحّ القول، من عجزه عن السيطرة عليه في جسمه هو. فتمارس مهامها الطبيبة بحميّة وغيرة. فلا مجال لمعارضتها في رأيها أو لمساعدتها. أما مسألة استدعاء طبيب معالج من الخارج، فلا مجال للتفكير فيها. إحضار طبيب في حين أنّ جيرمين هناك! ما كان السيد موزيرا ليتوقف عند فكرة عجيبة مثل هذه. وتلك حال أدريين أيضاً، إلا أنّ اعتقادها باحتمال تدخل موركور هو الذي أتاح لها أن ترى إلى أيّ حدٍ أمكن لشرودها أن يمضي بها.

فكّرت في نفسها قائلة: "أهواه إذن إلى هذا الحد!"

وبدا لها الأمر نوعاً من الوحي.

بعد ذلك بيومين شُفيت بطريقة شبه تامة. فرُفِعت الضمادات وانغلقت كافة جروحها. لكنّها احتفظت بانطباع عميق عما أقدمت عليه. فهي لم تجد نفسها في تلك الحركة العنيفة التي وقعت لها وفكّرت بشيء من الاحترام المشوب بالخوف، حيال ما أوحى إليها بذلك.

كان شهر أيار يقترب من نهايته. وقد أقبل عدد كبير من الباريسيين على لاتور ديفيك، واستأنفت جمعية النّغم الحفلات الموسيقية التي تقيمها في كشك يقع في وسط الحديقة العامة. ولُوحظ المزيد من الحركة في شوارع وسط المدينة. أما القسم الذي يقيم فيه آل موزيرا فما يزال على حاله كما في الشتاء أو الربيع. فكان يُسمع ضجيج عربات أكثر على الطريق العام. وذلك كلّ شيء.

في ذلك الصباح كانت أدريين تقوم بقطع أزهار الغرنوقيات تحت مراقبة أبيها وأختها. لقد سمحا لها بتلك التسلية، على الرغم من أنّها لمّا توافق على ألإجابة عن أسئلتهما، لأنّ جيرمين كانت أضعف من أن تقوى على القيام بانتظام بجولة كاملة على الحديقة، وأنّ السيد موزيرا يرى من غير اللائق به القيام بقطع الأزهار. وفيما كانت عاكفة على الأحواض، سمعت ضجيج عربة فرفعت رأسها. وأزاح أبوها الصحيفة ونظر متنبّها إلى أمام.

سألت جيرمين: "ما الأمر؟"

فقالت أدريين: "ألا تسمعين؟" ومضت حتى الحاجز الشبكي فلبثت ساكنة، ووجهها مستند إلى العوارض. هبت ريح حارّة فأثارت الغبار في الطريق مصحوباً بضجة خافتة. واقترب صوت العجلات.

قالت جيرمين: "الآن أسمَع".

فأضاف أبوها يقول: "إنّه قادم من ناحية الطريق العام".

كان ذلك الحوار الصغير يدور دونما تغيير، مرات عديدة يومياً. ومرّت هنيهة. وفجأة شدّت أدريين على العوارض بقوة. فالعربة تهبط شارع كارنو ويُسمَع تماماً، عبر وقع حوافر الجواد على حجارة الشارع، صوت المكابح التي يقوم الحوذي بشدّها، لأنّ الشارع ينحدر انحداراً سريعاً.

فكّرت الفتاة وقد بدأ قلبها بالخفقان: "مدام لوغرا".

سوف ترى أخيراً تلك المرأة، وهي لم تعد تدري إن كانت تكرهها أم تتمنى قدومها. ونهض السيد موزيرا.

قال بلهجة تعجب: "أمر غريب!"

فالعربة سلكت شارع تيير. ليست إذن مدام لوغرا، ولم تستطع أدريين كبت إحساسها بالخيبة، لكنّ فضولها تزايد حين شدّ الحوذي لجام الجواد فتوقف أمام باب دارة لويزا نفسها. نزلت من العربة امرأة قصيرة القامة. كانت قصيرة جداً وترتدي ملابس عتيقة سوداء اللون تنمّ على حالها: من المؤكّد أنّها خادمة. بدت في تلك الهيئة الخجولة والجادة للخدم الطيبين، حين أبدت عزمها الشديد على أن تُنزل بنفسها، من العربة، الصندوق الخشبي الأسود الذي وضعه الحوذي إلى جانبه. لكنه قفز من على مقعده وحمل الصندوق على كتفه. عندئذ أخرجت المفتاح من حقيبة يدها وفتحت الباب المشبّك ودخلت الحديقة والحوذي يتبعها.

جرت متابعة ذلك المشهد من قبل سكان دارة الزان، بنوع من الشغف والفضول. كانت جيرمين جالسة، أما السيد موزيرا فهو واقف، فاغراً فمه، ينظر محدّقاً في الحديقة المقابلة، كأنما قد انحفرت هوّة فيها.

أحسّت أدريين بأنّ قلبها يثب داخل صدرها. فكل ما يقارب الشيء الجديد قمين بإثارة انفعالاتها حتى لَيتسبّب بعذابها. عبرت ذهنها أفكار مشوّشة. وبدأت يداها تؤلمانها من فرط تشبّثها بالعوارض الحديدية. لم يكن نظرها يحيط إلا بقسم صغير من الشارع، لكنّ نوعاً من شطحة الخيال، جعلها ترى ذلك الشارع يصل إلى الريف، فيلتقي بالدروب ما بين الحقول. فصمّمت على نحو مفاجىء مشروعاً ملأها غبطة وخشية: أن تفتح الباب المشبّك، فتولي مدبرة في الشارع، وتنطلق جرياً إلى الحقول والأحراش، لتشعر بأنّها حرّة ، ولو على مدى ساعة واحدة... سمعت أباها يتبادل التعليقات مع جيرمين فأدركت أنهما لا يراقبانها. أنزلت ذراعها الأيمن فالتصقت راحة كفها بقبضة الباب الشبكي، وضغطت بهدوء. مرّت ثانية. عضّت على شفتيها

وجذبت القبضة نحوها. هنالك شيء يقاومها. عندئذ أمسكت بالقبضة بكامل كفّها وشدتها بكل عنف، غير عابئة بالضجة التي قد تحدثها. لكنّ الباب المشبّك كان مقفلاً بالمفتاح.

مرّ أسبوع بحاله من غير أن تطرأ تعديلات كبرى على حياة أدريين. صارت الآن نوافذ دارة لويزا مفتوحة طول النهار، وتشاهَد الخادمةُ العجوز وهي تتنقّل من حجرة إلى أخرى، وبيدها المكنسة أو منفضة الريش. ثم جاء بستاني ليومين اثنين، يقلّم زيزفونات الحديقة طول بعد الظهر. ومن المسلّم به ألا يفوّت السيد موزيرا على نفسه أياً من تلك التطوُّرات، مما دعاه إلى إلغاء جولاته في نهاية النهار ليتمكّن من متابعة تلك النشاطات من كافة وجوهها. ولم تكن جيرمين أقلّ اهتماماً بما يجري في الجانب الآخر من الشارع، فكانت وهي مستلقية على الكنبة، في وضع ملائم جداً لترى كل شيء.

بدت أدريين وحدها غير عابئة بذلك. فمن بعد أن تمنّت وصول السيدة لوغرا، وانتظرته بخشية، صرفت النظر عنه بغتة، في حين أضحى ذلك الحدث وشيكا. وقد استولى عليها شيء من الخمول. فهي تصعد إلى غرفتها فور تمكّنها من ذلك وتستلقي على السرير لتنام، أو تنساق باسترخاء، حين يجافيها النوم، وراء قافلة طويلة من أحلام اليقظة. فيبدو لها أنّها قد لامست، إذا صحّ القول، أدنى دركات القنوط حين لاحظت أنّ أباها يغلق الباب المشبّك بالمفتاح كلّ صباح. والمسألة متعلّقة بالتفوّق الجسدي. إنّه الأقوى. فهل يسعها أن تنتزع منه المفتاح؟ والتناقض العجيب أنّها كانت تشعر بما يشبه الرضى وهي ترى نفسها عاجزة. فما عساها تفعل لو كانت حرّة؟ كانت ستسعى دائرة حول الجناح، فتطوف بعذابها في شارع كارنو ثم على الطريق العام، يغرّر بها أمل خائب في أن تصادف الدكتور. أما الآن فهم يعتقلونها ويضعونها تحت المراقبة. فقد يكون الوضع أقل هولاً في أن تظلّ غارقة هكذا في سأم لاهوادة فيه، من أن تنتقل انتقالاً محموماً من لحظة فرح قلق إلى أعنف حالات الغم. لقد أُرهِقت.

وتلعب كل مساء لعبة الورق التى لاقى أبوها أشدّ العناء في تعليمها إياها. فالشقة الآن بعيدة بين ذلك اليوم الذي فاض فيه السخط فجعلها تلقي

بالورق على المنضدة المستديرة معلنة أنّها لن تلعب بالورق. فهي تتخذ مكانها بعد العشاء، دونما حماس، بين أختها وأبيها. قد يقول المرء إنّ تلك الفتاة رغم قسماتها الحازمة، اختارت التكيّف في كل شيء مع قواعد المنزل لتنأى بنفسها عن السأم من جهة ولتبتعد من جهة أخرى عن قهرٍ وحشيٍّ يخيفها. فخير لها أن تلعب بالورق من أن تستسلم للبكاء والتثاؤب في غرفتها أو أن تكون ضحيةً لغضب عجوز متغطرس ومريضة حادة الطبع. فتقول في نفسها:

"لنشابههم، فننعمْ براحة البال".

كان السيد موزيرا، وقد لاحظ ذلك التغيير، يبدي اغتباطه حياله حين يكون وحيداً مع جيرمين. وكانا يراعيان راحتها. فما عساه يريد أكثر من ذلك. لكنّ جيرمين لم تكن تركن إلى الثقة برضوخ أدريين. أمّا وهي أكثر حذراً من أبيها، فتظلّ مرتابة في أنّ أختها قد تخفي خططاً عديدة، وفضولها الذي يفوق فضوله، يمنعها من الصفح عن الفتاة التي لم تبح قط باسم الرجل الذي تحب. فيا لمشهد ذلك اللعب اليومي بالورق، من مشهد قيّم بالنسبة لمراقب؟ وأولئك الأشخاص الثلاثة المجتمعين حول ذلك المصباح، وكم هي المصالح التي تفرّق بينهم، وأفكار الضغينة الكامنة في قلوبهم! فالأب خائف على استقرار بيته وعاداته، وبنتٌ أضناها العشق، وأخرى أقضّت مضجعها الغيرة والفضول. بدا ذلك كله متمثلاً تمثيلاً حسّياً في تلك اللعبة القائمة على استباق الجار في مخطط هجومه، بإسقاط مشاريعه والفوز عليه. فتتساقط الأوراق وسط الصمت على رخام المنضدة محدثة وقعاً صغيراً مبتوراً، ويرتفع صوت من وقت لآخر يعلن النتيجة، ويقدّم تقديراً موجزاً. ويفوز السيد موزيرا في نهاية المطاف، كما هي الحال دائماً تقريباً، فهو متمرّس بتلك التمارين تمرّساً تاماً، على الرغم من الحرص الشديد الذي تبديه جيرمين وجهود أدريين التي تتأجّج حماساً أثناء اللعب.

ينبغي للمرء، حتى يفهم قوّة العادة، أن يعيش بعيداً عن باريس. فلا نبالغ إنْ قلنا إنّ أدريين تعوّدت على عنائها بكل يسر، لا سيّما أنّ كل ما يحيط بها مطبوع بطابع حياة نظّمتها العادة حتى لم يعد فيها للطارىء من مكان. فذكرى موركور قد استقرّت في نفسها فلم تعد تفارقها البتة. والمسالة كأنّ تلك

النظرة التي رمقها بها الدكتور تلاحقها أينما حلّت وترغمها على التفكير به حصراً. وليس ما يشابه امرأةً مسحورة سوى امرأةٍ عاشقة. فلا يعود يُحسَب للإرادة أيّ حساب، حتى أنّ تفكيرها نفسه يُستَلَب منها. فهي لاشيء من دونه وهو وحده الذي يستطيع أن يجعلها تتصرّف. وإذا ما افترقت عنه، فإنّها تقع في ذلك النوع من الخدر المعنوي ولا تحتفظ من الحياة بغير وعيها لألمِها وعزلتها.

هنالك شيء رهيب يكمن في تلك الأشكال من الحياة في الريف، حيث لا يبدو من شيء يتغيّر، وحيث يحافظ كل شيء على مظهره، أياً كانت التبدّلات التي تطرأ على الروح. فليس ما يُلاحظ خارج حدود القلق والأمل والحب، فيواصل القلب خفقانه بغموض حتى الموت من غير أن يجرؤ المرء مرّة واحدة على قطف أزهار الغرنوقيات يوم الجمعة بدلاً من يوم السبت، أو أن يخرج فيتجوّل في المدينة الساعة الحادية عشرة صباحاً بدلاً من الخامسة مساءً.

* * *

-٨-

لم تأتِ السيدة لوغرا لتستقرّ في بيتها، إلا بعد عشرة أيام من وصول خادمتها، خلافاً لتوقّعات السيد موزيرا. والخارق في الأمر أنّ أدريين وحدها هي التي شهدت وصولها. فواقع الأمر أنّ السيد موزيرا، وقد خفّف من المراقبة التي كان يمارسها على ابنته الثانية، عاد فاستأنف جولته الصباحية من بيته إلى المحطة. أما جيرمين التي أقلقها مشهد السماء وقد تلبّدت بالغيوم، وأنّ الشمس لم تعد تظهر البتة تقريباً، فلبثت في سريرها على نحو ما تفعل دوماً حين يصدر عن الطقس أدنى تهديد. وعبثاً صاحت تنادي أختها لتسألها عمّ تكون ضجة العربة تلك، فأدريين تثأر للعذاب التي سبّبته لها تلك العانس، بالامتناع عن التكلّم معها.

اتكأت بمرفقيها إلى نافذة غرفة المائدة وأخذت تنظر. ما كانت قبل شهر من ذلك، بقادرة على التماسك من شدّة الانفعال، ولكانت اختبأت دون ريب وراء الستارة. إنّها ستعترف بينها وبين نفسها بأنّها تكره تلك المرأة، لأنها تغار منها، وتعود أحيانا بطريقة يصعب تفسيرها، للإحساس حيالها بشيء من تقدير يخالطه بعض التعاطف. قد يعود الأمر إلى أنّ السيدة لوغرا تملك بيتاً يواجه الجناح الأبيض مواجهة تامة. أليس امتيازاً للمرء أن يكون جار الدكتور وأن يتمكّن من مراقبة كل ما يجري داخل بيته على هواه ؟ وبدا للفتاة أنّ ذلك الوضع الخاص يسبغ على السيدة لوغرا نوعاً من العزّ.

ومع ذلك فقد أضحت تلك الانطباعات أقل وضوحاً منذ أسبوع أو اثنين. بل يكاد يسعنا القول إنّها قد امّحت، ما دامت الفتاة تبدو هادئة وهي تنظر إلى السيدة لوغرا تتنزل من العربة، بل إنّ ذلك الهدوء باغتها هي نفسها. قالت في

داخلها: "إنّها هي، مدام لوغرا"، وكأنما سعت إلى تحريض فضولها الخامد. وأضافت تقول بتسلسل طبيعي لأفكارها: "هل توقّفتُ إذن عن حب موركور؟"

كانت السيدة لوغرا قصيرة القامة وسمينة، ترتدي ثياباً سوداء وتعتمر قبعة عريضة مزينة بأهداب تخفي وجهها، لكنّ عنقها الضخم وكتفيها العريضين تنمّ عن سنّها. قفزت من العربة برشاقة ونادت خادمتها بصوت حاد. كانت حركاتها حيوية. وتكلّفت الدوران حول نفسها كمن لم يعد يدري مايفعل. ولمّا لم يأتها جواب شرعت تصدر أوامرها إلى الحوذي الذي حمل الحقائب. دخل الاثنان حديقة الدارة، يتبعهما كلب قصير القوائم أصفر اللون يهرول على أعقابهما. سمعت أدريين وقع أقدامهما على حصى الممر وصوت السيدة لوغرا وهي تسأل الحوذي عن حال الطقس في لاتور ديفيك مؤخراً. وراقبتهما من بعد يصعدان درج المدخل ثم يتواريان داخل الدارة.

مرّ بعض الوقت. كان الحصان يهزّ رأسه ليبعد الذباب الذي يطنّ حول خطمه. لقد وضعوا على رأسه قبعة من القش تنفذ عبرها أذناه المضطربتان على الدوام. وكان جسمه يلتمع بسبب العَرَق. تمسّكت الفتاة على نحو مفاجىء بالعارضة وانحنت إلى أمام. فصرّت عينيها بنوع من الانبهار. فهي تعرف هذه العربة التي حدّقت فيها قبل ثوانٍ. إذ سبق لها أن رأت عجلاتها الملوّنة بالأصفر وذلك المقعد المغلّف بجوخ أزرق باهت. عادت بها ذاكرتها إلى أكثر من شهر. كانت على حافة الطريق، مثقلة الذراعين بأزهار حقلية. مرّت بقربها عربة، وكان في تلك العربة رجل يقرأ، فرفع عينيه ورمقها بنظرة عميقة وشاردة في آنٍ معاً: كان موركور. عاد المشهد ليرتسم في مخيّلتها بوضوح شديد وفيض من التفاصيل التي جعلتها تضطرب. اجتاح شمَّها عطرُ الأزهار البرّية الحاد كأنّها ما تزال تحملها على ذراعيها، فتساءلت في نفسها إنْ كانت أُصيبت بالجنون. جلست على حافة النافذة، من غير أن تقوى على انتزاع نظرها من تلك العربة التي تذكّرها تذكيراً شاقاً وشبه ساخر باللحظة الغامضة التي شعرت فيها بأنّ حياتها مقبلة على التغيير. فهل من سعادة لم تراود تفكيرها؟ إنّها لا تجرؤ الآن على التفكير في ذلك. كانت تلك الذكريات الرقيقة والوحشية في آن معاً تُعمِل في قلبها تمزيقاً فيما هي تحدّثها عن

الفرح، ودُهشت من أنّها لم تقع منهارة تحت وطأة ذلك العذاب المتدفّق والعنيف. لم يكن بوسعها حتى أن تبكي. كانت ساكنة، فمها شبه مفتوح، تحبس أنفاسها حتى لا تقطع حبل الأفكار التي تجتاحها.

بعد دقائق ظهر الحوذي مجدداً، فوثب إلى مقعده، وجعل سوطه يطرطق فوق رأس الحصان. تأرجحت العربة فتوارت في ثلاث ثوانٍ وفقد الحلم السيّىء الذي كانت أدريين تعيشه قوّة هلوسته. قامت الفتاة. مشت بضع خطا في الحجرة بصورة آلية. تراءى لها أنّ قدميها تقودانها إلى حيث يروقهما وأنّها لم تعد مسيطرة عليهما. وحين مرت قرب المائدة تراخت فسقطت فوق كرسي وتهالكت فجأة فأسندت جبينها إلى ذراعيها المطويتين. وأجهشت بالبكاء.

سمعت بعد هنيهة جيرمين تناديها. كانت حركتها الأولى ألا تردّ، لكن كان في صوت أختها شيء من الغمّ أدهشها. وضربت عن الأمر صفحاً وهي مترددة. فنادتها جيرمين مجدداً. عندئذ نهضت وخرجت إلى الدرج فصاحت:

"ماذا تريدين؟"

ومن غير أن تنتظر الجواب، صعدت إلى غرفة العانس فولجتها. جعلتها رائحة أوراق شجر الكينا تغضّن وجهها، فالنافذة مغلقة. كانت لفافة طبية قد احترقت تماماً في منفضة موضوعة عند رأس السرير.

كرّرت أدريين القول وهي ما تزال في فتحة الباب: "ماذا تريدين؟"

كانت جيرمين جالسة في سريرها، تغطي كتفيها بوشاح من الصوف، وتنظر في وجه أختها بشيء من القلق، إنّها تبدو أكثر هزالاً من المألوف، لكنّ وجنتيها كانتا حمراوين.

قالت: "أغلقي الباب".

تردّدت أدريين. كانت تمقت أن تغلق عليها باب تلك الحجرة مع المريضة. أخيراً أغلقت الباب وتوجّهت إلى النافذة بخطى سريعة.

صاحت أدريين فزعة: "لا تفتحي!"

استدارت أدريين وسألتها متضايقة: "ما بك؟"

رفعت جيرمين يدها المعروقة ثم تركتها تسقط فوق اللحاف، كأنّ وزنها ثقيل جداً. كان في قسماتها وهنّ رهيب. قالت:

- هذه الحمى تنهكني.

- أنت مصابة بالحمى؟ فأوضحت جيرمين قائلة:

- لم أتوصّل إلى تخفيضها. فهي تنتابني في العادة مساء وتفارقني صباحاً. لا شك في إنّه الطقس المتغيّر.

- ليس الطقس بارداً اليوم.

هزّت المريضة رأسها وأغمضت عينيها. وسادت فترة من الصمت.

قالت أدريين : "هل أنت بحاجة لشيء ما؟ أتريدين شيئاً من الأسبيرين؟"

فقالت جيرمين: "كلا، أنا لا أريد شيئاً."

وأضافت وهي تدير رأسها صوب أختها: "اقعدي".

لم تتحرّك أدريين. كانت تتنازعها الرغبة في الانصراف والدهشة لسماع جيرمين تكلّمها بتلك اللهجة.

كرّرت العانس القول بلهجة توسّل: "هيّا، اقعدي. ألم تلاحظي أنني لست على ما يرام؟"

كانت تلك أوّل مرّة تنطق فيه شفتاها بذلك النوع من الاعتراف. جلست أدريين وسط الغرفة. فواصلت جيرمين تقول:

- لا أريد البقاء وحيدة.

- ولمَ ذلك؟ وممَّ تخافين؟

نظرت جيرمين إلى أختها نظرة دهشة، وقالت أخيراً:

- لست خائفة. فما قصدك؟

فقالت أدريين وقد عيل صبرها:

- لست أدري. أنا لم أقل إنّك خائفة.

ولاذتا بالصمت. وقفت أدريين ساكنة، مكتوفة اليدين فوق مريلتها. وجعلها تقزّزها من ذلك الهواء الفاسد الذي يحفّ بها، تجهد لأن تتنفّس بأدنى سرعة ممكنة.

مرّ وقت طويل حتى قالت العانس:

- أنت يا أدريين لا تعتقدين بأنّي مريضة، أليس كذلك؟

- كلا.

ومع ذلك لم تجيبي حين قلت لك إنّي لست على ما يرام.

- ولكن بم تريدينني أن أجيب؟

- ألست قلقة بشأني؟

فقالت أدريين :"كلا".

وانتابها الغثيان. شعرت بأنّ شيئاً مشؤوماً قد اجتاحها، وكأنّ الأفكار القاتمة لدى جيرمين قد انتقلت إليها بصورة غامضة وبدأت بتسميمها. فحوّلت نظرها لتتحاشى النظرة التي كانت العانس توجهها إليها. وقالت هذه على حين غرّة:

"أصغي إلي. سوف أقول لك شيئاً".

صمتت قليلاً كأنّما لتستجمع أفكارها وأغمضت عينيها. بدا وجهها فوق المخدّة البيضاء كأنّه يحترق بنار داخلية. وانحدر شعرها الذي بدأ يغزوه الشيب على عنقها جديلة قصيرة عقدتها بشريطة زرقاء. وبدت قليلة الشبه بنفسها مما سبّب خشية مفاجئة لأدريين التي أوشكت أن تنهض، لكنّ جيرمين فتحت عينيها ونظرت إليها.

قالت بهدوء: "أصغي إلي، يا أدريين، أعتقد أنّي سأموت".

نهضت أدريين عن كرسيها ومشت خطوة صوب أختها. منعها الذهول من الكلام بادىء الأمر. أخيراً قالت: "جيرمين، أنتِ حمقاء".

وبدرت عنها فجأة حركة تعبّر عن الغضب من هذه المرأة التي أخافتها. وكررت القول: "بلى، حمقاء. فليس بك سوى شيء من الحمى".

فهزّت جيرمين رأسها وقالت: "منذ اثني عشر عاماً وأنا مريضة".

قالت أدريين : "اسكتي. لو كان ذلك صحيحاً لعلمنا به".

فاستأنفت العانس تقول بلهجة هادئة:" بل تعلمين به حق العلم. فأنت لا تجرؤين على الاقتراب مني أبداً. هنالك وجهك. وما تعبّرين عنه حين اقترب منك، أتحسبين أنّي لا ألحظ ذلك؟ حتى في هذه اللحظة..."

غضت أدريين من بصرها. كانت تعي في الواقع التقزّز الذي يُقرأ على قسماتها. ومرّت بضع ثوانٍ بصمت.

قالت جيرمين : "ليس مرضي معدياً".

فسالتها أدريين وقد احمرّ وجهها:"ولم لا ترين طبيباً؟"

لمع بريق في عيني جيرمين فسألتها: "أي طبيب؟"

فتمتمت أدريين : "أي واحد كان، فهنالك أطباء في هذه الناحية".

- الدكتور الذي في شارع كارنو، على سبيل المثال.

- هو أو غيره.

فقالت العانس بمكر:

- بل ذاك، ولا أحد سواه.

- فقالت أدريين، وقد شعرت بعودة كل ما في قلبها من ضغينة حيال أختها:

- إلامَ ترمين بقولك هذا؟ وماذا تقصدين؟

رفعت جيرمين يدها، مثلما فعلت قبل قليل، ثم تركتها تسقط على السرير. وزمّت شفتيها، ثمّ قالت: "لقد خمّنت".

نظرت إليها أدريين من غير أن تجيب. جهدت في أن تقرأ أفكار جيرمين في عينيها، لكنّ الفتاة العانس تنهّدت بعمق وأشاحت بوجهها. انقبض قلب أدريين. وشعرت للمرة الأولى بالخجل من حبها. ألا تبدو مثار سخرية؟

أحسّت بالهول من تلك المريضة التي لا همّ لها سوى التلصّص على الآخرين. كما أحسّت بالهول من نفسها، ومن ذلك الهوى الذي يضنيها فتخفيه كأنّه داء.

قالت أخيراً: "ليس ذلك صحيحاً".

فردّت جيرمين قائلة: "بلى، ولقد جرّحت ذراعيك عمداً".

قالت أدريين بصوت خافت: "وما أدراك؟"

- لديّ عينان للنظر.

فهتفت الفتاة وهي تخبط الأرض بقدمها:

- لكنّ ذلك لا يعنيك. إنّك تتسببين بشقائي على نحو رهيب.

عند ذلك أدارت جيرمين رأسها لتصيخ السمع أكثر، ثم سألت: "كيف ذلك؟"

لم تعد أدريين تقوى على ضبط نفسها، فقالت: "كيف؟ لم أعد أخرج على هواي، وصرت مرغمة على لعب الورق معكما كل مساء، وعلى القيام بجولة في المدينة بعد الظهر برفقة أبي، ولم أعد حرّة، حتى لم يعد بوسعي أن أتكىء الى النافذة!"

وتوقّفت وهي ترى التعبير الذي ظهر على وجه أختها. وحفرت ابتسامةٌ خطين في وجنتيها. كانت تصغي مفترّة الثغر قليلاً، وهي تحاول أن تخفي فرحاً أخذ يكبر في عينيها. نظرت إليها أدريين هنيهة، بينما يعتمل داخلها اضطراب جعلها تتراجع صوب الباب فتعتمد على طرف السرير. وحسبت أنّها ترى في غضون ثانية واحدة توالي عشرين شيئاً مختلفاً. صاحت بغتة، أمام تلك البسمة التي لبثت على وجه الفتاة العانس الهزيل، وهي تحدس بالحقيقة:

- آه! إنك مغتبطة.

ورغبت في أن تضيف شيئاً لكنّ الكلمات اختنقت في حلقها. عندئذ رفعت كتفيها بسخط وخرجت مسرعة، فصفقت الباب وراءها بكل عنف. وقفت على سطيحة الدرج وأصغت، فلم يأتِ أي صوت من الغرفة. وضعت

قبضتيها في جيبي مريلتها بحركة غضب، وهي تلهث. وبغتة رفعت رأسها بهيئة من التحدي وهمست:

"إذن موتي!"

سمعت نباح كلب السيدة لوغرا الصغير، ثم دفع أحدهم الباب الحديدي المشبك لدارة الزان. إنّه أبوها العائد من جولته. نزلت فوجدت السيد موزيرا في الصالون. وشرعت وهي في غمرة اضطرابها، تذرع المكان جيئة وذهاباً، مطرقة الرأس ويداها في مريلتها.

فسألها العجوز قائلاً: "ما بك؟" فجمدت في مكانها. "أنا؟ لاشيء".

فلمَ، والحق يقال، نزلت إلى الصالون؟

توجّهت صوب الباب لكنّ أباها استوقفها.

"ما بك؟ وماذا كنت تفعلين فوق؟"

ثبّتت عينيها عليه فبدت كأنّها لا تراه. قالت: "فوق؟"

فصاح السيد موزيرا: "بلى. ولا تعيدي تكرار أسئلتي كلها. طلبت منك أن تقولي لي ما كنت تفعلين فوق".

هزّت أدريين رأسها.

"لا شيء".

فصرخ العجوز وقد نفد صبره بسبب تلك الكلمة: "كيف! كنت هنالك وخداك ملتهبان، وشعرك مشعّث..."

ألقت نظرة إلى المرآة فلاحظت أنّ خصلاً من شعرها سقطت في الواقع على جبينها. وباغتها شيء من الذعر والشرود في وجهها. فارتدت إلى وراء واعتمدت على مسند الأريكة. وقالت بغتة: "إنّها ستموت".

لم يتزحزح السيد موزيرا من مكانه.

وأخيراً سألها: "من هي؟"

كان واقفاً وسط الحجرة، وقبعته التي لم يرفعها تظلل عينيه. فتنهّدت أدريين ثم قالت بصوت باهت: "جيرمين".

فصرخ السيد موزيرا وقد أعماه الغضب: "جيرمين! ألم تصابي بالجنون؟ فهي ليست مريضة".

- بلى، إنّها مريضة.

فزجرها قائلاً: "هل ستخرسين؟ لو كانت مريضة، لقالت ذلك".

- لقد قالت ذلك لي.

- هذا ليس صحيحاً، إنّها على أحسن ما يرام.

نظرت أدريين إلى أبيها من غير أن تجيب. كان منتفخ الأوداج غضباً.

وصاح بها بغتة: "انصرفي!"

أطاعت فغادرت الصالون، وأغلقت الباب وراءها كأنّها في حلم. أما من الجانب الآخر للشارع، فكان كلب السيدة لوغرا الصغير يملأ الحديقة بنباحه.

* * *

-٩-

تغيّر الطقس فانهمر المطر مدراراً طول ذلك الأسبوع. ولم تقوَ أدريين ولا أبوها على الخروج. أما بالنسبة لجيرمين، فالأمر غير وارد حتى في درجة حرارة ألطف، لكنّ الاختلاف عن الأيام الأخرى أنّها لازمت غرفتها فلم تأتِ على أيّ موعدٍ من مواعيد الطعام. تظاهر السيد موزيرا بادىء ذي بدء بأنّه لم يلحظ ذلك الغياب. كان يكره أيّ تغيير قد يطرأ على عادات المنزل، لكنّه خشي إنْ أشار إلى ذلك أمام أدريين، من أن تعلّق أهمية على أمر قرّر أن يتجاهله. وقال في نفسه: "فلنضرب صفحاً عن الأمر وكل شيء سوف يُسوّى".

إلا أنّ سوء مزاجه كان يكشف قلقه. فعبثاً قال لنفسه إنّ أدريين تكذب وإنّ جيرمين ليست مريضة أكثر منه، لأنّ شيئاً ما كان ينذره بخلاف ذلك. ثم لام نفسه على تصديق تلك الترّهات، وصار يسأل أدريين يومياً، وهو يجلس إلى المائدة عن سبب تأخّر جيرمين في النزول، عسى أن يبثّ الشجاعة في قلبه حتى لا يصدّق.

وتردّ الفتاة قائلة بسأم: "ولكنّك تعرف حقّ المعرفة".

فينتهرها السيد موزيراً قائلا بغضب:"كلا، إنّي لا أعرف". أما حين تقول له أدريين مجدداً إنّ جيرمين مريضة، فكان يخبط على المائدة بقبضة يده، طالباً إليها التزام الصمت، ليقول:

"إنّي أمنعك من ذكر هذا أمامي، إنّ جيرمين على خير ما يرام". وأضاف ذات يوم بعد لحظة من التفكير: "على كل حال، سوف نرى".

ومسح بإبهامه على لحيته وقد ظهرت عليه علائم الرضى.

الواقع أنّه صعد في اليوم التالي إلى أمام غرفة جيرمين، فور إعلان الخادمة أنّ الطعام جاهز، وشرع يصيح:

"ألستِ جاهزة يا جيرمين؟"

ومرّت فترة من الصمت، فنادى من جديد وهو ينقر على باب ابنته. فجاءه صوت من داخل الغرفة: "لن أنزل".

فردّ العجوز بلهجة آمرة: "بلى، سوف تنزلين".

وألصق أذنه بالباب وأمسك بقبضة القفل. لقد اندفع الدم إلى وجنتيه فبدا وقد أسبغ بريقاً أشدّ من المألوف على عينيه الزرقاوين. كان في انحناءته للإصغاء وظهره مقوّس أشبه بوحش مفترس يترصّد فريسته.

وسألها: "هل تسمعينني؟ سوف أجعلك تنزلين".

أجتذبت تلك الضجة أدريين فصعدت بهدوء لتقف عند منتصف المسافة إلى الطابق الثاني، وتمركزت فوق درجة فأسندت ظهرها للجدار، وقعدت تصغي لصوت أبيها المزمجر، وقد ساورها خوف خالطه الفضول.

استأنف السيد موزيرا يقول: "يا جيرمين، أنذرك بأنّي سأدخل فأجعلك تنزلين".

وأدار قبضة القفل عدة مرات ليزيد من وقع تهديده. فرد عليه صوت جيرمين يقطعه الهلع: "كلا، يا أبي. إمض".

وصمتت هنيهة ثم أضافت: "إمضِ. سوف أرتدي ملابسي". فعاد السيد موزيرا يقول بإلحاح: "هل ستنزلين؟"

مرّت بضع ثوانٍ قبل أن يقول الصوت: "أجل"، لكنّه كان ضعيفاً حتى إنّ أدريين لم تسمعه. إلا أنّ الفتاة ميّزت جواب أختها من همهمة الانتصار التي صدرت عن أبيها.

قال العجوز: "لا بأس. كنت أعرف ذلك."

أرخى قبضة الباب وشرع يهبط الدرجات مسرعاً. وحين مرّ أمام أدريين قبض على يدها وهزّها غاضباً. غاصت عيناه عميقاً في عيني ابنته، فقال: "الويل لك أنتِ، إنْ قلتِ لي مجدداً إنّها مريضة..."

ولم يختم كلامه، بل نهز فجأة بكتفيه، فتركها هنالك وواصل الهبوط.

بعد ربع ساعة كانت أدريين والسيد موزيرا ما يزالان جالسين إلى المائدة. لقد انتهيا من شرب القهوة بالحليب. وبدا العجوز أكثر من مرّة وهو

يهمّ بالقيام ليرى إن كانت جيرمين ستأتي أم لا، لكنّه كان يتوقف عند حدود الضغط بقبضته على المائدة وهو ينحني قليلاً إلى الأمام، استعداداً لدفع كرسيه إلى الخلف والنهوض دفعة واحدة. ثم يتراجع عن عزمه وهو يجمجم. كانت أدريين تراقب تلك التمثيلية الإيمائية بطرف عينها وهي تلتزم الصمت. شعرت منذ أيام بإحساس يتسرّب إلى قلبها لم تشعر بمثيل له من قبل، وقد تسبّب لها بصدمة بادىء الأمر ليعود فيهبها غبطة سرّية: إنّها تزدري أباها. لقد أولته احترامها طول أعوام، بل تظنّ أنّها شعرت نحوه بذلك الحب غير الملتهب الذي يقوم المرء بتوزيعه حصصاً متساوية على شتى أفراد العائلة. لكنّها منذ اليوم الذي هزّها فيه بكل عنف ليرغمها على لعب الورق، أقرّت بأنّ الخوف وحده كان يشكل أرضية احترامها، وأنّ الحب البنوي ليس له أيّ دور على الإطلاق. وهي حتى الآن تخشاه، إنّها ترهب القوة الكامنة في معصمه الأشعر وتلك الأصابع العنيفة التي خلّفت آثاراً حمراء على ساعديها المرضوضين. وقبل قليل خفق قلبها بشدّة حين قبض على يدها ليهرسها داخل قبضته. إلا أنّها تعوّدت على هذه الأشكال من العنف حتى باتت معاناتها ضئيلة. وبدا لها أنّها من حين أن عكفت على ملاحظة سفاسف أبيها كلّها، أضحت حرّة أكثر وصار صدرها أكثر انشراحاً. فهل هي التي ترغمه، في واقع الأمر، على الظهور بتلك السحنة الهزلية، وعلى أن يمشي تلك المشية المتثاقلة، فاغراً فمه، وأن يأكل بطريقة قذرة؟ كلا، بيد أنّ من يره يحسب أنّه يفعل ما وسعه ليسقط من عين ابنته التي كانت ترمقه بنظرة تنمّ على الفضول والقرف. وقد يتمثّل العزاء الأعظم لدى المضطهَدين في اعتقادهم بأنّهم متفوّقون على مضطهديهم الطغاة. وتشعر أدريين أحياناً بأنّ فيضاً من الفرح قد تولاها حتى ليصل بها الأمر حدّ نسيان موركور. ويقع لها ذلك حين ترى أباها يرضخ لعادة مستهجنة ومترسّخة، تتمثّل في قيامه بتعداد الذبابات العالقة على شريط طويل من الورق اللاصق، يتدلّى من ثريّا الصالون، وكيف يرفع السبابة، وهو جامد النظر، ليهتف هتاف النصر: "خمس عشرة في ساعة واحدة!" أو حين يكون عليه الردُّ على رسالة جاءته، فتراه يعكف على ورقة ذات خطوط متوازية، فيخطّ عليها بتأثير عادة مهنية، كلمة "حضرة السيد"، فيحرّك الريشة لترسم زخرفات منمّقة تكلّفه زفرات وتنهيدات عميقة.

أما عواطفها حيال أختها فذات طابع مختلف. كانت تعرف أنّها حقودة، تحسد الآخرين على صحّتهم وهنائهم؛ وكان بوسعها أن تسامحها على ذلك بكل يسر، لولا النفور الذي يتولاها من مرضها حتى بددّ لديها أدنى عنصر من الشفقة. فما كانت تمرّ بجانب جيرمين قط من غير أن تحبس أنفاسَها، حتى لا تستنشق شيئاً من الهواء، الذي تعتقد في داخلها بأنّ الفتاة العانس قد سمّمته بنفــَسها المريض. وتعاني معاناة دائمة وهي جالسة إلى المائدة لأنّها قريبة منها فتغتبط كلّما احتبس الوهَن شقيقتها في غرفتها. والحقّ أنّها تسعى في الغالب إلى السيطرة على هذه الحالة النفسية، فتجهد للتوجّه بالكلام إلى جيرمين بلطافة أكبر مما هي الحال الطبيعية، لكن يبدو على العانس دوماً أنّها لا تستسيغ تلك المساعي من حسن الالتفات، فتظلّ غارقة على الدوام في سوء مزاجها مريضةً غير قابلة للشفاء. زد أنّ أدريين تشعر داخل نفسها بتقزّز لايسع أي اعتبار أن يتجاوزه، فهي تنفر من أختها نفور المرء من جحر الأفاعي، يرافق ذلك مقتها كلّ ما من شأنه تقصير الحياة وإفساد ينابيعها.

إنّها لتعي أشدّ الوعي قوّتها وفتوّتها، وهي ما بين شخصيتين، شخصية مريضة وأخرى استولت عليها روح الشيخوخة، أما الفرح الذي تخرج به فلا يتجاوز حدود الشعور الزائل قط. فما تجني في واقع الأمر من أنّها في الثامنة عشرة؟ هل هي سعيدة؟ كانت تحلم بالهروب، تحلم بأن تمضي لترتمي عند قدمي موركور، متوسّلة إليه أن يتخذها زوجة. الحق أنّ بضع خطاً فقط تفصل ما بين دارة الزان والجناح الأبيض، لكن تلك الخطا تفصل ما بين عالمين اثنين. وهي لا ترى وضعها إلا عبر التناقضات. فالحزن هنا يقبع عندها، وهنالك تسود السعادة عند موركور. هنا الحياة تهبط انحداراً، فالموت يحوم حول المنزل، وهناك الحياة هادئة ناعمة، يعمرها فرح غامر يتجدّد كل يوم. وتعيد داخل نفسها رسم الصورة المثالية لذلك الدكتور موركور الذي لم تلمحه سوى مرّة واحدة، لكنه يتّخذ في ذهنها سيماء شخصية رمزية. ويجعلها ذلك النوع من التصوّف لدى ذوي النفوس الساذجة، تشعر بأنّها أكثر قرباً منه على قدر عذابها من ظروف حياتها الراهنة، وتجد أحياناً عذوبة عجيبة تمتزج بمرارة المنغّصات التي عليها أن تكابدها. فتقول في نفسها: "لو لم أكن أحبّه،

ما كنت كابدت هذا العذاب كلّه." فتعود تلك الفكرة عليها بشيء من العزاء، كأنّ هنالك توزيعاً مبهماً يجعل الدكتور ينتفع من منغّصات الفتاة. وما تنفكّ تلك الأوهام تتوإلى في فكر أدريين فتجعلها شاردة الذهن.

أُجفِلت لسماع الشهقة التي أطلقها السيد موزيرا، والتفتت صوب الباب لترى جيرمين داخلة. كانت العانس تمشي بعناء ظاهر وهي تُغمِض عينيها كمن يعاني من وجع في رأسه، لكنّ أدريين اندهشت وهي ترى قلّة التغيير التي طرأت عليها. كانت تتوقّع رؤية وجهٍ معروقٍ أكثر، وضعف من هي مشرفة على الموت. وعلى الرغم من أنّ جيرمين هزيلة بشكل مريع وهي تتوكّأ على عصا، فإنّ ألوانها كانت تولّد لبعض الوقت الوهمَ بأنّها تتمتّع بالصحة.

صاح السيد موزيرا صيحة المنتصر قائلاً: "أنت ترَيْن تماماً، لقد قلتُ لك إنّك ستنزلين. ألمسألة مسألة ُعزيمة، ليس إلا".

ومسح سريعاً على لحيته بإبهامه وألقى نظرة خاطفة صوب أدريين سعياً وراء نظرة تأييد، لكنّ الفتاة تصنّعت عدم ملاحظة ذلك.

فقال وقد أغاظه الموقف: "هيّا، اسكبي لأختك. ورنِّي الجرس لجلب الخبز".

ووجّه من تحت المائدة رفسة قوية للكرسي الذي لم تقوَ العانس على جرّه إليها.

قال: "اجلسي يا جيرمين". قالها بلهجة عجوز طيّب، سعِد برؤيتها مجدداً تجلس أمامه، في مقعدها المألوف.

تهالكت فوق كرسيّها. قعدت جانبياً، منكّسة الرأس معتمدةً بساعديها على المائدة وهي تلهث قليلاً وتبدو منهكة. لم تنبس أدريين ببنت شفة وهي تملأ الفنجان بالقهوة الخالصة وتضعه أمام شقيقتها. كانت تمعن فيها النظر من غير أن تتوصّل إلى تمويه ذلك الفضول الجشع والفظ الذي نباغته في عيون الأطفال حين يشهدون المحن التي توقع بأحد رفاقهم.

أمرها السيد موزيرا قائلاً: "اشربي".

نكّست جيرمين رأسها وقرّبت الفنجان من شفتيها، لكنّها عادت فوضعته من فورها تقريبا. وعرتها رعدة. قالت:"أغلقوا النافذة".

دخلت الخادمة في تلك اللحظة تحمل طبق الخبز. فنهز السيد موزيرا بكتفيه، وقال بلهجة من غُلِبَ على أمره: "أغلقي النافذة، يا ديزيريه".

وضعت ديزيريه طبق الخبز، فأغلقت النافذة وانصرفت. وساد الصمت فترة.

أخيراً قال العجوز وقد لاحظ أنّ جيرمين لبثت ساكنة: "هيا، اشربي قهوتك".

رفعت جيرمين رأسها فاستقرّت عيناها البرّاقتان بأجفانهما المحمرّة على أدريين.

قالت: "أريد الأسبيرين".

فردّ عليها السيد موزيرا كأنّه كان يتوقّع مثل ذلك الطلب: "ماذا تقولين؟ وما حاجتك إلى الأسبيرين؟"

أدارت العانس رأسها صوب أبيها. كان فمها نصف مفتوح ورأسها يرتعش قليلا فينمّ على انفعال عنيف.

قالت: "لخفض حرارتي".

فهتف العجوز قائلاً:

- حرارتك؟ بل أمضيِ فانظري إلى نفسك في مرآة الصالة. فليس بك من الحمّى أكثر مما بي. بل إنّ سيماءك خارقة للعادة.

وواصل يقول وقد استبدّ به الحماس بسبب نبرة صوته الذي ملأ القاعة:

" إنّما أنا أعرف ما حقيقة الحمى. فقد أُصِبتُ بها عام ١٨٨٦. فالمرء لايقوى على النهوض وهو مصاب بالحمّى، بل يظلّ ممدداً خمسة عشر يوماً من غير أن يقوى على الحركة".

وبدا على جيرمين أنّها تهمّ بالكلام. فزجرها قائلاً:

- اسكتي. ناهيكِ بأنّ الإقليم هنا ليس مرتعَها. إنّ المرء لا يصاب بالحمى في منطقة السين- والواز، فهل سمعتِ ما أقول؟ أنت لستِ مريضة، وما من أحدٍ هنا أصيب بمرضٍ قط.

وتعالت شدّة صوته. فأخذ يصيح وهو يوقّع كلماته بضربات من قبضة يده على المائدة:

- أذن كفى، كفى، كفى. هل تسمعوني؟ أريد راحة البال. أريد البقاء مرتاحاً. هل تسمعينني، يا أدريين؟ إنّ ما أقول موجّه لكِ أنتِ أيضاً. إنّ أول من ستتناول منكما سيرة المرض مجدداً سوف تسمع أنباءً لا تروقها.

ونهض فقذف بالفوطة إلى وسط المائدة بين الصحون والفناجين. ونظرت ابنتاه إليه من غير أن تجرؤا على الردّ. كانت أنفاسه تتقطّع غضباً، لكنّه بدا مستمتعاً بما كان لكلماته من وقع. فصرخ بعد ثانية من الصمت: "مفهوم؟"

وهزّ كتفيه بحركة سخط أربع مرات أو خمس، ثم دسّ قبضتيه في جيبي سترته ومضى إلى الصالون. وسمعته كل من أدريين وجيرمين يتهالك متثاقلاً على كنبة وهو يطلق زفرة طويلة من الإرهاق.

* * *

-١٠-

بعد دقائق معدودة، كانت جيرمين تستجيب لعادة أبيها المستهجنة في حرصه على أن يكون كلّ شيء على حاله كالعادة، فتستلقي متمددة على كنبة الصالون، أمام النافذة، على الرغم من أنّ الطقس لم يكن مشمساً بل كان يُنذر بالمطر.

ما إنْ غادر السيد موزيرا المنزل متوجّهاً لشراء جريدته من المحطة، حتى استدعت شقيقتها التي كانت تتفقّد قطع الأثاث في قاعة العام. فجاءت أدريين على مضض. لقد اغتبطت بادىء الأمر لفجاجة أبيها الذي أرغم مريضة على الخروج من سريرها، وتذكّرت سوء نوايا جيرمين، فهللت لما أطلقت عليه داخلياً اسم الجزاء العادل. لكنّ صرامة العجوز موزيرا تجاوزت ما كانت تتوقــّع، فانتابها حيال شقيقتها ذلك الإحساس الغامض بالخجل، والذي يتولانا في حضرة أشخاص يجري امتهانهم على نحو يتجاوز بكثير ما يستحقون.

فقالت جيرمين بلهجة حازمة أدهشت الفتاة:

- يا أدريين ، لقد قررت مغادرة المنزل.

- مغادرة المنزل! لكنّك لا تفكّرين بذلك!

فاستأنفت جيرمين تقول بصوت قاسٍ وقاطع:

- ذلك شيء لن أناقشه معك. ،أنت تدركين جيداً أنّه لم يعد بوسعي، وأنا في هذه السن، أن أعيش تحت تسلّط هذا الرجل الذي لا يسمح لي حتى بالبقاء راقدة، حين يروقني ذلك، وحين أكون بحاجة اليه. أضيفي إلى ذلك هذا المناخ السيّىء والمقزّز. فالأمر يدعوك إلى الانتحار. إنّي بحاجة للدفء

والشمس وحرارة مستقرّة. إنّي بحاجة أيضاً للشعور بالحرية. لقد شاخ والدنا شيخوخة رهيبة. إنّه طاغية، إنّه طاغية. لقد رأيتِ أخيراً ما جرى هذا الصباح..ذلك المشهد الهزلي البغيض. من سنين وانا أُعمِل فكري في الرحيل، إلا أنّي تراجعت أمام متاعب لا حصر لها، لكنّها متاعب صغيرة في نهاية المطاف. وشعرت اليوم، في هذا الصباح، بالقدرة على الرحيل، فما عاد بوسعي الانتظار. ينبغي أن تساعديني، ينبغي ذلك، هل تسمعين؟ يبقى أنّك لن تتحسّري عليّ".

وضحكت هازئة بمرارة.

"إنّ صحتي وسعادتي، أجل ، سعادتي، وأشياء أخرى كثيرة منوطة بما أنوي القيام به. إنّني أكره هذا البيت، وأكره غرفتي الجليدية مذ أن تغيب الشمس، ما عاد بوسعي قضاءُ شتاء واحد هنا. لقد طفح بي الكيل. أريد الانصراف، أريد أن أرحل".

امتلأ قلب أدريين حزناً. وفكّرت على الفور بالغرفة التي ستغدو فارغة، وبالنافذة التي يسعها الجلوس إليها طول النهار. فمشت خطوة باتجاه الكنبة.

قالت بصوت مرتعش:"وماذا عن أبينا؟ وما ستقولين له؟"

- لن يعرف أبونا شيئاً قبل رحيلي.

- وماذا عن المال يا جيرمين؟ أين ستجدين المال اللازم لهذا السفر؟

قالت جيرمين بنزق:"المال، المال، سوف أجده، ثقي بذلك. سأفكّر في الأمر. والآن، هل تريدين مساعدتي، هل تساعدينني على الرحيل من هنا؟"

احتبست أدريين شهقة بلغت شفتيها.

قالت: "إن كنت تظنّين أنّ بوسعي أن أساعدك..." وسكتت وقد تملّكها خجل حال دون فضح ابتهاجها. فأغرقت الفتاة العانس بالضحك. فسألتها أدريين:

"لمَ تضحكين؟"

فقالت جيرمين: "ليس الأمر بذي بال. هل ترغبين في كتابة الرسالة التي سوف أمليها عليك؟ هاتي ورقاً من الخزانة".

نفّذت أدريين الطلب من غير أن تتفوّه بكلمة، فجاءت بورق وريشة وحبر وجلست أمام الطاولة الصغيرة.

قالت جيرمين:"هل أنت جاهزة؟"

وأملت عليها الرسالة التالية:

"سيدتي، أرغب في الدخول إلى مقرّكم، لقضاء أسبوع واحد، ريثما أعثر على مكان يلائم الحالة العامة لصحّتي. وأقبل سلفاً بدفع قيمة الإيواء التي حددتموها. أعتذر لأنّي لا أحمل أية توصية، سوى الظرف الذي أعيشه، والذي آمل أن يشفع لي بحسن اهتمامكم. سوف أصل غدا الثلاثاء، في قطار المساء.

تفضّلي، يا سيدتي بقبول..."

وتوقّفت مترددة.

"هل يخاطبون راهبة بكلمة سيدتي؟" فقالت أدريين:

"لست أدري. لا أعتقد".

- لا يهم. فلن أتوقّف عند تلك الترّهات: "... بقبول فائق احترامي". وقّعي واكتبي على الغلاف: "السيدة رئيسة مأوى سان- بليز".

- لأية محافظة تتبع سان- بليز؟

- لست أدري.

- ابحثي في معجم لاروس. لكن أسرعي. فهي على وشك أن تمطر وأبونا سيعود".

أخذت أدريين أحد المعاجم من خزانة الكتب وباشرت البحث. وفيما هي تتصفّح المعجم باستعجال تضطرب له أصابعها، توكأت جيرمين على أحد مرفقيها وهي تنظر إلى سور الحديقة. كانت جامدة القسمات، لكنّ شيئاً من التوتّر في نظرها كان ينمّ على قلق عميق. وقامت بحركة مألوفة لديها فاجتذبت طرف وشاحها إلى صدرها.

قالت بعد هنيهة من نفاد الصبر، وهي تضرب على ساعد الكنبة بيدها: "طيّب".

أغلقت أدريين المعجم وأكملت العنوان قائلة: "محافظة الساحل الذهبي. لقد كتبتها".

- لا بأس. أغلقي المغلف. سوف تجدين طابعاً في دُرْج الخزانة. وحين تخرجين بصحبة أبيك بعد الظهر، تُسقطين الرسالة خلسة في الصندوق".

توقّفت هنيهة وبدا أنّها تتفكّر. ثم أضافت تقول بسرعة:

- انتظري، هنالك شيء آخر. بلى... أعيدي الكتاب إلى موضعه. سوف تكتبين إلى مؤجّر العربات لكي يأتي غداً، فيتوقّف عند زاوية شارع كارنو، في السادسة والنصف. فشهقت أدريين متعجّبة:

- السادسة والنصف!

- أريد الرحيل قبل أن يستيقظ أبي. قولي للمؤجّر أن يأتي في الوقت المحدّد. قولي له أنْ يأتي في السادسة والربع، فسوف أكون خارجاً مع حقائبي.

- وماذا لو كانت تمطر؟

بدرت عن العانس إجفالة فزع. لم تفكّر في ذلك الاحتمال، لكنّها استعادت رباطة جأشها. قالت:

- وليكن. سأكون هنالك. ولسوف أتدبّر الأمر بحمل مظلّة. آه. بقي مفتاح الشبك الحديدي. سوف تأخذينه من جيب أبيك.

- من جيب أبي! ومتى يكون ذلك، يا جيرمين؟

- لا أدري.ربما هذا المساء. لا بأس، على كل حال ، فها هي تمطر.

نهضت أدريين وجاءت قريباً من الكنبة. إنّ الاندفاع المتسارع في كلام جيرمين انتهى بجعل الفتاة عصبية مثلما كانت هي. وسألتها:

"كيف تريدين أن آخذ منه المفتاح؟"

استدارت جيرمين صوبها بوجه طافح بالغمّ. قالت:

"انتظري حتى حلول الليل، لتدخلي إلى غرفته. إنّه يضعه في جيب سترته الأيمن.

فتأخذينه وتمضين لفتح الباب المشبّك، ثم تعودين فترجعينه إلى مكانه. هل ترغبين في ذلك، قولي؟"

بدت أدريين مترددة.

عندئذ قالت جيرمين وقد استولى عليها الهلع: "أليس كذلك؟ ألن توافقي؟ إنّي أتوسّل إليك. ليتني كنت أستطيع ذلك بنفسي... أنت تخشين أن يستيقظ؟"

وأومض وجهها. فارتفعت على مرفقها وقالت وهي تخفض بعض الشيء من صوتها:

"أُقسِم لك على إنّه لن يستيقظ. فهو غالباً ما يقول ذلك، يقول إنه لايتحرّك طول الليل وإنّ قصف الرعد نفسه لا يوقظه. أتسمعينني؟ أقسِم لك...

فقالت أدريين : "لا بأس..."

وعلى حين غرة، تولاها هي نفسها نوع من الحماس فهتفت:

"كلا، فمن المؤكّد أنّه لن يتحرّك، والخوف صبياني. سوف أكتب إذن لمؤجّر العربات. وأضع الرسالة في البريد بعد ظهر اليوم. ستصله عند توزيع الرسائل في التاسعة. كم من الوقت يكون مضى على رحيلك؟

- لا أدري. لا تنسي، في السادسة والربع.

فُتِح الشبك الحديدي في طرف الحديقة. صعد السيد موزيرا الممرّ الأوسط راكضاً. دسّت أدريين الرسالة في صدارتها، ثم أرجعت الريشة والحبر إلى الخزانة.

وجين دخل أبوها الصالون كانت منهمكة بمسح المشاعل البرونزية التي تزيّن الموقد. كانت جيرمين مغمضة العينين فبدت نائمة.

راقب السيد موزيرا وابنتاه السماءَ بإحساس لا يختلف إلا بدرجاته، وكان الإحساس هو نفسه لدى أولئك الأشخاص الثلاثة. هل ستمطر؟ وبحثت العيون فيما بين الغيوم عن دلائل الطقس الحسن. لكن، مهما يكن الضيق الذي

انتاب العجوز بسبب التعطّل الذي سيطرأ على نزهته اليومية، فهو ليس بشيء إلى جانب قلق أدريين وذلك النوع من الهلع الذي استولى على قلب جيرمين. لو كانت هاتان الفتاتان مؤمنتين لصلّتا. كانتا لدى كلّ همرة مطر تتبادلان نظرات محمّلة بحزن فظيع. فمن يرهما يقلْ إنّ حياتهما منوطة بما سيكون عليه الطقس بين الساعتين الرابعة والخامسة. قد يكون ضرورياً تذكّر نمط حياة الأختين، لفهم تلك الحالة النفسية فهماً صحيحاً. ولسوف يبدو مدهشاً في الواقع، ألا تجدا في ذاتهما ما يكفي من الصبر لانتظار يوم ملائم لتنفيذ مشروعهما، بعد أن عاشتا زمناً طويلاً جداً في ظروف رتابة لا تُحتَمل. فإنْ تمطرْ بين الرابعة والخامسة، تتخلّف أدريين عن الخروج فلا تقوى بالتالي على وضع الرسالة في البريد لتصل إلى مؤجّر العربات قبل حلول الليل. لكن، ألا يسع جيرمين، إن تخلّفت عن السفر في الغد، أن تؤجل رحيلها إلى اليوم التالي أو حتى إلى الأسبوع التالي؟ إنّ القلب البشري مصنوع على ذلك النحو. فهو يدع السنين الطويلة تمرّ من غير أن يفكّر لحظة بأمر التمرّد على مصيره، ثم يحين وقتٌ يشعر فيه على نحو مباغت بأنّ صبره قد نفد وبأنّه لابدّ من تغيير كل شيء في الساعة الراهنة نفسها فيخشى أن يضيع منه كلّ شيء إذا ما تأخّر ليوم واحد، ذلك المشروع الذي لم يكن، حتى الأمس فقط، قد خطر بباله البتة. وعلى ذلك النحو كانت جيرمين الآن تتقلّب من جنب لآخر، فوق الكنبة التي طالما أمضت فوقها ساكنة ساعات وساعات، نهباً لعذاب جعلها تضمّ يديها إلى صدرها، أو تخفي وجهها لتكتم تأوّهاتها، وهي تصغي لدقّات ساعة الحائط كل ربع ساعة، راصدة انقشاعاً في السماء تعِدُها به الرياح المخادعة ثم تنكث بوعدها تارة تلو أخرى.

بدت فترة بعد الظهر وقد طالت طولاً رهيباً. إلا أنّها منذ الغداء لم تمطر، واتخذت السماء لوناً ضارباً للبياض، بدا أنّها ستحتفظ به حتى نهاية النهار. وانتقل الألم لصبر جيرمين النافد إلى شقيقتها التي انتهى بها المقام إلى الجلوس قريباً من الكنبة، لتستطيع الكلام مع المريضة كلّما دعت الحاجة ولإكمال آخر تفاصيل المؤامرة. ولو أخبر أحد السيد موزيرا بما كان يُدبَّر، لما لبث أكثر من ذلك جالساً في الصالون. كان مستقراً على كنبته، يقرأ

الإعلانات في جريدته بكل الانتباه الباعث على السأم. ويقطع قراءته من حين لآخر كي يتثاءب، أو ليطرح على ابنتيه أسئلة مبتذلة تزيد في حِدّة سخطهما. ففتحت أدريين، - بدافع من الحيطة- كتاباً وتظاهرت بأنّها لا تسمع ما يسألها أبوها. أما جيرمين فتردّ بأجوبة مبتسرة. وانقضت ساعتان.

نهض العجوز في نهاية الأمرفغادر القاعة ومضى ليقف عند درج المدخل.

وشوشت جيرمين قائلة باستعجال: "لاتنسي الطوابع، يا أدريين. تجدينها في دُرْج المكتب الصغير الأيمن. انظري في الوقت نفسه إنْ كان دسّ شيئاً من المال في الدّرج السفلي".

هرولت الفتاة حتى المكتب على رؤوس أصابعها ففتحت الدّرج ثم أغلقته من دون أن تحدث ضجة. وعادت صوب الكنبة. قالت بصوت خافت:

- الطوابع معي.

- والمال؟

- لم يُتَح لي الوقت كي أرى، فهو سيعود.

بدرت عن جيرمين إيماءة ضيق:

كلا، فهو لم يتحرّك. إنّي أراه من هنا. سوف أُنذرك إن عاد. هيّا، امضي.

ودفعتها بيدها فعادت أدريين إلى المكتب لتفتح الدُّرج الذي حددته أختها. كان مليئاً بالأوراق حتى الحوافي، ووجدت تحت رزمة من الإيصالات المسدّدة محفظة فأخرجتها. وهمّت بفتحها لولا أن سمعت في تلك اللحظة السيد موزيرا يدخل فيغلق الباب وراءه. وتولاها الذعر فأغلقت الدُّرج لتتمكّن فقط من الرجوع لإلقاء المحفظة في حضن المريضة. ودخل أبوها، فقال وهو يراها في وسط القاعة:

- هل توقّفتِ عن القراءة؟

قالت: "كلا"، وتحوّلت عنه كي لا يلاحظ احمرار وجهها.

قال وهو يجلس في كنبته:

- يبدو أنّ الطقس يتحسّن. فيسعنا الخروج بعد ساعة.

وجلست مجدداً لتستردّ كتابها. كان قلبها يخفِق من شدّة الانفعال وخشيت أن يسمع أبوها الزفير المتقطّع الخارج من صدرها: لكنّه كان يترنّم بأغنية محرّكاً رأسه من اليمين إلى اليسار. وفي غضون دقائق استسلم للرقاد.

قالت أدريين وقد انحنت صوب أختها:"ماذا بشأن المحفظة؟"

فردّت جيرمين قائلة:

- إنّها فارغة. ابحثي في دُرج آخر.

قالت الفتاة وهي تشدّد على كلماتها:

- لا أستطيع.

- أنت إذن لا تريدينني أن أرحل؟

عضت أدريين على شفتيها. رأت بفكرها الجناح الأبيض وداخل الحجرة التي تشاهَد جيداً من الغرفة العليا. وبدا لها أنّ مصير حبّها رهن برحيل أختها. وخمّنت جيرمين الأفكار العابرة التي لامست وجه الفتاة. فازدادت إلحاحاً.

"لا يسعني الرحيل بدون مال. ابحثي أيضاً. لن يستيقظ".

أطرقت أدريين برأسها وبدت متفكّرة بعمق. وسألت:

- كم يلزمك؟

فردّت جيرمين قائلة على الفور:" أربع مئة فرنك للسفر"

- وماذا بعد؟

بادرت جيرمين بحركة من يدها كأنّما لتقول إنّ همّها المستقبلُ الفوري وحده. وقالت أخيراً:

- لديّ مجوهراتي. ولسوف أتدبّر أمري.

ثم أضافت بنبرة صبر نافد:

- المسألة الأساسيّة أن أرحل، أليس كذلك؟ يلزمني هذا المال.

عكست عينا أدريين ما يعتمل داخلها من اضطراب. ضمّت يديها فوق ركبتيها. وقالت بحزم: "يسعني أن أقرضك هذا المبلغ".

فنظرت إليها جيرمين ببرود، ثم سألتها قائلة:

- من مدّخراتك؟

- أجل.

- أقبل بطيبة خاطر. أقرضيني خمس مئة فرنك.

نهضت أدريين وغادرت القاعة على رؤوس أصابعها. وتنهّدت خارجاً بعمق. إنّه ليشقّ عليها أن تُحرَم من هذا المال الذي جعلها أبوها تضعه جانباً منذ سبعة أعوام. لكنّها فكّرت في أنّها قد تعطي أختها الضعف عن طيب خاطر لقاء أن تراها ترتحل عن البيت. صعدت إلى غرفتها فأخرجت من خزانتها علبة من خشب الزيتون، وفتحتها بمفتاح نحاسي صغير. كانت هنالك قرابة ثلاث مئة قطعة ذهبية منسقة لفائف صغيرة مغلّفة بالورق. وهي قد جاءتها هدايا. هدايا عيد الميلاد وعيد الفصح وذكرى ميلادها، قدّمها لها السيد موزيرا وقريبة مسنّة توفيت مؤخّراً. فأخذت لفافة من خمس وعشرين قطعة وأغلقت العلبة ثم أغلقت الخزانة بالمفتاح. ولبثت هنيهة ساكنة في وسط الغرفة، فهل كان ذلك فرحاً أم أسى يعتمل في قلبها؟ مضت فاستندت إلى عارضة نافذتها ونظرت إلى الجناح عند زاوية الشارع. لقد بثّت فيها تلك الرؤية شجاعة. فتذكّرت الرسائل التي عليها أن تضعها في البريد، فأخرجتها من صدارتها، وأغلقت المغلفات وألصقت الطوابع، ثم هبطت.

كان أبوها ما يزال مستغرقاً في النوم، لكنّها قرأت قلقاً كبيراً في قسمات جيرمين.

أومأت العانس لها بأن تقترب.

سألتها: "هل أتيت بالمال؟"

أعطتها أدريين اللفافة. أطمأنّت جيرمين إلى أنّ المال مصرور جيداً فأسقطت اللفافة في صدارتها، من غير أن تنطق بكلمة، ثم استرخت بجسدها فوق المساند.

قالت تلومها: "ماذا كنت تفعلين فوق؟ كان بوسعه أن يسمعك وأنت تمشين. هل ألصقت الطوابع على المغلفات؟"

أحنت أدريين رأسها ومضت لتجلس في كنبة. لم يتبقّ الآن سوى الانتظار.



*   *   *

-١١-

أخيراً دقّت الساعة الرابعة فنهض السيد موزيرا من كنبته ليخرج بصحبة ابنته. كانت أدريين على استعداد. لقد ارتدت سترة صغيرة زرقاء ينتفخ كمّاها عند الكتفين واعتمرت قبعة من القشّ الأسود ترتفع قليلا إلى الخلف كأنّما لتفسح مجالا أكبر لكتلة شعرها الكثيف. ووضعت كفّيها في قفازين وحملت بيدها مظلّة فكانت تعبث بحلقتها.

قال أبوها وقد لاحظ نفاد صبرها، من غير أن يخمّن السبب كلّه:

- هيا بنا، سوف تخرجين.

وأضاف وهو ينظر إلى السماء:

- إن بقي الطقس على هذه الحال فسوف يقدّمون حفلاً موسيقياً في الحديقة العامة.

وخرجا على الفور. وعلى الرغم من أنّ الفتاة كانت تعرف على وجه الدقة خط السير الذي سوف يسلكانه، فإنّ ذلك لم يحل دون شعورها بقلق شديد. إذ يكفي في الواقع أن يعبر أبوها الشارع قبل هنيهة من مرورهما أمام مكتب البريد لتعجز عن إسقاط الرسائل في الصندوق. لكنّ تلك المصادفة لم تقع وتمكّنت أدريين من التصرّف بالرسائل على نحو ما قصدت بالتمام. كانت تمشي بمحاذاة الجدار، فأسقطت الرسائل في فتحة الصندوق بحركة سريعة لم تثر أدنى شك. وأسبغ عليها ذلك النجاح قدراً من البهجة حتى لم تتمالك نفسها دون الإمساك بذراع أبيها، وكأنّما شاءت بحركة عاطفية أن تعتمد عليه وهي تمشي.

فقال لها العجوز وقد تولاه الذهول:"ماذا دهاك؟"

فاحمرّ وجهها خجلاً وسحبت ذراعها. وتمتمت قائلة:

- شعرت بأنني مرهقة بعض الشيء.

- لكنّ المسألة سخيفة. فأنت لمّا تقطعي خمسين خطوة.

واصلا طريقهما صامتين. أصبحا بعد قليل أمام حديقة صغيرة غُرِست بالزيزفون، وقد أقامتها البلدية زينة للمدينة. دقّت ساعة البلدية الرابعة والربع، فيما كان جمع من المتنزّهين يتوجّهون إلى داخل الحديقة، مع مواصلتهم إلقاء نظرات خاطفة على السماء. سلكت أدريين وأبوها، بعد دخولهما من الباب المشبّك، الممشى الرئيس حتى كشك الموسيقى، الذي يُلمَح من بعيد، سطحُه المصنوع من الصفيح الأحمر وأعمدته الدقيقة. بدا كلّ ما يحيط بذلك المبنى كأنّه تقليد للهندسة الصينية، وقد صُفّت أرتال من المقاعد القابلة للطيّ، كان عدد كبير منها مشغولاً. لكنّ تقليداً يعود إلى أكثر من ثمانية أعوام كان يضمن للسيد موزيرا وابنته مقعدين جيدين يقعان إلى الخلف قليلاً من مكان وقوف قائد الأوركسترا. وفيما كانا يشقّان درباً لهما بين المقاعد، لمست الفتاة مرفق أبيها. قالت:

"يا أبي، هنالك أحد ما يحتل مقعدي".

وكان ذلك صحيحاً في واقع الأمر. فقد جلست امرأة سمينة، ترتدي ملابس بنّية اللون، على مقعد أدريين.

قال السيد موزيرا، وهو الذي يغدو أكثر الناس وجلاً حين يضع قدميه خارج بيته:

- يا له من أمر مزعج! هيّا، أوضحي لتلك السيدة...

وظلّ في الخلف متنحيّاً قليلا فيما توجّهت ابنته إلى تلك الجانحة.

تقدّمت أدريين فوقفت قبالتها وقالت:

- يؤسفني، يا سيدتي...

لكنّها توقّفت من فورها، إنّها مدام لوغرا.

فسألتها السيدة لوغرا، وهي ترفع رأسها:

- علامَ تأسفين يا آنسة؟

كان في صوتها نبرةُ هزء وهدوء في آن معاً، وتعبيرٌ ساخرٌ في نظرتها. وعلى الرغم من أنّها لا تبدو قد تجاوزت الأربعين، إلا أنّ آثار السنّ كانت بادية عليها. أمّا وجهها البيضاوي الممتلىء فلا تخلو قسماته من طرافة. وينمّ أنفها المحني وشفتاها الممتلئتان عن شهوانية تتناغم كل التناغم مع المظهر المهيب الذي تتخذه القسمات بعد أن يغزوها الشحم. كانت سترتها المصنوعة من الصرج والموشاة بالحرير تنفتح قليلا لتكشف عن صدرية باذخة من التخاريم فوق قميص أبيض. وتتحدر شبكة غلالة تحيط بقبعتها فتخفي شعرها الذي يبدو غزيراً. وتفوح منها رائحة رُزٍ مسحوق. وأضافت:

- لن تقولي لي إنّني أحتل مقعدك، لأنّها ستكون المرة الثالثة التي يتم فيها إزعاجي. لن أتحرّك من مكاني.

وأضافت تقول على الفور، كأنّما هنالك رابط بين هاتين الواقعتين:

- يبقى أنّي أعرفك. فأنت جارتي وتقيمين في دارة الزان.

أطرقت أدريين برأسها. كانت منذهلة وتشعر بأنّها موزّعة بين السخط لرؤية هذه المرأة تنتزِع منها مقعدها والدهشة لرؤية نفسها على نحو مباغت حيال مدام لوغرا.

وفي النهاية تمتمت تقول:" لا بأس. ولسوف نجلس في مكان آخر".

- بل اجلسوا إلى جانبي. من ذا الذي معك؟

كان السيد موزيرا قد اقترب يصغي وعليه هيئة ارتباك. وقدّمته أدريين بطريقة خرقاء. وجلس الاثنان فكانت أدريين بين مدام لوغرا وبين أبيها. كانت خجلى بمرافقتها للعجوز، فاستدارت نحو جارتها من غير أن تدرك ذلك، فكأنّها راغبة في منعها من رؤية السيد موزيرا. لكنّ مدام لوغرا الفضولية كانت تنحني برأسها إلى الأمام تارة وترتدّ به إلى الخلف تارة أخرى، فتنظر إليه بطرف عينها. فيشيح بوجهه قليلا متضايقاً من ذلك الاهتمام ومغتاظاً من أنّه لم يجلس في مقعده المعهود. وما ستكون عليه حاله لو جاء أحدهم ينازعه المقعد الذي جلس عليه؟

همست مدام لوغرا في أذن أدريين قائلة: "أبوك لطيف المظهر، لكنّه خجول، أليس كذلك؟"

- بلى، يا سيدتي.

- الأمر بادٍ للعيان. يا لــوَسامته. أراهنُ على أنّه كان ضابطاً.

احمرّ وجه أدريين. فقد بدا لها أنّه، مهما كلّفها الأمر، فهي لا تستطيع البوح بالمهنة التي كان يمارسها أبوها. فتمتمت:

- لقد أدى خدمته العسكرية في بورج.

وأضافت بحماس وهي تفتح حقيبة يدها:

- سأشتري برنامج الحفل الموسيقي.

فقالت مدام لوغرا: "إنّه لديّ".

وأعطتها ورقة كانت تمسك بها. تفحّصت أدريين لهنيهة ذلك البرنامج الذي اختلطت فيه كافة الأشياء أمام ناظريها، ثم أعادته اليها من غير أن تقوى على قراءة كلمة واحدة. انحنت في تلك الأثناء مدام لوغرا قليلاً إلى أمام وتوجّهت إلى السيد موزيرا بالقول:

"أرى أنّك موسيقي يا سيدي".

جعلت تلك الكلمة اللطيفة، التي لا طائل وراءها، وجه العجوز يحمرّ خجلاً. فمرّ بإبهامه على لحيته وردّ بإيجاز قائلاً إنّه يحضر دوماً الحفلات الموسيقية لجمعية النّغم. فأومأت مدام لوغرا برأسها موافِقة وتبسّمت. كانت أسنانها طويلة ومنتظمة، وبدا أنّها مزهوّة بها.

ثم همست في أذن أدريين قائلة: "قلتِ لي إنّه كان ضابطاً في بورج. هل مضى وقت طويل على إقامتكم في لاتور ديفيك؟"

كانت الفتاة على وشك أن تجيبها حين ارتفعت صيحات تعجّب من كل جانب لتمنعها من ذلك. فالموسيقيون قد جاؤوا. فهرع آخر الأشخاص الذين كانوا يجولون حول الكشك، من غير أن يقرّروا الجلوس، ليحتلّوا بجلَبةٍ

المقاعد التي ظلّت فارغة. وجرى بعد فترة قصيرة عجم الآلات. ثم باشرت الفرقة عزف مقطوعة رائعة.

ألِفت أدريين منذ زمن طويل حضور تلك الحفلات الموسيقية، فمتعتها لن تكون كبيرة جداً. والواقع أنّها كانت مرهفة السمع حتى التسليم بأنّ عزف أولئك الموسيقيين كان رديئاً، وأنّهم لا يلتزمون باللحن التزاماً دائماً، وأنّ نوعية آلاتهم لا تتجاوب ومقاصد المؤلّف كلّ التجاوب. أما في ذلك اليوم فقد شعرت بانفعال فريد منذ الائتلافات الأولى. لا ريب في أنّ الأحداث الأخيرة في حياتها قد جعلتها مرهفة الحس أكثر. لقد أصاخت السمع إلى جملة طويلة علَت بطيئةً بنوع من الفتور ثم انتقلت من بعد بجهد مباغت إلى إيقاع أكثر فأكثر تسارعاً. لقد تأثّرت بذلك على الفور، كأنّما بفعل صوت كلّمها فجأة عن نفسها بلغة يسعُها هي وحدَها أن تسمعها، فنشأ بينها وبين الفرقة الموسيقية ذلك التراسل الغامض، وذلك النوع من التحاور السرّي الذي يشكّل الفتنة الجبّارة للموسيقى ويفسّر السبب الكامن وراء تلك السيطرة كلّها على قلب الإنسان. كانت تصغي. كان ذلك الفرح كله وذلك الحزن كله، اللذان يتواليان في المواضيع، يمزّقان قلبها، ويملآن في الوقت نفسه مآقيها بدموع البهجة. لقد تعرّفت على نفسها في تلك الإيقاعات العديدة التي بدت لها كأنّها خفقات قلبها هي. تذكّرت عذابها، تذكّرت عزلتها وتذكّرت قهقهاتها على الطريق العام، فقد كانت أشدّ حزنا من النحيب. واستولى عليها إحساس بالاختناق. فبدا لها أنّها تعيش مجدداً في ظرف دقيقة واحدة كلّ ما عانت خلال شهور، وكانت تلك الآلام أشدّ حدّة، بل حقيقية أكثر إذا ما صحّ القول، لا سيّما أنّ من ينطق بها هو صوت ليس بصوتها هي. فهي تصغي للمرّة الأولى لعذاباتها وهي تُروى، فبدت لها فظيعة. وربّما كان لها أن تتعوّد عليها مثلما يتعوّد المرء على جرح رهيب لا يندمل، لكن تلك الموسيقى كانت تتولّى تفسير كل شيء، فتقدّم لها كافة العلل التي تجعلها تتعذّب.وبدرت عنها حركة خجولة فنظرت خلسة إلى مدام لوغرا، وكأنّما خشيت أن يفهم جيرانها من هو الشخص المقصود بتلك الحكاية من بؤسها، لكنّ السيدة البدينة بدت عديمة الإحساس بالمحاسن التي لامست أدريين في أعماقها، فأدارت فيما حولها نظرات تنمّ على الفضول والرّضى.

انتهت المقطوعة بعاصفة من التصفيق جعلت أدريين تُجفِل. وبغتة شعرت بيد تضغط على يدها بلطف لكن بسلطة، واستدارت قليلاً ليلتقي نظرها بنظر مدام لوغرا التي كانت ترقبها بانتباه.

قالت لها بصوت خافت:

- أهي هذه الموسيقى التي تسبّبت ببكائك؟

فردّت أدريين وهي تجهد أن تبتسم: "لم ألحظ ذلك". وسعت لسحب يدها، لكنّ مدام لوغرا كانت تشدّ عليها بقوّة حتى أنّها ما كانت تقوى على سحبها دون إثارة ظنونها.

فسألتها قائلة: "ما اسم تلك المقطوعة؟"

فردّت مدام لوغرا تقول:"لا أدري، إنّها **سيّدة** ما **بيضاء**." واستأنفت قائلة بلهجة جادة وفاتنة في الوقت نفسه: "أنت تدرين أنّك سوف تأتين إلى بيتي لتناول وجبة العصر. نحن جيران وينبغي لنا أن نتعارف."

احمرّ وجه أدريين انشراحاً. وتولّد لديها الانطباع المفاجىء بأنّ تلك المقطوعة التي سمعتها تشبه الإعلان السحري عن حياة جديدة. وإلا فما الذي جعلها تتأثر بها إلى ذلك الحد؟ ثم هذ المرأة شبه المجهولة التي تدعوها بشكل مفاجيء إلى ذلك المنزل الذي تتمنى منذ زمن طويل دخوله، أليست مؤشّراً على ذلك؟ وكادت تسأل إن كان المرء يستطيع أن يرى من دارة لويزا حجرات الجناح الأبيض التي تُطِلّ على شارع كارنو، فاستدارت صوب مدام لوغرا بعينين برّاقتين تشعّان عرفاناً، وهمّت بأن تقبل لولا أن تذكّرت أختها. أليس عليها أن تطمئنّ إلى أنّ كلّ شيء أضحى جاهزاً لرحيلها؟ إنّ شيئاً ضئيلاً جداً يمكن أن يفسد كل شيء.

قالت: "لا يسعني ذلك اليوم".

فسألتها مدام لوغرا:"ولماذا؟"

بدا عليها ما يشبه الريبة، فكأنّ معرفتها بأدريين منذ خمس دقائق يهبها الحقّ في أن تشاركها بأسرارها. هزّت الفتاة رأسها:

- في يوم آخر، يا سيدتي، وبكل طيب خاطر.

- تعالي غداً.

أجل، غداً.

وتساءلت بغتة عمّ سيكون عليه يوم غد هذا، وما سيكون موقف السيد موزيرا من اختفاء جيرمين، لكنّها لم تجرؤ على التوقّف عند تلك الفكرة. فهي في الوقت الراهن مطمئنة، وشبه سعيدة. ألا ينبغي لذلك أن يكفيها؟ فالمنغّصات تنهال عليها دوماً في وقت مبكّر، من غير أن تدعوها الحاجة، إنْ صحّ القول، لأن تمضي لملاقاتها. خشيت فقط أن يكون أبوها قد سمع حديثها مع مدام لوغرا. وإنْ كان سيضع في دربها العراقيل فيمنعها من الذهاب غداً إلى دارة لويزا؟ لكن لم يبدُ أنّه قد سمع حديث المرأتين، إذ كان يقرأ ورقة برنامج التقطها عن الأرض. انحنت أدريين صوب جارتها وهمست في أذنها:

- لا تقولي شيئاً في هذا الصدد لأبي.

أما وأنّ وجه مدام لوغرا عبّر عن الدهشة، فقد أضافت بسرعة:

- سوف أشرح لك المسألة.

وارتفع صدح آلات قويّ ليقطع ذلك الحديث. فالموسيقيون يعجمون آلاتهم. وبدأ فجأة، بعد صمت قصير، عزف مرش عسكري فيه كلّ الأبّهة والصّخب. وتعرّفت أدريين، وقد داهمها شعور بتقزّز لا يوصف، على اللحن الذي يدندنه أبوها غالباً والذي يرافقه الآن بتوقيعات من رأسه، خفيفةً وخجولة. ثم انتابها سخطٌ مباغت فشدّت أصابعُها شدّاً قوياً على فتحة حقيبتها اليدوية. إنّما هي حياتها الراهنة التي يجعلها عزف ذلك المرش الغبي والقبيح، تظهر لمعاناً في عيون الناس الذين يحيطون بها. وتراءى لها أنّها تستطيع سماع السيد موزيرا يُطفئ المصباح ويصعد الدرج بخطى بطيئة، وصفيره يتصاعد من بين شاربيه. تولاها القرف من نفسها فارتعشت كأنّها تحت تأثير الغثيان.

وسمعت وسط صخب التصفيق صوت مدام لوغرا الهاديء:

"أليست هذه الموسيقى غبيّة!"

تولّتها الرغبة في أن تمسك بيدها، لكنّها لم تجرؤ. وبدأت في تلك الأثناء حبات من المطر تسقط على الأشجار. ففتح بعض الأشخاص مظلاتهم. ونهض عديدون، متردّدين، يستجوبون بنظراتهم الموسيقيين الذين كانوا يتكلّمون فيما بينهم. وأخيراً انهمر المطر غزيراً على حين غرّة فحصل صخب وازدحام. صعد أشخاص درجات الكشك فيما هرب آخرون تحت الأشجار. وقبض السيد موزيرا على ذراع ابنته قائلاً:

- تعالَيْ.

فهتفت مدام لوغرا، وهي تفتح مظلّة ضئيلة الحجم من الحرير الأزرق، قائلة:

- إلى اللقاء. سأجد ملجأ في الساحة.

وتبادلت غمزة تواطؤ مع أدريين التي استدارت صوبها، ثم توارت بين الحشد.

*   *   *



-١٢-

حين عبرت أدريين الشبك الحديدي لدارة الزان، كان انطباعها أنّها داخلة إلى سجن للأشغال الشاقة. وقد حملت معها من ذلك الحديث مع مدام لوغرا نوعاً من الحنين إلى الحرية التي كانت شاقة جداً عليها. فتلك المرأة يسعها الخروج والدخول على هواها...عبرت الحديقة الصغيرة وهي تجري بين بقع الماء، وصعدت إلى أعلى درج المدخل الذي كان المطر يصفقه بعنف. خبطت الأرض بقدميها مرّتين أو ثلاث وهي في البهو، ودخلت إلى الصالون بعد أن مسحت حذاءها.

كانت القاعة معتمة. فما إن تُغلَق النوافذ حتى تصير دارة الزان مكاناً ينقبض فيه الصدر. وبعد وقت قصير دخل السيد موزيرا بدوره. كان يلهث.

قال لجيرمين المستلقية على الدوام فوق الكنبة: "لم يُتَح لهم الوقت لتقديم البرنامج كله. عزفوا افتتاحية ثم عزفوا المرش وتعلمين..."

وشرع يدندن ذلك المرش.

مرّت أدريين من ورائه فنهزت بكتفيها وهي ترفع ناظريها.

وسألت جيرمين: "كان هنالك أناس كثيرون؟"

فأجاب السيد موزيرا: "ما من مقعد واحد بقي شاغراً".

ولم تُحجم أدريين عن الكلام عن صديقتها الجديدة، فكأنّها تريد مقاومة الحزن والكآبة السائدين في تلك الحجرة، فقالت: "تعرّفنا على مدام لوغرا". ورفعت قبعتها ثم نزعت قفازيها الملتصقين بيديها، فوضعتها على الإسكملة.

فقال العجوز وهو يستدير صوبها: "أجل، لكنّها مغرورة، أليس كذلك؟"

احمرّ وجه أدريين.

"ألأنّها حسنة الهندام؟ أنا لم أجدها كذلك".

فأجاب مغتاظاً، لأنّها لم تكن من رأيه: "ممكن. أما أنا فوجدتها كذلك".

ومضى فجلس في كنبته. ثم واصل يقول:

- ليس من يعرف ما عمل زوجها. لقد حدّثتني نفسي بأنّهم أغنياء.

فكرّرت أدريين كما الصدى: "أغنياء".

فقال العجوز رافعاً سبابته: "أجل، لكن ليس من يدري كيف اغتنَوا".

استعادت أدريين قبعتها وقفّازيها وخرجت. كان ذلك اللغو يغيظها، وقد ندمت على تلفّظها باسم مدام لوغرا أمام أبيها وأختها. أما وقد غادرت الصالون فقد أحسّت بنوع من الخفّة الجسديّة تقريبا. تولـتّها على نحو مفاجئ رغبة في القفز مثل طفلة فصعدت كالسهم إلى غرفتها لتنظر من نافذتها إلى الدارة التي عليها أن تتوجّه اليها في الغد. وشعرت على حين غرّة بأنّها مغتبطة فشكرت حسن الطالع الذي أتاح أن تكون لها غرفة على الأقل تستطيع اللجوء إليها، فتمكث وحيدة، تتحدّث إلى نفسها وحدها بشأن مشاريعها وآمالها وتتستّر على تلك الانطلاقة من السعادة التي استولت عليها بغتة والتي لا تفسير لها.

أغلقت الباب وجلست إلى النافذة بعد أن سحبت الستارة. كان المطر ينهمر غزيراً والسماء مكفهرّة. ويسيل ماء موحل عند أسفل الأرصفة التي تلتمع حجارتها. كان صوت المطر الرتيب يملأ الشارع.

سمعت أدريين، في غضون بضع دقائق، صوت عربة قادمة من صوب المدينة ثم رأت على الفور تقريباً عربة أجرة تنبق من الشارع وتتوقّف أمام دارة لويزا. كان الغطاء الجلدي الكبير مُنزَلاً، يلتمع كله، ولم تلمح الفتاة سوى صديقتها الجديدة تنزل فتدخل بيتها بكل استعجال بعد أن صاحت للحوذي بشئ لم تفهمه أدريين. فُتِح باب الحديقة الشبكي وأغلق محدثاً ضجيجاً، ثم جرت مدام لوغرا نحو درج المدخل فتسلّقته بأسرع ما سمحت لها به ساقاها

الممتلئتان فدقّت جرس الباب عدّة مرات. وسُمِعت جلبةٌ كبيرة ونباحٌ داخل البيت. وأخيراً انفتح الباب فتوارت مدام لوغرا.

لم يدم ذلك كله سوى هنيهة. فالعربة قد دارت فقفلت راجعة تسلك درب المدينة. أرخت أدريين الستارة التي كانت تمسك بها بأصابعها لتعود إلى مكانها وغاصت في لجّة أفكارها. ذلك الاستقلال الذي تتمتّع به جارتها...أن تتمكّن من أستئجار عربة، وأن تفعل ما تشاء. أسندت جبينها إلى النافذة، لمحت من بين حلقات النافذة، تحت ضوء الأصيل، جدران الجناح البيضاء، الذي يقطنه موركور، ورأت من فوق سطح الأردواز، القمة السوداء للشجرة الساكنة تحت المطر. طرق سمع أدريين الصوت المبهم للسيد موزيرا، من الصالون في الأسفل، متحدّثاً إلى جيرمين. أضحت حزينة، على نحو ماجرى قبل قليل، حين شعرت على حين غرّة بأنّها سعيدة. فهوت بهجتها، مثلما أتت، على النحو المباغت نفسه.

هبطت الحرارة بعد العشاء، حتى أنّ جيرمين طلبت إشعال بعض قطع الحطب في الموقد. كان ذلك هو الشرط الذي وضعته لتتمكّن من المكوث في الصالون. عبس أبوها بادئ الأمر، وقد صدمته فكرة إشعال نار في مطلع حزيران، لكنّه سلّم في النهاية بأنّ الطقس ليس حاراً وتطوّع لأن يكدّس بنفسه الأغصان الخضراء داخل الموقد. فهو يخشى خصوصاً، أن يفوّت جولة لعب بالورق. ولا ريب في أنّ تلك النار بدت في نظره مثيرة للسخرية، وخارجة عن المألوف، لكنه وافق على خرق العادة، حتى لا يضحّي بعادة أضحت غالية أكثر فأكثر على قلبه. فلعبة الواحد وثلاثين تأتي اختتاماً ليومه وتتويجاً له. فيسعه من بعدها أن ينفخ فيطفئ السراج قائلاً في نفسه إنّه قد أحسن عملاً، وبوسعه أن يُخلِد إلى النوم.

وبينما كان قابعاً أمام الباب القلاب، كانت أدريين تخلط الأوراق بصمت، وذراعاها تستندان إلى الإسكملة. كانت أختها إلى جانبها، نصف مستلقية على الكنبة تراقب حركات أدريين بنظرة استغراق محمومة. لقد تلفّعت بما يشبه عباءة من الصوف المنسوج وزادت عليها بطرح سترة من قماش الصرج فوق كتفيها، فتدلّى الكمّان على ذراعَيْ الكنبة. كان وجهها

الأرجواني يعبّر عن تصارع فكري مؤلم. ولما كان أبوها يُحدِث ضجّة كبرى وهو يرفع الباب القلاب وينزله، استفادت من ذلك لتميل صوب أختها فتسألها بصوت خافت:

"هل ذهبتِ الرسائل؟"

أحنت الفتاة رأسها، فأغمضت جيرمين عينيها بهيئة ارتياح. ومرّ بعض الوقت. ثم نهض السيد موزيرا فمدّ قدمه ليرفع الباب القلاّب بطرف خفّـه. أضيئت الحجرة بنور بهيج ذي انعكاسات متراقصة.

كانت الأغصان تتلوّى وسط اللهب. وفتحت جيرمين عينيها. فالتقى نظرها بنظر العجوز الذي كان يراقبها، وقد احمرّ وجهه لما بذل من جهد. فصفق بيديه وهو يسألها: "هل أنت راضية؟"

تنهّدت وقالت: "أجل"، واعتدلت قليلاً في جلستها. أمسكت بيديها المعروقتين الأوراق التي كانت أختها ترمي بها أمامها، واحدة إثر واحدة.

عاين السيد موزيرا اللهب هنيهة وبدا وقد استولت عليه فكرة. فسأل:

- يا أدريين ، أين وضعت حذاءك؟

- في المطبخ، إلى جوار حذائك، ليجفّا على نحو أسرع.

فخرج من فوره. رافقته جيرمين بعينيها حتى الباب، ثم التفتت صوب أختها.

قالت بصوت مقتضب: "يا أدريين".

توقّفت أدريين عن توزيع الأوراق، وسألتها:

"ماذا تريدين؟"

ذُهِلت للتعابير التي قرأتها على قسمات المريضة. تراءى لها أنّها تبتسم. بدا كأنّ شيئاً ما قد تغيّر في عينيها. فكرّرت القول:

"ماذا تريدين يا جيرمين؟"

مدّت جيرمين يدها، فلم تمسك بها أدريين، وهي تقول بصوت متقطّع:

"إنّي راحلة يا أدريين، ولن أعود".

"لن أعود أبداً. انتهى كلّ شيء، انتهى..."

وهوت برأسها بغتة إلى الأمام، ووجهها إلى الأوراق المبسوطة على المائدة، وهي تنشج بولَه. فنهضت أدريين وتمتمت قائلة:

"ما بك يا جيرمين؟"

ومدّت يدها بحركة وجِلة، فلمست برؤوس أناملها كتفها الذي كان فُواقٌ يجعله يعلو فيهبط من وقت لآخر. لكنّ جيرمين لم تقدر أن تتوقّف.

توسّلت الفتاة إليها: "هيا اسكتي، فأبونا سوف يعود".

والحال أنّ وقع خطا السيد موزيرا سُمع في الممر المؤدي إلى المطبخ. اعتدلت جيرمين بجلستها قليلاً، وعضت على منديلها الذي كوّرته بيدها. فتوصّلت على ذلك النحو إلى التماسك وكبح دموعها، زد أنّ خشيتها من إثارة شكوك أبيها، بل ربما التسبّب في إفشال هروبها، هدّأت من روعها على الفور. عادت أدريين فجلست وواصلت توزيع الأوراق.

قال السيد موزيرا وهو يدخل: "هاك، إنّهما مبلّلان، وما كان لهما قط أن يجفّا في المطبخ".

كان يحمل زوجاً من الأحذية في كل يد، فوضعهما بعناية فائقة أمام النار، ورأس الحذاء نحو الخارج. كانت كل من جيرمين وأدريين ترقبه خلسة وتنمّ نظراتهما معاً على الاستهجان والقرف. كان يجلس القرفصاء أمام النار فيذكّر تذكيراً بغيضاً، من شدّة السخرية، بولد صغير يصفّ قوالب معجّنات على الرمل. أحسّت الفتاة بأنّ وجهها احمرّ خجلاً فغضّت الطرف لكنّ جيرمين لم تحوّل نظرها عنه.

أخيراً قالت أدريين وهي تخبط بالأوراق على المائدة:" هلمّ، يا أبي، إنّهما هكذا بوضع حسن. تعال العب."

نهض متوكّئاً على السجادة بكفّه وقرّب كنبته إلى المائدة. وسأل قائلاً:

"من سيبدأ؟"

وجلس فأخذ أوراقه يتفحّصها.

قالت أدريين : "أنا سأبدأ".

وألقت بورقة في وسط المائدة. فغطّتها جيرمين بورقة من يدها. عندئذ أسقط السيد موزيرا ورقة ثالثة من يده فوق الأولبين بطرقة كامدة. ولم يكسر أي واحد منهم جدار الصمت حتى انتهاء الجولة.

نامت أدريين نوماً مضطرباً، مع أنّها كانت مرهقة من التعب.

لقد تمكّنت من التسلّل إلى غرفة أبيها وأخذ المفتاح من جيب سترته. فالعملية سهلة نظراً لأنّ العجوز ينام بسرعة ونومه ثقيل، لكنّ الرعب من أن توقظه نتيجة اصطدامها بقطعة من الأثاث، وأن تسمعه يصرخ، وأن ينكشف أمرها، جعل العرق يتصبّب على وجه الفتاة التي بلغت غرفتها وهي ترتعد من انفعال جعلها خائرة القوى. فخلعت ثيابها في الظلمة وارتمت فوق السرير.

هجعت لبضع دقائق واستيقظت بغتة كأنّ أحدهم لمس كتفها وقال لها: "هيا، افتحي عينيك، وفكّري، وفكّري". فتقلّبت في السرير من جنب إلى جنب، باحثة فوق الوسادة عن مكان لمّا يتجوّف تحت ثقل رأسها. إلا أنّها سعت عبثاً إلى الإفلات من استحواذ أفكارها. لكنّ نومها القلِق لم يدُم.

أرغمتها الأحداث المُقبِـلة على العودة إلى الأسابيع القليلة المنصرمة. شعرت بالحاجة إلى إجراء ربط بين الماضي والمستقبل، على أمل أن تتوصّل عبر منطق غامض لأن تعرف ما تخبّئ لها الأزمنة القادمة وهي تتذكّر كلّ ماوقع لها مؤخّراً من صالح أو من طالح. فما المكان الذي يحتلّه حبّها في حياتها؟ وهل غيّر فيها من شيء يُذكَر؟ كانت تميل إلى الردّ بالنفي على هذا السؤال الذي طرحته على نفسها، لكنّها تذكّرت على الفور أنّها ما كانت ساعدت جيرمين، بكلّ تلك النخوة، على الهرب، لولا أنّها كانت تطمع في غرفتها. ولِمَ كانت راغبة في تلك الغرفة؟ ثم تذكّرت مدام لوغرا. لقد احمرّ وجهها حيال تلك السيدة، مثل بنت صغيرة، فتحدّثت إليها بكل ما تستطيع من لطف. وغداً سوف تذهب لرؤيتها. فلماذا؟ وبأيّ أمل؟ إنّها لا تجرؤ على البوح بذلك حتى لنفسها. وهنالك ترى أيضاً مفعول هواها.

انتقلت بفكرها بعدئذ إلى موضوع هواها نفسه، إلى ذاك الذي جعلها شقيّة، من غير أن ينوي ومن غير أن يدري. وبدا لها أنّ عذابها قد قلّ منذ بعض الوقت. قد يكون مردّ ذلك إلى أنّها لم ترَه من يوم جرّحت ذراعها. لكن ما الذي يدعوها إذن إلى السعي لأن تراه مجدداً، ولِمَ هي تراقب الشارع طول النهار تقريباً؟ ألا ينتهي الأمر بها إلى الشفاء التام إن كفّت عن رؤيته نهائياً؟ لكنّ هذه الفكرة انتزعت من عينيها الدموع. فقالت وهي تمسحها بالغطاء:"من الناس من هو مصاب بالمرض، أما أنا فعاشقة، وليس باليد من حيلة".

وفيما كانت تبكي استسلمت للرقاد.

في اليوم التالي، استيقظت في ساعة مبكّرة جداً، على صوت طرق على باب غرفتها. نهضت بوثبة واحدة وهرعت تفتح الباب، إنّها جيرمين. كان وجهها على درجة مرعبة من الشحوب وعيناها محاطتين بهالة سوداء تنمّ على ليلة من الأرق.

سألتها أدريين قائلة: "أنت ذاهبة يا جيرمين؟"

قالت جيرمين بصوت حازم: "إنّي راحلة، أعطني المفتاح".

كانت ترتدي السواد وتحمل بمشقّة حقيبة صغيرة انتفخت من كثرة الأغراض. وقد وضعت على رأسها قبعة كبيرة أظهرتها بهيئة مضحكة. وتابعت نظرَ أدريين فقالت:

- أجل، لقد أخذتُ واحدة من قبعاتك. فقبعاتي أنا عتيقة جداً.

كان هنالك شيء ما يسبّب لها الضيق. فوضعت حقيبتها عند قدميها واعتمدت على إطار الباب ريثما تحضر أدريين المفتاح.

قالت جيرمين وهي تأخذ المفتاح: "شكراً، الساعة الآن تمام السادسة إلا الربع. سوف أنتظر في الأسفل".

أطرقت أدريين برأسها. لم ترقها الطريقة القلقة والجادة التي كانت أختها تنظر بها إليها. وفجأة تمتمت جيرمين قائلة:

- وداعاً يا أدريين.

- وداعاً.

لكنّ جيرمين لم تتحرّك. كانت تنظر نظرة يأس إلى سحنة أدريين المتمذِّعة.

وسألتها: "هل ستكتبين لي؟"

نهزت الفتاة بكتفيها. وبغتة مدّت إليها جيرمين ذراعيها. كانت شفتاها ترتعشان والدموع تلتمع في مقلتيها. لكنّ أدريين ارتدّت إلى غرفتها بفزع. فالتقطت جرمين حقيبتها من غير أن تتفوّه بكلمة ونزلت وهي تتسنّد إلى الجدار.

عادت أدريين فرقدت على الفور. وسمعت وهي في سريرها أختها تفتح باب غرفة الطعام ثم تغلقه وراءها بكل هدوء.

كانت تُمطر. فقطرات الماء تضرب ألواح الزجاج بصوت لا يكاد يُدرك. جذبت الفتاة الغطاء حتى ذقنها وفكّرت وهي تحدّق بالسقف.

شعرت بالأسف لأنّها لم تعانق جيرمين، بل بالأحرى لأنّها لم تقوَ على عناقها، لأنّها ساعة رأتها تمدّ إليها ذراعيها، جعلها شعور برعب قاهر تقفل عائدة إلى غرفتها. إنّ الأمر قد لا يقتضي، في الواقع، سوى قبلة واحدة لينتقل إليها ذلك الداء الذي تشكو منه أختها. لا ريب في أنّ أختها أكّدت لها أنّ داءها غير معدٍ، لكن أليس ذلك ما يقول كافة المرضى؟

أحسّت أدريين الآن بأنّها متيقّظة تماماً. فراودتها المخاوف. ماذا لو استيقظ أبوها أبكر من المعتاد ونزل إلى قاعة الطعام ليجد ابنته على أهبة الرحيل؟ لكنّ ذلك غير ممكن. فالشيء الوحيد الذي يُخشى منه، هو أن يسمع العربة تتوقّف عند زاوية الشارع. وماذا يسعه في نهاية الأمر أن يفعل؟ فطردت تلك الأفكار من ذهنها وبدأت بوضع مشاريع للنهار البادىء. سوف تصعد صباحاً إلى غرفة أختها، وتذهب عصراً إلى عند مدام لوغرا.

دقّت الساعة السادسة. فتساءلت مجدّداً على أيّ نحو سوف يتلقّى السيد موزيرا نبأ اختفاء ابنته. فقرّرت بعد لحظة من التفكير، أن تقوم بدور الجاهلة فتدع له أن يكتشف كلّ شيء بنفسه. فعجزت عن الامتناع عن

الضحك بصمت وهي تتخيّل ذهول العجوز فخبّأت وجهها تحت الغطاء كأنّها خشيت أن يباغتها أحد.

ميّزت بغتة صوت باب يُفتَح بحذر، إنّها جيرمين وهي تخرج من غرفة الطعام. لقد عبرت الصالون وسارت في الممر. وفكّرت الفتاة قائلة: "يا لَلرعناء، إنّها تجرّ قدميها جرّاً". ثم فُتِح باب آخر في غضون ثوانٍ وأُغلِق. كان بوسع أدريين الآن أن تسمع وقع خطا شقيقتها المتردّد وهي تهبط ممشى الحديقة. شرع قلبها يخفق. لم تقاوم الإغراء في النهوض والذهاب إلى النافذة. بلغت جيرمين نهاية الممشى، إنّها تقف حيال الباب المشبّك وتنحني قليلاً. كانت حقيبتها ومظلتها المفتوحة عند قدميها، وقد سحقت غرنوقية وردية. لقد انحنت أكثر. كانت بثوبها الأسود وظهرها المقوّس توحي بشكل حشرة. كان ذراعاها يتحرّكان. أخيراً سمعت أدريين صرير المفتاح يدور في القفل، فسدّت أذنيها بحركة غريزية. فكيف لم يسمع أبوها تلك الضجة؟ لكنّ جيرمين فتحت الباب المشبّك، فالتقطت حقيبتها ومظلّتها وتوارت.

رقدت أدريين مجدّداً، فأخرجت من تحت مخدّتها ساعة ذهبية صغيرة تعوّدت أن تضعها، معلّقة بسلسلة، في نطاقها. كانت الساعة السادسة وخمس دقائق. لِمَ إذن خرجت جيرمين باكراً هكذا؟ فهذا المطر سوف يجمّدها. أغمضت عينيها وغاصت تحت أغطيتها في عمق السرير. كان بودّها أن تغفو، لا أن تعيش هذه الدقائق القليلة التي تمرّ بطيئة جداً. تراءى لها بغتة أنّها تسمع وقع خطا أبيها يهبط الدرج، فأزاحت الأغطية بعيداً عنها وقد استبدّ بها الخوف. لكنّها كانت مخطئة: ليس في هذه الغرفة سوى ذلك النوع من الوشوشة الخفيفة التي يحدثها وقع المطر على الألواح الزجاجية.

لم تعد، بعد قليل، بقادرة على الصمود. فنهضت وارتدت مسحاً. لِمَ لمّا تصلِ العربة ؟ ولِمَ لمّا تدقّ الساعة معلنة السادسة والربع؟ وشرعت دونما تفكير منها، في أنّ أحد هذين السؤالين هو جواب على الآخر، تروح وتغدو ما بين السرير والنافذة، فريسةً لذعر جهدت في السيطرة عليه دونما طائل.

سمعت شقيقتها وهي تسعل في الشارع. ومن بعيد دقّت ساعة الكنيسة دقّة واحدة. فأخذت ساعتها وجلست قرب النافذة. إنّ بوسعها وهي على هذا

النحو أن تشاهد أدريين تقريباً. كانت تلمح حقيبتها فأخذ نظرها يتنقّل ما بين قرص الساعة الصغيرة القابعة في كفّها وبين الجدار الحجري والحقيبة الجلدية الصغيرة والعتيقة. كان الماء يسيل بمحاذاة الرصيف موحلاً، وعلى وجهه ذلك النوع من التعرّجات التي تفرضها عليه حجارة الشارع فتجعله يشبه خصلاً من الشعر المجدول. لقد دوّنت ذلك التفصيل في نفاد صبرها، وهي متلهّفة لأي شرود ذهن يساعد على مرور الوقت.

أخيراً سمعت العربة تهبط شارعاً مجاوراً. لا يمكن إلا أن تكون هي. فالساعة السادسة وعشرون دقيقة. نهضت ولوّحت بيديها مثل طفلة. فالعربة قد ظهرت. سدّت أدريين أذنيها على الفور: ألا يمكن لهذا الصخب أن يوقظ أباها؟ استمرّ خوفها قليلا. لقد توقّفت العربة عند زاوية الشارع فطوت جيرمين مظلّتها وألقت بها مع الحقيبة تحت الغطاء الجلدي الكبير. ثم أمسكت بقبضة حديدية مثبتة بمقعد الحوذي فتسلّقت قدر استطاعتها العربة. وتولّد لدى أدريين الانطباع بأنّها تهالكت داخلها.

بعد بضع ثوانٍ كان الشارع فارغاً وساكناً من جديد. وبدت أوراق الشجرة الفتيّة فوق سطح الجناح الأبيض وهي ترتعش بفعل نسيم الصباح.

* * *

-١٣-

لم تتمالك نفسها فاحمرّ وجهها وهي تدخل غرفة الطعام، خائفة من اللحظة التي سيسألها فيها السيد موزيرا لماذا جيرمين لمّا تنزل. وكانت مباغتتها الكبرى أن تجد أباها يقرأ وهو جالس إلى مائدة لم يوضع عليها سوى طبقين اثنين. وازداد ارتباكها حين وجّه إليها العجوز تحية الصباح من وراء صحيفته، بصوت لا ينمّ على تغيير بأيّ حال من الأحوال. ظنّت أنّها تحلم وجلست من غير أن تنبس ببنت شفة. سكبت القهوة في فنجان بيد تعوزها الثقة وقسمت قطعة الخبز نصفين. كان قلبها يخفق وهي توجّه مواربة نظرات صوب أبيها، لكنّ الجريدة لم تكن ترتعش بين أصابع العجوز القصيرة والمتورّدة، وكانت تخفي وجهه تماماً عن ابنته.

باشرت بتناول الطعام. وبغتة ترك الجريدة تسقط على الأرض وقرّب كرسيّه من المائدة.

قال: "ماذا جرى؟ فأنت اليوم لمّا تسأليني عن الحرارة؟"

ومن غير أن ينتظر جوابها، أخرج من جيبه ورقة مدعوكة وضعها تحت نظر ابنته. قال:

"هاكِ، اقرئي".

كانت بطاقةً عليها أربعة سطور مخربشة بقلم الرصاص. وتعرّفت أدريين على كتابة جيرمين، فقرأت:

"أنا راحلة، يا أبي. لا تسعَ ورائي، فما من أحد يعرف عنواني. لقد استردّيت من صندوق أمّي كلّ المجوهرات التي تخصّني. وداعاً".

تمتمت الفتاة قائلة: "أين وجدت هذه؟" لكنّ السؤال بقي دون ردّ. فأعاد العجوز الورقة إلى جيبه وملأ فنجانه قهوة. بدا وجهه موصداً كوجه الذين بترت عليهم المباغتة اندفاعة الهياج الساخط بتراً، فهم ينهشون غضبهم صامتين. شرب قهوته من غير أن يرفع نظره عن فنجانه. وما إن انتهى حتى نهض فخرج.

ظلّت أدريين وحيدة، إنّها المرّة الأولى في حياتها التي تكون فيها وحيدة في الدارة، وقد تفكّرت في الأمر بمزيج من المتعة والقلق، وكأنّ تلك الوحدة تحمل في طيّاتها أسراراً عظمى. كانت حرّة في أن تذهب إلى حيث يروقها، فيسعها أن تصعد إلى غرفة جيرمين، بل تستطيع الخروج من المنزل ومن الحديقة، والهروب على نحو ما راودتها الفكرة ذات يوم. لكنّها لبثت ساكنة على كرسيّها، تتأمّل فنجان القهوة الذي لم تقوَ على الانتهاء منه. فهنالك شيء يحول دون نهوضها، إنّه كسل مباغت لا يقبل تأويلا. وقد يعود أبوها في بضع دقائق، وينتهي عندها هذا الاستقلال القصير. ولسوف تعود مجدّداً ابنة أنطوان موزيرا وجاريته. فلم تنهض، وتولاها شعور عذب بالاستسلام إلى قدرها، وعدمِ الكفاح وتركِ الأمور تمضي على هواها. فمنذ زمن طويل وهي تجهد لأن تكون سعيدة، أما الآن فلن تحاول أبداً، سوف تعيش كلّ يوم بيومه، مطأطئة رأسها تحت سورات غضب العجوز موزيرا. وتولّتها رغبة في النوم. أسندت رأسها إلى ذراعيها وغفت على المائدة.

اسيقظت بعد بعض الوقت على دقّات الساعة التاسعة، فدُهِشت لأنّ أباها لمّا يرجع. فهو يتوجّه عادة إلى المحطة لإحضار جريدته فيعود في غضون ربع ساعة. فأين هو؟ وصمّمت على ألا تقلق، فنهضت وأصلحت بعض الشيء من شأنها.

عندئذٍ راودتها فكرة الصعود إلى غرفة أختها، لكنّ الهلع من العدوى جعلها تتريّث: فمذ أن باحت لها جيرمين بأنّها صائرة إلى الموت، وأدريين لاتقوى حتى على التفكير بلمس قطعة ثياب قد تكون ارتدتها. ومع ذلك، ألم تشجّعها على الرحيل لتأخذ غرفتها؟ وبدا لها من العبث التخلّي عن ثمرة

انتصارها من أجل ارتياب صحّي. بل كانت من ناحية أخرى تقول في نفسها، لتستثير شجاعتها، إنْ تكنْ غرفة في المنزل ملوّثة، فالمنزل كلّه ملوّث أيضاً.

وبعد أن أعملت التفكير هنيهة، حدّدت خطة سلوكها فتوجّهت إلى المطبخ وأحضرت صحناً صغيراً ملأته بالكبريت. ثم صعدت إلى الطابق الثاني. وفكّرت قائلة:" ينبغي لي أن أكون سعيدة، فأنا سأتّكىء إلى هذه النافذة للمرّة الأولى منذ شهر. ألست أهوى موركور؟" إنّ ذلك السؤال، الذي طرحته على نفسها، جعل الدم يتصاعد إلى وجنتيها.

دفعت الباب ودخلت بهيئة حازمة، لكن وهي تحبس أنفاسها. كانت النافذة موصدة، ففتحتها وعبّت طويلاً من الهواء الذي دخل الغرفة محمّلاً ببضع قطرات من المطر. نظرت مطوّلاً إلى الجناح الأبيض. كان سطح الأردواز يبرق كالمعدن تحت المطر السائل على صفحته. وكانت نافذة الطابق الأول نصف مفتوحة، فتمكّنت من رؤية زاوية من السجادة الحمراء التي كادت تتساها. وشعرت بغشاوة على عينيها من الدموع التي لم تقوَ على حبسها.

قالت بصوت خافت:" لَكَمْ أنا شقيّة".

وأضافت على الفور بلهجة تنمّ على نوع من النقمة:

"بسببه هو".

وعلى حين غرّة أغلقت النافذة كأنّها نالت كلّ مأرب من ذلك المشهد الذي أضحى ينقبض له قلبها. فأخذت عود ثقاب وحكّته تحت رخام الموقد وأشعلت النار في كومة المسحوق الأصفر الصغيرة التي انطلقت منها على الفور حلزنات من الدخان الحاد. ثم خرجت جرياً.

لم يرجع السيد موزيرا إلا في ساعة الغداء ولم يتبادل مع ابنته كلمة واحدة. بل بدا أنّه يتحاشى رؤيتها. قرأ جريدته وهو جالس إلى المائدة، أو تظاهر بأنّه يقرؤها، لأنّ أدريين باغتته عدّة مرّات وهو يرفع عينيه عن نظارته، فيشرد زائغ البصر في تأمّل طويل لا يقطعه إلا بوضع الطعام في فمه. وتلاءمت تلاؤماً تاماً مع ذلك الصمت الذي ضرب توقّعاتها كلّها، فاغتبطت في داخلها من أنّ الكلفة كانت زهيدة.

بعد انتهاء الطعام بقليل وضع السيد موزيرا قبعته على رأسه وخرج مجدّداً دون أي إشارة إلى اصطحاب ابنته معه. أفعم مثل ذلك الانقلاب في عاداته قلب أدريين بهجة، ثم أثار قلقها. لقد عاشت زمناً طويلا وفق متطلّبات استخدامٍ صارمٍ لأوقات النهار حتى لم تعد في مأمنٍ من هوس الساعات الثابتة، وبدا عجيباً في نظرها ذلك الخلل الذي طرأ على غدوّ أبيها ورواحه. ولقد صُدِمت كلّ الصدمة من شذوذ في السلوك تقريباً، من غير أن تقوى على الاعتراف لنفسها بذلك.

يبقى أنّها طرَدت بعد قليل تلك التوتّرات الضئيلة، عبر تفكّرات من نوع آخر. تذكّرت الأناقة التي تميّزت بها مدام لوغرا في لباسها، يوم تعرّفت عليها، فلم تشأ أن تذهب إلى بيتها قبل أن تولي هندامها الاهتمام الأكبر. فتوجّهت بقصد ذلك إلى غرفتها واستعرضت محتويات خزانتها. وكان ذلك التفحّص طويلا على قدر ما هو الاختيار محدود. فلديها ثلاث تنّورات صيفية، واحدة من قماش الصرج الرقيق، والأخريان من الكتان الأبيض. كانت تمطر. فكّرت في أنّها ستلطّخ فستانها المصنوع من الكتّان بالوحل، فالحظ لا يحالفها وسوف يكون مظهرها رهيباً. وفكّرت من جهة أخرى في أنّ ثوب الصرج سيجعلها تبدو مسنّة. قررت في البداية أن تجرّب تنوراتها الثلاث، أما وأنّ حيرتها لم تتزحزح، فقد آثرت أخيراً أن ترتدي ثوباً شتوياً. اختارت أذن تنورة من الجوخ السميك وصدرية مثنّاة، منشّاة عند طوقها والكمّين وعلى صدرها كشاكش من التخاريم.

كانت جاهزة منذ الثالثة والنصف. أعادت نكش شعرها ثلاث مرات كي تسرّحه تسريحة أفضل، أما الآن فأضحت واثقة من أنّه لا مجال لأيّ تعديل على مظهرها وأنّها على أجمل ما يمكن لها أن تكون. ذهبت وجاءت من أمام مرآة خزانتها مرّات ومرّات، فهي تغمض عينيها ثم تفتحهما فجأة لتحكم حكماً أفضل على الأثر الذي يمكن لها أن تُحدثه. وتساءلت: "هل كنت سأبدو بمظهر أحسن، لو كنت ذاهبة للقاء موركور؟" هزّت رأسها وجلست. انهار فرحها كلّه حين فكّرت في أنّها لن تراه اليوم ولا في أيّ يوم آخر وأنّه غيرُ مبالٍ بها

سواء كانت بمظهر جميل أم قبيح. فهل وقفت ساعة كاملة أمام مرآتها من أجل الذهاب فقط وتناول وجبة الأصيل عند مدام لوغرا؟ فما الأمل الذي تسلّل إلى نفسها؟ هزّت كتفيها وقررت الذهاب إلى بيت جارتها قبل أن يرجع أبوها فيحول دون ذلك.

أخذت منها الخادمة مظلّتها وأدخلتها إلى الصالون. بدت تلك الحجرة صغيرة بسبب الأشياء التي جرى تجميعها فيها مما يولّد في النفس انطباعاً عن فقر مقيت. يضاف إلى ذلك أنّ قطع الأثاث، التي لم تكن سيئة صنعاً ومادةً فقط، قد استُخدِمت لزمن طويل ومرّت عليها أيادٍ كثيرة آلت بها إلى ذلك المظهر الفريد، بل الخارج عن المألوف في الأغراض المؤجّرة. فليس ما يغري المرءَ بالجلوس على تلك الكراسي التي كانت تبدو مدهشة حقاً بتعدديّتها وتجاوزاتها. فهنالك من كافة الأنواع، مصفوفة أنصاف دوائر في الزوايا أو مركونة قرب طاولات صغيرة محمّلة بالمصابيح وأغراض الزينة. بسطت نبتة زينة شتوية أوراقها العريضة فوق جهاز بيانو يقف عمودياً. ويقوم على مقربة منها مكتب يتقدّم قليلاً كأنّه يعرض قبضات جواريره لتأمّلها. وانسدلت على النوافذ ستائر سميكة مزينة بسجف ثقيل فخففت من النور.

قعدت أدريين عند طرف كنبة مزدوجة ولبثت تنتظر. شعرت بأنّها ليست على ما يرام. وانعكست صورتها في مرآة مثقلة بزخارف ذهبية مسودّة فرأت فيها صورة فتاة حمراء الوجنتين فأصبحت أكثر احمراراً. أوشكت أن تأسف لمجيئها، وتساءلت ما عساها أن تقول، وكيف لها أن تفسّر سبب قدومها مبكّرة هكذا. دقّت ساعة حائط، تتعارك فوقها تماثيل ملائكة، منتصف الساعة بعد الثالثة. فعادت السكينة إلى نفسها شيئاً فشيئا. غاصت في جلستها فوق الكنبة وأدارت النظر فيما حولها بمزيد من الثقة، من غير أن تصل إلى التخيّل أنّها في بيت مدام لوغرا، في ذلك المنزل الذي طالما أثار حيرتها. وفيما هي تستدير صوب النافذة، أبصرت دارة الزان. بدا لها الأمر مضحكاً فلم تتمالك نفسها عن الابتسام. من أي جانب من البيت يسع المرء أن يشاهد الجناح الأبيض؟ هل ستجرؤ على طرح هذا السؤال؟

فُتِح الباب على حين غرّة فدخلت مدام لوغرا يتقدّمها كلب صيد قصير القوائم، أصفر اللون، نشيط الحركة، جاء يتشمّم حذاء أدريين وهو ينخر.

بسطت مدام لوغرا ذراعيها نحو الفتاة هاتفة: "على الرحب والسعة".

كانت ترتدي قميصاً من الحرير الأبيض تزينه صدارة واسعة وتنورة من التفتة الرمادية مشدودة عند وركيها لتلتمع فوق فخذيها وتتسع بعدئذ موجة تفيض حفيفاً حول ساقيها. ويتكدّس شعرها السميك، الذي ما زال أسود، كتلة فوق جبينها فينحدر حتى حاجبيها. وامتلأت القاعة لدخولها برائحة خزامى قويّة.

قالت وهي تشدّ على يدي أدريين: " لن نظلّ هنا. سنكون بوضع أفضل في غرفتي..".

جذبت الفتاة إلى خارج الصالون وصعدت درجاً وهي تحيط خصرها بذراعها. وتحدثت إليها وهما تصعدان بذلاقة بهيجة.

قالت وهي ترفق كلامها بضغطة خفيفة من أناملها: "هكذا تخدع الفتاة أباها. لكن ستقولين لي ما فيه من بغيض. أنت تعرفين أنّي سوف أستبقيك طول فترة بعد العصر، وإنّها لبهجة حقيقية أنّي لقيتك في ذلك الحفل الموسيقي. فأنا أعاني الكثير من السأم."

وقالت إنّها جاءت إلى لاتور ديفيك لكي ترتاح.

وأضافت وهي تغمز بعينها: "لم أعد في سنّك. هيّا هنا. هيّا ادخلي".

ودفعت بالفتاة إلى حجرة صغيرة فُرِشت باللون الزهر القديم والأحمر. هنا أيضاً بدا الترف مزرياً. هنالك سرير خشبي يقلّد أشكال النزوات في القرن الثامن عشر، وهو مجلوب مباشرة من مخزن كبير في باريس حيث يصنّعون قطع الأثاث من هذا النوع مجموعاتٍ من ألف قطعة. وكنبتان من الطراز عينه، لكنّهما مطليّتان بالأبيض، وموضوعتان متقابلتين حيال واحدة من تلك الطاولات الصغيرة المستديرة ذات الوجه الرخامي والتي يبدو أنّها صُنِعت لكي تنقلب على قفاها. وتغطي الأرضية سجادة سميكة، لكنّها مبقّعة، تبدّد صوت وقع الخطا.

هتفت أدريين قائلة:

- ألا كمْ هذا جميل!

فقالت مدام لوغرا:

- حقاً؟ إنّها الأناقة. الطراز الخالص للقرن الثامن عشر. ارفعي قبّعتك. بلى، فأنا أريد ذلك. ولديك هنا مرآة.

انحنت أدريين أمام المرآة ونزعت قبّعتها. لاحظت مجدداً أنّ وجهها محمرّ فسخطت على نفسها، ما الداعي إلى الخجل مع امرأة على هذه الدرجة من اللطافة؟ وتولّتها رغبة مباغتة في الضحك. بدت لها الطرافة في كل شيء، في الغرفة هذه وفي هذا التخفّــي وهذا الهروب من بيتها، فهو غير متوقّــع وكان يفتنها. استدارت بغتة نحو النافذة فنظرت من فوق السّجف الحريري، لكنّها لم تستطع أن ترى دارة الزان.

كانت مدام لوغرا تراقبها فسألتها وقد قرأت أمارات الخيبة على وجهها:

- ما المسألة الشاقة؟

فردّت أدريين :"لا شيء، إنّها ما زالت تمطر".

قالت مدام لوغرا وهي تدفع بها نحو كنبة عريضة: "اجلسي. سوف يقدّمون لنا الشاي بعد ساعة. وحتى ذلك الحين سوف نتعارف."

وجلست فوضعت وسائد خلفها فيما تمدّ د الكلب فوق وسادة جلدية عند قدمَيْ سيّدته. قالت:

"سوف أبدأ بنفسي أولاً، فذلك سيفسح لي مجالاً أوسع من الحرّية. سوف أقدّم إذن نبذة موجزة عن السيدة لوغرا، إنّها امرأة طيبة في متوسّط العمر..." وأضافت، كأنّما أدريين قد عارضتها: "بلى، بلى، إنّها في منتصف العمر وقد بدأت تنحدر نحو النصف الأسوأ. أُخطِرك بأنّي ذات مزاج يقظ، أما هنا (وضغطت بيدها على صدرها) فيكمن قلب، إنّه قلب امرأة حقيقية: أمٌ وأختٌ وزوجةٌ، مجتمعات معاً... (وأضافت وهي ترفع إصبعاً) ومؤتمنة على الأسرار. ذات أذواق غريبة، وحتى نزوات جامحة. وكثير من المرح حتى المزيد. هذا عن الجانب الأخلاقي. ومن ناحية أخرى فحياتي هادئة من غير

هزّات ودون أحداث كبرى. ولا أحلام لي، فزوجي رجل طيب وليس لدينا من طموحات. وباختصار أقول لك بكلمة موجزة إنّي برجوازية، برجوازية، برجوازية. فهل يلائمك ذلك؟"

فقالت وقد احمرّ وجهها قليلاً:"بالتأكيد، فأنا أيضاً برجوازية مثلك".

فهتفت مدام لوغرا وهي تمدّ يدها فوق الطاولة لتضغط على ذراع الفتاة: "يا لكِ من صبيةّ حبيبة"، وشرعت تضحك. "فلنقمْ بتنظيم عقد. هل توافقين. إنّي أعيش وحيدة هنا، لست وحيدة. فزوجي يأتي أحياناً، لكنّ مشاغله تقيّده كثيراً. وأنا في النهاية وحيدة أغلب الأحيان، وأنتِ أيضاً، أليس كذلك؟"

- بلى، يا سيدتي.

فصححت مدام لوغرا جوابها: "بلى، يا ليونتين. إذن كلّما شعرت الواحدة منا بالسأم، ذهبت لرؤية الأخرى..."

توقّفت حيال هيئة أدريين المرتاعة، ثم استأنفت تقول بحماس:

"... وسوف نخرج معاً. لكن لنتكلّم عنك. هل تسمحين لي بأن أناديك باسمك؟ أدريين ، حسبما أعتقد؟

- أجل.

- أرجوك أن تناديني باسمي، ليونتين. فليس ما يشجّع على الصداقة مثل هذا، إنّها الثقة. تخيلي أنني عرفتك منذ ستة أعوام، وسوف ترين. ألا ترغبين في خلع سترتك الطويلة؟

فكّت أدريين زرّين من سترتها وابتسمت وهي تعتمد بمرفقها على ذراع الكنبة. فقالت مدام لوغرا:

كم عمرك يا حلوتي؟ لم تبلغي بعد مرحلة التكتّم على العمر. هل أنت في التاسعة عشرة؟

- ثمانية عشر عاماً.

استدارت تماماً صوب أدريين وضمّت يديها فوق الطاولة. بدت عيناها العسليتان الصافيتان صفراوين وهما تحدّقان في الفتاة بتعبير لافت للنظر. وعلت زاويتا فمها وهي تردّد بلهجة اقتناع:

"ثمانية عشر عاماً. يا لك من فتاة سعيدة، يا أدريين ! فالتي لها مثل محيّاك..."

وضحكت ضحكة عميقة. وقالت بصوت خافت أكثر:

" لا تنكّسي رأسك. فالتي لها مثل هاتين العينين، تستطيع أن تواجه بهما العالم".

كان في طريقة كلامها شيء مخادع وخصوصي في آن معاً، خلّف انطباعاً مستغرباً في نفس أدريين. فقد أربكتها تلك الدالات المفرطة في كلامها وشعرت بأنّ المتعة كلّها، التي غمرتها لدى قدومها إلى تلك المرأة، تتبدّد تباعاً وهي تسمعها تتكلّم. وقد تكون مدام لوغرا لاحظت ذلك التغيّر.

قالت وقد استعادت نبرة صوتها العادي، وانتصبت قليلاً وهي تبتسم: "هيا بنا. أجمل ما في الفتاة أن تجهل كل شيء عن حسنها. لكن دعيني أقل لك إنّك مدللة. هل يروقك أن أقرأ في كفّك؟"

رفعت أدريين رأسها والتمعت عيناها:

- هل تجيدين قراءة الكف؟

فقالت مدام لوغرا:"سوف ترين. هاتي".

فمدّت لها أدريين يدها اليمنى.

"والثانية أيضاً".

أمسكت مدام لوغرا بكفّيها المستندتين إلى الطاولة وقلّبتهما كي ترى الراحتين رؤية أفضل. وتحسّست من فورها اللحم تحت الإبهام.

قالت وهي تنظر في عني أدريين :"آه، آه، سوف تعيشين حياة ممتعة".

ثم انحنت قليلاً وأضافت بعد فترة انتظار:

"... ومديدة. هنالك بعض الأمراض. لكنّها أشياء ليست بذات بال".

وواصلت عملية التفحّص. شعرت أدريين بنفَسها يلامس بشرتها. فسألتها بعد فترة من الصمت: "هل سأكون سعيدة؟"

فقالت مدام لوغرا من غير أن ترفع رأسها:" ما تقصدين بقولك سعيدة؟"

فنهزت أدريين بكتفيها.

قالت :"لا أدري."

وترددت لتقول أخيراً:

"هل ترين زواجاً؟"

شدّت مدام لوغرا قليلاً على كفّيْ الفتاة، سعياً منها، دون شك، وراء تمييز الخطوط تمييزاً أفضل. انحنت كثيراً، فاستطاعت أدريين أن ترى المشط الكبير المزدان بكرات ذهبية، والذي غرسته في كتلة تسريحتها. ومرّت فترة من الصمت.

قالت مدام لوغرو بتفكّر: "أجل، زواج."

رفعت عينيها فبدت وهي تسجوب بنظرها وجه الفتاة المتنبّه. لكنّ أدريين أسبلت جفنيها.

وسألت بنفاد صبر كتمته بمشقّة: "ومتى، هذا الزواج؟"

- إنّه وشيك. لكنّ الأمر منوط بك.

استولى على أدريين انفعال عنيف. فجذبت كفّيها اللتين بدأتا تؤلمانها. وكرّرت:

- الأمر منوط بي؟

- إنّه منوط بالمهارة التي ستستخدمين. فأنت جميلة، لكنّ ذلك لا يكفي. فالرجل بهيمة لا يستسلم بسهولة ما لم نصرعه من الضربة الأولى. ولا تعود أيّة رعونة في البداية تقبل الإصلاح. هل أنت غنيّة؟

- غنيّة إلى حد مقبول.

فسألتها بلهجة قاطعة:

- كم؟

فردّت أدريين بحركة من يجهل الأمر.

- لدى والدي بعض المدّخرات.

فخلصت مدام لوغرا إلى القول وهي تضرب براحتي يديها على الطاولة:

- لا تخشي شيئاً، يا حبيبتي. سأراهن على نجاحك حتى لو اتخذت شكل امرأة وقحة. وإلا..."

ورفعت إصبعاً ثم آخر كي تقوم بالتعداد.

- أنت فتيّة، وأنت جميلة وغنية. أما الآن فإليك هذه النصيحة. لك نحر جميل، فقومي بإظهاره. لديك شعر رائع، فقومي بعرضه.

لقد استعادت لهجتها الآمرة حيال ما كان ينمّ عليه مُحيّا الفتاة من ارتباك وبهجة.

"تخلَّيْ عن هيئة الوقار هذه، فأنت تبالغين بعقد الحاجبين. حسبك مظهراً محتشماً دونما زيادة، ولا بأس في بسمة من وقت لآخر. اعتني أيضاً بهندامك، وارتدي ملابس ملائمة أكثر. لا تضعي قفازات قطنية، فما تقولين؟ فهذا كله يُحسَب حسابه. هل تريدين أن تروقي الأعين؟ إذن اعلمي أنّ الرجال لا يلحظون الأشياء الجميلة أبداً، أما الأشياء القبيحة فتسترعي انتباههم. الأمر عجيب لكنّه صحيح. اسأليهم ما لون القفازات السويدية الجميلة التي كنت تضعينها في صباح اليوم نفسه، فلن يعرفوا شيئاً. لكن ضعي قفازات قليلة الجودة ترَيْ تغضّن وجوههم".

ثم صالبت يديها فوق الطاولة واتخذت هيئة رقيقة. وقالت بصوت خافت تحول همساً: "الآن فهمت. أبوك يتمسّك بك. إنّه يسهر عليك. أراهن على انّك جئت خلسة".

أجفلت أدريين.تذكّرت الكلمات التي تفوّهت بها بالأمس ولبثت مرتبكة لأنّ مدام لوغرا حزرت حقاً لِمَ أبوها ما كان ينبغي أن يعرف بحقيقة الأمر. لذلك تولاها سخط عميق ورغبة عنيفة في البوح في آنٍ معاً.

قالت في نفسها: "لا يريد أبي أن أخرج وحدي".

وتوقّفت. كان بداخلها شيء ما يمنعها من البوح لتلك المرأة.

وختمت مدام لوغرا كلامها قائلة:" هو لا يريد أن تخرجي وحدك لأنّه يخشى أن تذهبي إلى بيت... إلى بيت ذلك السيد. ما شكلُ صديقك؟"

أضحت أدريين بلون قرمزي. فتلك الأسئلة شوّشت فكرها. لقد شعرت بأنّ هنالك من ينزع عنها ملابسها. بدا لها الحديث عن هواها بتلك اللهجة من الصفاقة ومن قبل امرأة غريبة، أمراً هائلاً. ومع ذلك تمالكت نفسها لدى التفكير في أنّ مدام لوغرا قد تكون ذات نفع لها.

بدأت القول بتحسّر: "عيناه سوداوان".

تفكّرت بعمق. ذلك كلّ ما يسعها أن تتذكّر من ذلك الوجه الذي لمحته.

- هل هو فتيّ؟

فأجابت أدريين قائلة بعد شيء من التردد: "أجل".

ثم قالت مدام لوغرا بصبر نافد:

- وبعد؟ هل هو طويل القامة؟

لم تستطع أدريين أن تجيب. لاحظتْ أنّها لم تولِ قط تلك الأشياء بالاً، وهي التي اتّخذت بغتة أهمية جوهريّة في نظرها. أهي لم تشاهد الدكتور موركور البتة؟ لقد رأته يصعد الشارع يوم خرقت بذراعها زجاج النافذة. فلِمَ لم تعاينه معاينة أفضل؟ إنّها لم تتوصّل الآن لأن تصفه. فصعقها ذلك الاكتشاف. وتساءلت أليست حمقاء في معاناتها من أجل رجل، لن تعرفه دون شك إذا ما صادفته في الشارع؟ وأحسّت على الفور تقريباً بطنين في رأسها فأستندت إلى ظهر الكنبة. وعرتها رعشة. كان الجو ثقيلاً في تلك الحجرة.

نهضت مدام لوغرا بهمّة فدارت حول الطاولة، وقالت: "ما الأمر؟ ها أنت مضحكة تماماً".

كان في صوتها رنّة قلق. فأمسكت بيدي أدريين وربّتت عليهما.

سألتها مدام لوغرا: "ما الأمر؟ آمل ألا يكون بسبب ما قلت لك؟"

بدرت حركة عن أدريين، فتمتمت: "رأسي يؤلمني". وأضافت على الفور: "انتابني دوار".

فهتفت مدام لوغرا:

- انتابك دوار! يا حبيبتي. هيا تمددي.

وأرغمتها على النهوض فشبكت ذراع الفتاة بذراعها ، وقادتها حتى سريرها. جلست أدريين. أرغمها إحساس بالدوارعلى إغماض عينيها. فقبضت بيدها على إحدى عوارض السرير.

قالت مدام لوغرا التي أرعبها ذلك التوعّك: "الآن تمددي". وظلّت تكرّر تلك الكلمات بإلحاح إلى أن استجابت أدريين.

أستأنفت مدام لوغرا تقول بعد هنيهة: "هيا، فليس الأمر بذي بال".

ظلّت في حالة من التردّد وسط الغرفة إلى أن تولّتها فكرة مفاجئة. قالت:

- ظلّي مطمئنّة هنيهة. سوف آتيك بمنعش يعيد إليك توازنك.

وقصدت باب الغرفة بسرعة فخرجت. وأغمضت أدريين عينيها فبدت نائمة.

* * *

-١٤-

عادتْ إلى البيت مع هبوط الليل، مرهقةً ومثبّطةَ الهمّة. جعلتها مدام لوغرا تشرب كأساً من البورتو فتسبّب لها بوجع رأس فظيع وتراخت ساقاها وهي تمشي مع كل خطوة تقريباً.

وفيما هي تفتح الباب المشبّك لدارة الزان انتابها ما يشبه الغثيان. لم يسبق أن شعرت قط بأنّها مريضة وشقيّة حتى هذه الدرجة. أحسّت بالنفور من صرير تلك الشبكة الحديدية التي أغلقتها وراءها. كان المطر مستمراً في الهطول، مما زاد في اتساع مجاري المياه الموحلة التي كانت تسيل حول المرج. ليس من مكان موحش يضاهي تلك الحديقة وهي تقطر ماء وتختفي وسط العتمة.

بلغت غرفتها بأسرع ما تستطيع و بعد أن تخلّصت من ثيابها المبللة تهالكت فوق سريرها وأخفت وجهها في وسادتها. كان ينبغي إذن استعادة كل شيء بلا انقطاع. ينبغي أن تجوب دونما توقّف تلك الحلقة التي يتلو اليأسُ فيها الأمل ويعقب الخوفُ الفرح. لقد توقّعت كلّ شيء من هذه الزيارة التي قامت بها إلى مدام لوغرا وها هي ترجع من دارة لويزا حتى من غير أن تطلب رؤية الغرفة التي تطلّ على شارع كارنو. ورفضت، فضلاً عن ذلك، أن تبوح بأسرارها لتلك المرأة التي بدت، رغم ذلك، مستعدة لمساعدتها. لكنّها شعرت حيال مدام لوغرا بنفور لا يمكن تجاهله، وهو نفور لم تتوصّل إلى الكشف عن مصدره. قالت في نفسها: "إنّها مثيرة للسخرية. ولن أتمكّن أبداً من أن أقول لها من أهوى". لم تتحمّل فكرة أن تقوى تلك الشفتان السميكتان من التلاصق والانفتاح للتلفّظ باسم موركور. وبدا لها أنّها تفضّل الاحتفاظ بسرّها طول حياتها وأن تعاني من ذلك على نحو ما تفعل.

ثم راقها أن تتخيّل صديقة حميمة مثالية، أن تتخيّل شخصيّة ما، تستطيع دونما خجل ودونما ندم، أن تقصّ عليها أشكال بؤسها وأن تطلب نصحها. ألا تعرف أحداً؟ شقيقتها؟ وكتمت صرخة وهي تفكّر في أنّ العانس كانت على علم بما كان يعتمل داخلها، ولا ريب في أنّها أخطرت والدها بذلك. وجعلتها ذكرى أحاديثها مع جيرمين تشعر بخزي عميق. أخذت رأسها بين يديها عسى أن توقف مجرى تلك الأفكار التي كانت تمزّقها. واستولى عليها نوع من الهلع. فهي وحيدة، ولن تستطيع أبداً أن تبوح بمكنوناتها لأحد. وخامرتها الفكرة في أنّ العالم لو فرغ بغتة من سكّانه وظلّت الوحيدة على قيد الحياة فوق سطح الأرض، فإنّ حياتها الخلقية لن تتغيّر. كذلك فإنّ لغوها لن ينقص فيما لو قطعوا لسانها.

راودتها فكرة على حين غرّة. بدت كأنّ أحداً ما قد هزّها، فنهضت قليلاً واتكأت على مرفقها. سوف تذهب لاستشارة موركور حول مرض وهمي، وسوف تكلّمه في مجرى الحديث عن نفسها مع الزعم أنّها تكلّمه عن إحدى صديقاتها. سوف تقصّ عليه حكاية تلك الشقيّة، فقد تؤثّر في نفسه، وربّما يخمّن. سوف تمهّد الطريق على كلّ حال، وتكون مناسبةً كذلك لرؤيته. ستدقّ على باب الجناح الأبيض، فتلج المكتب الذي كانت تلمحه من غرفة جيرمين، وتطأ السجادة الحمراء. ليتها تستطيع الذهاب على الفور إلى عند الدكتور! لكن لِمَ لا تذهب؟ وهل ستتردد لو كانت مريضة حقاً؟ يسعها خلال ربع ساعة أن تكون مع موركور وجهاً لوجه. ربع ساعة، أي الوقت اللازم لارتداء ملابسها وعبور الشارع. سببت لها تلك الفكرة دواراً، لكنّها استبعدت الزيارة بحركة تخاذل. لقد فات الأوان اليوم. لكنّها ستذهب في الغد بكلّ تأكيد.

كانت في تلك المرحلة من تأمّلاتها حين سمعت باب الحديقة يُفتح ويُغلق، وتعرّفت على وقع خطا أبيها الذي سلك الممشى الأوسط ثم صعد درج المدخل. ودخل. فاستولى عليها رعب مباغت حتى ساورتها نفسها بأن تدير المفتاح في القفل، إنّها لم تفكّر تقريباً بأبيها، في هذا النهار الذي غصّ بالأحداث بالنسبة لها، كما كانت تجهل ماذا فعل، لكنّها لم تتكهّن بغير الشرّ

سبباً لغيابه، وأوجست خيفة من الساعة التي يتوجّب عليها أن تنزل فيها إلى قاعة الطعام فتجابه العجوز. فكّرت في أنّ عليها للمرّة الأولى أن تمضي الليل وحيدة في المنزل مع ذلك الرجل الذي يجاري عنفه ضرباً من الجنون. وكاد يبلغ بها الأمر حدّ الأسف على رحيل جيرمين. فالخادمة لا تنام في دارة الزان، إنّها متزوجة ولديها غرفة في المدينة.

ارتدت ملابسها مجدداً وانتظرت. مرّ ربع ساعة طويل، ثم سمعت أباها يناديها مثلما يفعل كل مساء ساعة العشاء. شعرت على الفور بأنّها أقلّ اضطراباً وأنّه قد سرى عنها تقريباً، فردّت بصوت أشبه بصرخة. امتلأ قلبها أملاً فتمنّت بحميّة ألا يدور من بحث بينها وبين أبيها حول غياب جيرمين أبداً. قد يتصرّف كأنّ شيئاً لم يكن. وبدا لها أنّه إذا ما نشب نزاع هذا المساء، فسوف يُقضَى عليها.

كان الانفعال ينهنهها وبلغ بها الضعف درجة أرغمتها على التسنّد على العارضة وهي تهبط الدرج.

لم تجرؤ على النظر إلى أبيها الذي كان يقرأ جريدة المساء وهو يأكل حساءه.

جلست في مكانها بصمت وباشرت تناول طعامها، لكنّ الرهبة وآلاماً شديدة في رأسها انتزعت منها كلّ شهيّة. ازدردت بضع ملاعق صغيرة من الحساء، لكنّها تركت طبقها يُرفَع من أمامها شبه ملآن. انتهى العشاء ببطء. كان السيد موزيرا يأكل من وراء جريدته دون أن يعير بنته التفاتاً ونهض فور انتهائه من تناول الحلوى.

توجّه إلى الصالون من غير أن ينطق بكلمة، فأضاء مصباحاً وجلس على كنبة، وبسط للمرّة العشرين جريدة **لوتان** واستأنف قراءته المتأنّية لتلك الجريدة كعادته. تبعته أدريين فجلست في ركن آخر من القاعة. وفيما كانت تأمل أن تغادر الصالون بعد قليل لتقصد غرفتها، لاحظت أنّ أباها كان يراقبها بطرف عينه. فما كان ينتظر؟ لقد عرفت ذلك بعد قليل.

حين انصرفت ديزيريه، نهض فمضى وأغلق باب الحديقة وراءها ثم أغلق باب المدخل. لم يكن في مظاهر الحيطة تلك من شيء خارق، لا سيّما أنّ عادة عمرها ثماني سنوات قد كرّستها. إلا أنّها أرعبت الفتاة التي ارتعدت لصرير المفاتيح في الأقفال. وراودتها الفكرة في أن تصرخ طلباً للنجدة، وأن تنادي مدام لوغرا، لكنّ عقلها أرغم غريزتها على التزام الصمت. ولئن جاء أحدهم فما عساها تقول؟

نهضت فمشت بضع خطا في الصالون، وقلبها يخفق، من غير أن تفسّر لنفسها مصدر ذلك الخوف المباغت. صعد والدها الممر. كان الوقت ما يزال متوفّراً أمامها للهروب من تلك الحجرة واللجوء إلى غرفتها، لكنّ استحالة العثور على سبب يفسّر طريقة التصرّف تلك جعلتها تتردّد: لم تشأ أيضاً أن تبدو مثيرة للسخرية.

حين دخل السيد موزيرا، ذُهِلت بسبب الإرهاق البادي على قسماته. وولّد في نفسها انطباعاً بأنّه أقصر قليلاً من المألوف. قد يكون مردّ ذلك وقفته المهملة وأنّ كتفيه كانا مستديرين. عبر الصالون وقدِم ليتوقّف أمامها. فلاحظت خطّين أسودين كبيرين يحيطان بعينيه. أما جبينه فمتغضّن. قبض على قلابَتيْ سترته بيديه ونظر إلى ابنته التي أشاحت بوجهها. قال:

- لقد خرجتِ عصر اليوم؟

- نعم.

- أين كنت؟

أسندت يديها إلى الإسكملة وراءها وتنهّدت:

- ذهبت لرؤية صديقة.

- من هي؟

لم تقوَ على الكذب فردّت على الفور:

- مدام لوغرا.

فنهز بكتفه:

- ألا تعلمين حقيقة تلك المرأة؟

لم تجب وامتــُقِع لونُها. فحمل سراجاً من على الإسكملة.

أمَرَها قائلاً: "اصعدي إلى غرفتك".

خرجت أدريين من الصالون، يصحبها أبوها وهو يمشي وراءها حاملا السراج أعلى من رأسها بقليل. صعد الإثنان. لقد شاءت العمارة استغلال المساحات الصغيرة في هذا المنزل إلى أقصى حد، فكان الدرج شديد الانحدار، مما يجعل صعودَه مضنياً. توقّفت أدريين عند منتصفه وتمسّكت بالحاجز. بدا لها أنّ ركبتيها ستخوران فجأة فتساءلت إن كان السقوط فوق رخام الممرّ كافياً لقتلها. وفكّرت قائلة: "ليس عالياً بما يكفي".

قال لها السيد موزيرا: "هيّا". وكأنّما شاء أن يدعم المشروع الذي خطر ببال ابنته.

تسنّدت على الحاجز وواصلت الصعود. حين وصلت إلى أمام غرفتها توقّفت أمام الباب ونظرت إلى أبيها.

قالت: "طاب مساؤك".

كانت تأمل أن يفارقها.

أشار إليها السيد موزيرا بإصبعه قائلاً: "ادخلي".

فسألته بصوت خائر: "ألن تذهب لتنام؟"

أزاحها جانباً، من غير أن يردّ، ففتح الباب ودخل. ثم وضع السراج على طاولة وأسند قبضتيه إلى وركيه.

قال:"إني أنتظرك".

دخلت فظلّت قرب الباب.

قال لها: "أعطني مفتاح هذه الخزانة".

أخذت أدريين ترتعد بكل أطرافها. تردّدت لحظة، وبتأثير من نظرة أبيها، بحثت في درج الطاولة إلى جانب السرير فأخرجت المفتاح. فأخذه

بحركة عنيفة وفتح الخزانة. دار الباب على مفصّلاته وسط الصمت محدثاً صريراً كالمواء وعكست المرآة نور السراج الذي مرّ كالبرق. أدخل موزيرا يديه في أكداس الملابس وانتهى بالعثور على العلبة الصغيرة من خشب الزيتون.

قال باقتضاب: "افتحي لي هذه".

سألت الفتاة بلهجة فيها توسّل: "لِمَ يا أبي؟"

ألصقت ظاهر يدها بجبينها.

تولّتها رغبة مفاجئة بالارتماء جاثية عند ركبتي أبيها. وأحسّت في نفسها بغتة بأنّها على نحو من التخاذل، بدا معه الدرك التي يمكن لخوفها أن ينحدر بها إليه خالياً من كل أهميّة. وضغطت بيدها على قائمة السرير، فانثنت قبضتها.

سألها السيد موزيرا: "كم أعطيت أختك؟"

- خمس مئة فرنك.

فقال: " خمس مئة فرنك!"

ثم كرّر الرقم مرّة أخرى، كأنّما لاقى مشقّة في تصديقه، وبدا كأنّه على وشك أن يقول شيئاً ثم تراجع.

قال: "افتحي هذه العلبة".

أخرجت أدريين ساعتها من زنّارها وانتزعت مفتاحاً صغيراً. حين فُتحت العلبة، القى السيد موزيرا نظرة داخلها وتأكد من نقص واحدة من لُفَيْفات القطع الخمس والعشرين.

فاستدار صوب ابنته وقال لها: "هذا صحيح إذن".

وصرخ فجأة: "أيتها الحمقاء! هذا المال لن تريه أبداً، هل تسمعين، أبداً؟ فمن أين تريدين أن تردّه أختك إليك؟"

وتوقّف فبدا كأنّ فكرة مباغتة قد جاءته.

"إنّه مبلغ قد نقص من بائنتك. أنت تظنّين إذن أنّك غنية وتظنّين أنّ الزواج ممكن من دون مال، قولي؟"

تراجعت أدريين من أمام العجوز الذي تقدّم نحوها. كان شيء يدوّي في رأسها وتذكّرت بشكل غامض كلمات مدام لوغرا عن الزواج والمال. فأيّ قدَرٍ جعل الأشياء كلّها تتشابك كأنّها في كابوس؟ قد يظنّ المرء أنّ السيد موزيرا توافق مع تلك المرأة لجعل اليأس يتسرّب إلى قلب الفتاة. لم يسعْها أن تجيب. كان نظرها معلّقاً بوجه أبيها من غير أن تقوى على أن تشيح بوجهها عنه. فهاتان العينان حيث الدم يرسم شبكات دقيقة قد صعقتاها. تراجعت أيضاً حتى التصقت راحتا كفّيها بالجدار. وتولّد لديها الإحساس بأنّها مسمّرة عليه.

استانف أبوها يقول بصوت خافت: "أنتِ ساعدتِها على الرحيل. لقد توافقتما أنتما الاثنتين على خداع العجوز موزيرا، أليس كذلك؟"

هزّت رأسها نفياً. فأخرج العجوز ورقة من جيبه.

سألها: "إذن، ما هذا؟"

إنّها الرسالة التي كتبتها إلى مؤجّر العربات وقد تعرّفت عليها بهلع.

فقال السيد موزيرا وهو يعيد الورقة إلى جيبه ويبتعد قليلاً: "هيا، فأنت ترين جيداً أنّ الكذب لا طائل وراءه. هل أقصّ عليك كيف أمضيتُ يومي؟"

تجوّل في الغرفة متكلّفاً هدوءاً منفّراً أكثر من غضبه، لأنّه بدا مستمتعاً به.

"هاك. توجّهتُ في البداية إلى مؤجّر العربات. لستما ماكرتين إن ظننتما أنّه لن يكون البادىء بتزويدي بالمعلومات اللازمة. فأنت تعلمين أنّي لست غبياً لأتخيّل أنّ أختك، مع ما تتصف به من كسل، سوف تتوجّه إلى المحطة سيراً على قدميها. فماذا علمتُ في الواقع؟ أنّكما طلبتما عربة في السادسة والربع... وأخيراً عرضوا عليّ الرسالة، رسالتك، أيّتها الغبيّة! المرحلة الثانية في المحطة. قد لا يكون لديّ أصدقاء في المحطّة، أنا الذي أقصدها مرّتين يومياً فأتحدّث إلى الجميع؟ فماذا قالوا لي؟ قالوا إنّ الآنسة موزيرا ركبت قطار السادسة وخمس وخمسين دقيقة إلى باريس. فما رأيك؟"

توقّف فنظر إلى ابنته بنوع من الانتصار المتعالي، وهو يضع يديه وراء ظهره. فلم تتحرّك.

فاستأنف القول بحدّة أكبر: "هذا ليس كلّ شيء. عدتُ إلى هنا فوجدتُ أنك قد خرجت".

وكرر كلمة "خرجت" بنوع من التفخيم كان له أن يبدو هزلياً في وقت آخر.

"ظننتِ أنّك حرّة، فخرجت لرؤية هذه... هذه الــ "لوغرا". بلى، لدي أيضاً معلومات عنها، عن صديقتك ليونتين لوغرا. لكن سوف نعود إليها. صعدتُ أخيراً إلى غرفة جيرمين. كانت هنالك رائحة كبريت خانقة. لقد فهمت. إنّك تريدين غرفتها. فأنت تقومين بتعقيمها، وتبهجك فكرة انحنائك على النافذة طول النهار. هذا ضلال. لقد أخبرتني جيرمين بكلّ شيء".

لبثت أدريين ساكنة. فنظر إليها نظرة سخط وازدراء واستأنف قائلاً:

- أجل. لا بأس، فالغرفة، لن تظفري بها. وأحكــُمُ عليها منذ اليوم بالإغلاق. أما المفتاح... (وضرب صدره على سويّة جيب صدريته العلوي) فالمفتاح هنا. ولن تقوَيْ على سرقة هذا كما فعلت بالآخر. ويبقى عليّ أن أكون حذراً منك.

رافقت تلك الكلمات ضحكة مريرة. ويخمّن المرء أنّه قد أعدّ ذلك المشهد بكل عناية، وراء جريدته، مع تلك الحركات والالتماعات اللفظيّة. وبعد قليل أضحت سورة الغضب أشدّ قوة فانساق وراء نقمته كلها بسخط جرف معه الحرص على ما سيترك من أثر.

وصرخ صرخة مباغتة قائلاً: "سوف ترين. لقد رغبت في أن تغيّري كل شيء في هذا البيت، ولسوف تكونين أول من يعاني منه. سوف أحبسك هنا ما بين هذه الساعة وتلك. ولن تخرجي إلا بصحبتي. ولسوف أجعلك تنفــِّذين ما يروقني حتى بلوغك سن الرشد". وزفر فخبط بقبضته على الطاولة مما جعل السراج يرتجّ.

"إذن لا تأملي، من بعد، في الخروج كالسابق، على هواك، انتهت الجولات الليلية. هل فهمت؟ جيرمين روَت لي ذلك كلّه. ولسوف أعيد أختك إلى هنا، فهي ستتولى مراقبتك".

وصرخ على نحو مباغت: "أعطني عنوانها!"

لكنّ أدريين لم تردّ.

وجأر العجوز بالصراخ وقد صار بلون الأرجوان: "اعطني عنوانها أو أقتلك!" لكنّ الفتاة هزّت رأسها. فسار بضع خطا نحوها. فحبست أنفاسها وصرّت على أسنانها. كان قلبها يخفق بشدّة حتى أنّها سمعت طرقاته مثل من يضرب الأرض بكعب حذائه. ونظر إليها ونهز بكتفيه مرتين.

قال لها بصوت خافت: "ياغبيّة! تبغين أن تكوني حرّة هنا، تبغين التمكّن من لقائه كما يروقك، والذهاب إليه كل مساء، كما فيما مضى. وتُجرين حساباتك من دون وجودي. كم تودّين لو تعطين مقابل أن تريني ميتاً، قولي؟ لكن اطمئنّي، فأنا قوي البنية!"

ودقّ على صدره مرّتين. وفجأة صفعها. فلم تتحرّك. رأى خدّها الممتقع يصطبغ قليلاً من تأثير الصفعة. إنّ عينيها الجامدتين هولاً واللتين توسّعتا، ومعهما نظرة الحقد العاجز قد زادتاه اهتياجاً. فصفعها مجدداً بكل ما أوتي من قوة. فترنّحت وأطلقت زفرة أشبه بالحشرجة.

ابتعد عنها وهو يرتجف اهتياجاً، ثم صاح:

"انتظري قليلاً! دكتورك هذا، سوف أذهب لكي أراه، ولسوف أعلّمه كيف يمدّ يده على واحدة من آل موزيرا! إنّما هو طامع في مالك. سأبدأ بحرمانك من الإرث، لن تنالي فلساً واحداً. ولن تتزوجي من أحد. فمالي كله سوف يؤول إلى الدولة. آه! لسوف ترين! فغداً صباحاً سأذهب إلى موركور أولاً، ثم إلى الكاتب بالعدل. لقد سخرتما مني هنا! فواحدة تهرب حاملة مجوهراتي، والأخرى تلوّث شرفي مع بائس يطمع في ثروتها، وأنا الأحمق والخرف، لست مؤهّلاً لأن أفهم، أليس كذلك؟"

توقّف وقال فجأة وهو يراها ساكنة:

"ربما أنت لا تصدقينني؟ هاك، أنا ذاهب هذا المساء، إلى صديقك موركور!"

قطع عتبة غرفتها وتوجّه بخطا سريعة إلى سفرة الدرج. تابعته أدريين بعينيها، ثم بدا على حين غرّة أنّ جسدها كله قد استراح. فانطلقت خارج غرفتها وأغلقت الباب وراءها بكلّ قوة. سمعت أباها في العتمة يلفظ اسمها بطريقة مختلفة. ومرّت ثانية واحدة. ظنّت أنّها ترى نوراً يدور حول رأس العجوز. استبدّ بها هلع رهيب، وانطلقت، من غير أن تعرف كيف، كأنّما ألقت بها في الظلمة قوة لا تُقاوَم، فاندفعت نحو الدرج. ارتمى ثقلها كلّه على كتفي أبيها الذي اختلّ توازنه فسقط إلى أمام، فيما تمسّكت هي بالحاجز. وسمعته يصرخ:" آخ!" كواحد انقطعت أنفاسه.لا بدّ أن يكون سقط بطوله، وجبينه إلى إحدى الدرجات، لينقلب من بعد انقلابين هائلين. وصدمت قدماه عوارض الحاجز فجعلتها تهتزّ. شعرت باهتزاز الحاجز تحت يدها وسمعت في الوقت نفسه صوت صدمة ثانية أشدّ كموداً من الأولى.

انحنت، فوق الحاجز بكل قوتها، وبطنها يستند إلى العارضة الخشبية. كان العرق يسيل على حاجبيها وصدغيها. نادت بصوت خافت:

"أبي!"

وقعدت بعد قليل على الدرجة الأولى وانتظرت.

* * *

-١٥-

ومرّ وقت. تساءلت إن كانت قد أغفت وكم يمكن للساعة أن تكون. كانت آلام ترغمها على تقويس ظهرها وجهدت مرّة، بل مرّتين، من أجل أن تنهض، لكنّ وجعاً شديداً كان يسحقها، فظلّت هنالك تستند بظهرها إلى عوارض الحاجز. كانت ترتجف. وبدا لها رأسها فارغاً. فتخيّلت في لحظة ما، أنّها في سريرها تحلم: حلمت بأنّها جالسة على الدرج وأنّها تتذكّر لقاء عاصفاً مع أبيها، فأعطاها ذلك التوهّم شيئاً من الطمأنينة. لم تقاوم النوم، لكنّ الشبكة الرقيقة من النور التي تمرّ من تحت باب غرفتها أبقتها متيقّظة. وتولّد لديها انطباع بأنّ ذلك الخط اللامع، الممدود وسط الظلمة، يمنعها من إغماض أجفانها الثقيلة. وكانت من ناحية أخرى تظنّ أنّها نائمة وتحلم.

وجدت شيئاً من الراحة في تلك الحالة من الخدَر، واستيقظت في نهاية الأمر.

عاد إليها، شيئاً فشيئاً، الإحساس بما قد جرى، لكنّها لم تصدّق ذلك. إذن ما عساها تفعل هنا؟ وفكّرت قائلة: "قد أكون مسَرْنَمة". ضحكت بصوت خافت، وتمسّكت بالعوارض فنهضت. حينئذ لاحظت أنّها ترتدي ثيابها. وأعادها إلى نفسها تماماً صوت وقْع حذائها على الأرض فهرعت إلى غرفتها.

النافذة مغلقة. ورائحة زيت ثقيلة تملأ الحجرة. لا ريب في أنّ وقتاً طويلاً قد مرّ، والمصباح يتّقد. نظرت إلى ساعتها، إنّها تشير إلى الثانية. لقد نامت، لكن ليس في سريرها، لأنّه لم يُمسّ، بل نامت خارجه.

وفيما هي تعيد ساعتها إلى درج الطاولة الصغيرة، ظنّت بغتة أنّها سمعت صوت أبيها. إنّه يصيح مثلما كان يفعل قبل قليل. استدارت فلم ترَ شيئاً. كان في رأسها طنين. وفكّرت قائلة: "كيف يسعه أن يصيح ما دام

نائماً؟" نزعت صدارتها وحلّت شعرها لكنّها لاحظت أنّ أصابعها ترتعش فأخافها ذلك. قالت بصوت عالٍ وحازم: "سأصعد لعند أبي".

حملت السراج بيديها وخرجت من غرفتها، وعيناها تحدّقان بالدرج الصاعد إلى الطابق الثاني. بدا لها أنّ وقتاً طويلاً قد مرّ وأنّها لا تمشي بخط مستقيم. وصلت إلى الدرج وارتقت ثلاث درجات بمشقّة. انطلقت من صدرها زفرة عميقة فتوقّفت. قالت بصوت خافت: "إنّي أسمعه يشخر"، لكنّها تعرف أنّها لم تسمع شيئاً. أمسكت بالدرابزين بيدها اليمنى ورفعت المصباح إلى أعلى من رأسها بقليل، وصعدت خطوة فخطوة مثل طفلة ووصلت إلى سطيحة الطابق الثاني.

تقع غرفة أبيها فوق غرفتها تماماً. والى يسارها غرفة جيرمين. ما كانت تذهب قط إلى غرفة أبيها، الذي لم يكن يقبل، على حدّ قوله، بأن يفتّش أحد غرفته. مشت حتى الباب وأصاخت السمع، ثم وضعت يدها على القبضة فأدارتها بحذر، لكنّ الباب كان مقفلاً بالمفتاح. فاستندت إلى الجدار وانتظرت. كان الذعر يسبغ على قسمات وجهها شيئاً مسرحياً. وفجأة جعلت تتحرّك فمشت بضع خطا إلى أمام، كأنّما على مضض وهي تتمتم: "كلا." وهكذا مضت حتى الدرابزين وانحنت قليلاً فوق قفص الدرج. انسدل شعرها على خدّيها. نظرت فلم ترَ شيئاً. لم يكن سقوط النور صحيحاً. فمدّت ذراعها بالسراج حتى طرفه تقريباً ورأت جسماً في أسفل الدرج. كانت قبضتها ترتعش. هنالك طريقة لا تَخدَع، يكون فيها المرء ممدّداً على الأرض، ساكناً، وهي لا تشبه النوم أو الغشيان في شيء. فالموت لا يمكن تقليده. ميّزت الرأس وسط بقعة معتمة، والذراعين مبسوطتين كيفما اتفق فوق الجمجمة، والساقين منثنيتين. كانت القدمان متوازيتين فوق الدرجة الأخيرة. وسحبت ذراعها فغابت الرؤية.

نزلت مجدّدا وهي تتسنّد إلى الجدار، بمشية متوازنة ترنّ وسط الصمت وبدت وهي تصغي لصوتها الرتيب. لو مرّ شخص ما بجانبها في ذلك الوقت، لما تنبّهت لمروره، لشدّة ما كانت مستغرقة في أفكارها. كانت تضع قدماً أمام أخرى بالحرص الذي يوليه المرء، دونما وعيٍ منه، للحركات الاعتيادية جداً،

حين يستولي على الروح موضوع قاهر فيزدرد الكفاءات كلّها. كانت عيناها فارغتين، لكن هنالك شيء في أعماق تلك النظرة الخالية من التعبير يشبه حدّة المفاجأة فيسبغ غباء هائلاً على باقي المحيّا.

حين رجعت إلى غرفتها وأغلقت الباب وراءها، وضعت السراج على الطاولة ونظرت في الخزانة. كانت العلبة الخشبية نصف مفتوحة فوق كدسة من البياضات، على نحو ما تركها السيد موزيرا، حين قال لابنته، وهو يلقي بالعلبة في الخزانة، إنّها قد اجتزأت بائنتها. عدّت المال، فأعادته إلى مكانه، وأغلقت غطاء العلبة وأدارت المفتاح الصغير الذي ظلّ في القفل. ثم أغلقت الخزانة وشرعت تخلع ملابسها دونما استعجال.

كان الجو حاراً في تلك الغرفة. فتحت النافذة واستنشقت لهنيهة الهواء البارد الذي لامس كتفيها العاريتين ملامسة يدين مجمّدتين. سمعت كلاباً تنبح من ناحية الطريق العام. وبدا اثنان منها كأنّهما يتجاوبان فيحرّض كلّ منهما الآخر بنباحه الأجشّ. القمر يسطع بكل هدوء. والشجرة الفتيّة تتأرجح أغصانها من فوق الجناح وفقاً لمشيئة نسيم بدأ شيئاً فشيئاً بطرد الغيوم من السماء. كان كل شيء هادئاً. فركت كتفيها براحتَيْ يديها وجرت إلى سريرها وهي تشعر بالبرد. إنّ ما تقوم به، وتلك الحركات المألوفة التي تستعيدها، تمنحها بهجة غريزية، وهي بهجة لم تقم بمحاكمتها عقلانياً لكن يسعها أن تفسّرها على النحو التالي: "كل شيء على ما يرام، وليس هنالك من تغيير، ما دمت أنام كالمعتاد، وأفتح النافذة، وأفرك كتفيّ". ونفخت على السراج فأطفأته وغاصت تحت الأغطية.

تثاءبت في الظلمة فأغمضت عينيها، لكنّ دويّا ظلّ يمنعها من النوم. إنّه صوت يبدو تارة قريباً جداً فبعيداً جداً تارة أخرى، وتكفي نأمة خفيفة لجعله يتوقّف. ساورتها فكرة الترنّم، لكنّها توقّفت عند مطلع النغمة لأنّها تعرّفت فيه على لحن المارش المفضّل لدى أبيها. فاستؤنف الطنين. صفقت كفاً بكف. فأخافها ذلك الصوت. فسدّت أذنيها لكنّها سمعت على الفور نوعاً من الخرير الخافت الذي يصدر عن نهر سريع الجريان.

نزعت الغطاء عنها بحركة عنيفة ونهضت. حينئذ تملّكها الرعب. لقد روّعها أن تجد نفسها واقفة. إنْ تكنْ واقفة فهنالك شيء ما. فما عليها أن تفعل؟ أن تجد المصباح فتضيئه لأنّها تشعر بالخوف. وتمتمت: "هذه حماقة، هذه حماقة". ارتخى فكّها الأسفل من غير أن تقوى على إغلاق فمها. عثرت على علبة كبريت. أخذت عوداً وحكّته فانطفأ، ثم ثانياً فتراقص لهبه بسبب النسيم القادم من النافذة. واستطاعت أخيراً أن تضيء السراج.

تنهّدت بعمق. فلا يسعها في الضياء أن تشعر بالخوف. فالمرء لا يخاف حين يستطيع الرؤية. وعليه فسوف تعود إلى الرقاد من غير أن تطفيء المصباح. دقّت ساعة الكنيسة الثالثة. عدّت الدقات بصوت عالٍ ورجعت إلى السرير.

حين أغمضت عينيها، رأت الضوء المحمرّ عبر جلد أجفانها الرقيق. فاتّخذت قرارها بعدم القدرة على النوم، فوضعت يديها فوق الغطاء ولبثت ساكنة، ونظرها موجّه إلى أمامها. عاد الطنين مجدّداً، إلا أنّه لم يضايقها بشيء ما دام المصباح مضاء. عكفت على التفكير بطفولتها، وعلى تذكّر تفاصيل محددة حول ملابس رفيقاتها وأسمائهنّ ووجوههن. بدا لها في صمت الليل أنّ ذلك العالم كلّه قد بُعِثَ من جديد، بأصواته وضحكاته، لكنّها لم تجد متعة في تلك اللعبة: لقد أتعبتها. زِدْ أنّه كان عليها أن تختار ما بين الذكريات التي أرغمتها، إن صحّ القول، على الانبثاق من الماضي. فهنالك بعض الوجوه التي كانت تستبعدها من ذاكرتها. وهي ترغب في الاقتصار على مشاهد مدرسية. فليست راغبة في أن ترى نفسها في شارع تيير، تعود إلى البيت بعد المدرسة، فتغلق الباب المشبّك خلفها، وتسلك الممر فتصعد الدرج حتى غرفتها، هنا، في هذه الدار.

هنالك شيء ما يضيّق على صدرها تضييقاً رهيباً. فمدّت يديها إلى صدرها. كانت بحاجة لاستجماع قوتها كلّها لتسيطر على الرعب المتصاعد فيها. وتذكّرت وسط الكفاح اليائس الذي يخوضه فكرها، كلمة سمعتها تُوَجَّه إلى رفيقة لها في مدرسة سانت - سيسيل: "يبدو أنّ علينا، حين نكون في خطر، أن نقول: يسوع، مريم، يوسف!" لكنّها لم تستطع أن تفتح فمها واكتفت بأن مسحت بشعرها حبات من العرق تلألأت عند صدغيها.

وفتحت فمها على نحو مباغت فأطلقت صرخة. فسمعت الصوت ولاقت عناء في التعرّف فيه على صوتها، إنّها صرخة الخوف القصيرة. وثبت خارج السرير وركضت إلى النافذة علّها ترى مرور أحدهم، أو أن يأتي صوت على الأقل يكون تسلية لها وبرهاناً على وجود أحياء غير بعيدٍ عنها، لكنّ صمت الفجر يرزح بثقله على كافة الدارات المجاورة وحدائقها المقفرة. بدا لها أنّها محاصرة في تلك الزاوية من غرفتها وأنّها لن تقوى على بلوغ سريرها. كان خيالها يتحرّر بنوع من الاهتياج، ويثأر، بشكلٍ من الأشكال، من القهر الذي تعرّضت له. مدّت الفتاة يدها نحو كنبة وضعت فوقها مسحها، وبعد أن تلفّعت بذلك الثوب، قعدت على حافة النافذة. شعرت لهنيهة بنوع من الأمان. ليس عليها سوى أن تنادي، فيُقبِــلون. لكنّها فكّرت في أنّها لا تستطيع البقاء هناك حتى طلوع النهار. فالساعة ليست سوى الرابعة والسماء ما تزال معتمة. وخشيت أن تُصاب بالبرد، فتقع مريضة مثل أختها. ولم تتحمّل من ناحية أخرى فكرة أن تغلق النافذة، وأن تضع بينها وبين العالم تلك الألواح الزجاجية الأربعة التي تكفي لأن تكتم صرخاتها.

استولى عليها الطنين مجدداً. أصغت إلى ذلك النوع من الاندفاع والانحسار داخل رأسها. تولّد لديها انطباع لبعض الوقت بأنّ ذلك قادم من الخارج، أو من زاوية أخرى من الغرفة وأنّه يتعاظم. فيخفت ذلك الضجيج أحياناً حتى لا تكاد تتبيّنه، ويشتدّ على نحو لا يُفسَّر، ليصير هديراً ضخماً ومتواصلاً. شعرت بأنّها مصابة بالحمّى وأنها قد تقع في الهذيان. فما عساها تفعل؟ من يحول بينها، على سبيل المثال، وبين أن ترمي بنفسها من النافذة؟ حاقت بها آلاف المخاوف. فالسراج يوشك أن ينطفىء ولسوف تجد نفسها وحيدة في الظلمة، إنّها على وشك أن تصاب بالبرد فتصاب من بعد بالتهاب رئوي. وقامت بغتة بوثبة نحو الطاولة فأمسكت بالسراج ليكون قريباً منها، لأنّ ذلك الضوء وتلك الحرارة يطمئنانها، زِدْ أنّ ذلك السراج سلاح. فهي تستطيع أن تقذف به على رأسٍ معتدٍ. على رأس من؟ استدارت نحو باب غرفتها وأسفت لأنّها لم تغلقه بالمفتاح. أما الآن فقد فات الأوان. فهي لن تقوى أبداً على قطع المسافة التي تفصلها عنه. وفترت قوّتها. ورأت نفسها بنوع من الازدواجية، بملابس رقيقة جداً، مستندة إلى حاجب النافذة، حاملة

بيدها السراج. فما تفعل على ذلك النحو؟ وماذا تنتظر؟ وفجأة اجتاحها هلع لايوصف. فليس الحال كما كان قبل قليل، أي الرهبة من شيء ما يجول من حولها، والإحساس بأنّ هنالك من يترصّدها، بل هو فزع بشع من نفسها، من أدنى حركاتها، من ظلّها وحتى من أفكارها حيث اعتقدت أنّها تميّز أعراض الجنون. وانطلقت من صدرها صرخة، على الرغم منها تقريباً، تبعتها صرخة أخرى. وأراحها ذلك. فصرخت: "النجدة!" أذهلها ذلك الصوت الذي انطلق منها. ودُهِشت للسهولة التي كانت تصرخ بها، فتناقص تدريجياً قلقها النفسي.

نبحت كلاب هنا وهناك، في البيوت المجاورة. فسكتت هنيهة مغتبطة بذلك الصّخب الذي تسببت في إثارته، ثم استأنفت تصرخ بصوت أكثر ثقة وحدّة. وحين لم يستجب أحد استجمعت قواها كلّها ونادت قائلة: "يا مدام لوغرا!"

مرّ وقت طويل من غير أن تسمع شيئاً سوى نباح الكلاب الغضبى وصوت السلاسل التي كانت تشدّها بلا طائل، تلك الحيوانات المهتاجة. لكنّها الآن في حال أفضل. استعادت قواها، فوضعت السراج على الطاولة، وعبرت الغرفة بخطى كبيرة ، فذهبت لتدير المفتاح في القفل.

جلست على حافة سريرها فنظرت إلى السماء وقد بدأ لونها يحول. وبدت النجوم وهي تتقهقر وتضمحلّ. لبثت ساكنة وقتاً طويلاً، ثم عرتها رعشة، وتثاءبت. تهاوت على وسادتها، من غير أن تدري تقريبا، فجذبت الغطاء فوقها ونامت متكوّرة في سريرها.

* * *

-١٦-

أفاقت بعد ذلك بثلاث ساعات على صخب أصوات تتصاعد من الطابق الأرضي. تذكّرت من فورها كل ما جرى بالأمس فجلست. أصاخت السمع قليلا، فتعرّفت على صوت ديزيريه التي كانت تتحدّث إلى أحدهم، لكنّها لم تستطع أن تفهم ما كانت تقول. شرع قلبها يخفق. نهضت فأدارت المفتاح لفتح الباب، ومضت فأغلقت النافذة وانتظرت. كانت ديزيريه في الأسفل تواصل الكلام، وتقطع كلامها بالصراخ. سمعتها أدريين فجأة وهي تناديها لكنّها لم تجب، ولبثت وسط الغرفة لا تؤاتي بحركة. فكّرت للمرّة الأولى بالشرطة والتحقيق. فكيف سيكون موقفها؟ وما ستقول؟ وهل سيصدّقونها إن تكلّمت عن حادث؟ وهل سمعها من أحد تصرخ في الليل؟ إلا أنّ قلقها الراهن ليس بشيء إذا ما قورن بأشكال الرعب التي تناوبتها. فهي أكثر ثقة بنفسها في وضح النهار. وفكّرت قائلة: "ليس من أدلّة".

في اللحظة نفسها نادتها ديزيريه من جديد. أجابت بصوت ضعيف: "نعم"، وفتحت الباب قليلا. كانت الخادمة تصرخ عند أسفل الدرج:

- وقعت مصيبة، يا آنسة.

فسالت أدريين بصوت مباغت:

- ما الذي حصل؟

- سيدي سقط على الدرج.

فصرخت الفتاة: "سيدك، وأين هو؟"

لم تُجِب ديزيريه على الفور، وقالت أخيراً:

- وا أسفاه، يا آنسة.

مرّت فترة من الصمت. ثم استقامت أدريين لمواجهة الانفعال الرهيب الذي اجتاحها، وعبرت الممرّ لتأتي فتستند إلى الدرابزين من غير أن تقوى على النظر إلى الأسفل. سمعت الشخصية التي كانت ديزيريه تتحدّث اليها قبل قليل وهي تنتحب من الرّوع، إنّها امرأة عجوز تذهب فتبيع أعشابها في السوق، وقد دخلت إلى الدارة من بعد ديزيريه بقليل، لكي تعرض بضاعتها. وعيل صبر أدريين. قالت بخشونة:

- هيا، ما الذي حصل؟

أرغمها فضول مباغت ووحشي على النظر إلى أسفل. عندئذٍ تعرّفت على ما قد رأت قبل بضع ساعات على ضوء السراج. كان الجسد يرتسم بكل وضوح فوق الأرضية بألوانها الباهتة. أما البقعة السوداء المحيطة بالرأس فبدت لها أصغر. نظرت إليها مطوّلاً من غير أن تعتقد أنّ الأمر متعلّق بأبيها. اعتقدت ذلك لبعض الوقت، في الليلة الفائتة، حين كانت تجيل سراجها في الفراغ، وهي منحنية فوق الدرابزين في الطابق الثاني، إلى أن نجحت في إسقاط الأشعة على بلاط البهو. أما الآن وقد توارى ذلك الصمت المرعب لمنتصف الليل، ذلك الظلام الدامس الذي كان يغمر المنزل كله بالهول، فلم تعد تستوعب شيئاً. فالمسألة كأنّما قد استبدلوا دمية محشوّة بالنخالة، بالجسم الذي شاهدته في البداية. شعرت بنظرات المرأتين اللتين كانتا ترصدان الانفعال على وجهها الذي أضحى شاحبا. وتمتمت:

- كيف وقع ذلك؟

فسألتها ديزيريه، وهي امرأة قصيرة القامة، سمراء البشرة، ترتدي صداراً وتنورة رمادية:

- ألم تسمع الآنسة شيئاً؟

هزّت أدريين رأسها وتركت الدرابزين لتتوجّه مترنّحة إلى غرفتها.

وخطرت فكرة ببالها، فأوعزت قائلة:

- استدعوا مدام لوغرا.

وعادت إلى غرفتها فأغلقت الباب، ثم سمعت ديزيريه والمرأة العجوز تخرجان من المنزل جرياً فتعبران الحديقة.

انقضى ربع ساعة بالتمام. انتظرت، جالسة على السرير، تفكّر في السلوك الذي ينبغي عليها أن تسلك. ما كان يفاجئها هو أنّها لم تكن أكثر تأثّراً. حتى لَيقول المرء إنّ الليلة الفائتة قد استنفدت منها كلّ ما تقوى عليه من الذعر. فليس ما يجري على نحو ما توقّعت. ربما كان عليها أن تبدو أكثر اضطراباً حيال هاتين المرأتين قبل قليل. فصمّمت على التظاهر بألم صامت وأن تلبث حيث هي من غير أن تتحرّك.

أنفتح الباب المشبّك أخيراً ليدخل أربعة أشخاص أو خمسة فيعبروا الحديقة. تراءى لها أنّها تسمع صوت رجل فشعرت بدمها يرتدّ إلى قلبها. فهل هو مفوّض الشرطة؟ نسيت قراراتها فنهضت بغتة لكنّها لم تجرؤ على النظر من النافذة. عكست لها مرآة خزانتها صورة امرأة بعينين محاطتين بهالتين وخدّين شاحبين وشعر محلول يخفق بحرية فوق مسحها الأحمر. كانت يداها باردتين.

سمعت في اللحظة نفسها وقع خطا وأصواتاً في البهو كانت تخشاها. وارتفعت صرخات. ميّزت صيحات التعجّب التي كانت تصدر عن مدام لوغرا فصدمها الطابع السوقي لذلك الصوت القوي قليلا. وقد يكون ذلك ما حسبته صوت رجل. كانت أول حركة تصدر عنها قيامها بتدوير المفتاح في القفل، لكنّها فكّرت في ما تنمّ عليه تلك الحركة من طيش، فأدارت المفتاح على نحو معاكس، وفتحت الباب.

هتفت مدام لوغرا عند أسفل الدرج: "يا بنيّتي المسكينة، أنت هناك؟ لاتنزلي، أنا صاعدة لأراك".

وتوجّهت إلى الأشخاص المحيطين بها فأعطتهم أمراً بلبل عقل الفتاة.

"اذهبوا فأتوا بالدكتور من أجل السماح".

الدكتور موركور! ما خطر ذلك الاحتمال ببال أدريين قط. سوف ترى ذاك أخيراً، ولسوف تراه في بيتها. لا ريب في أنّها ستكون ملزمة بالتحدث إليه. وعلى ذلك فمشاريعها يوم أمس سوف تتحقق. اجتاح قلبها فرح شَرِس.

يبدو أنّ الأمور تُسوّى على الرغم منها. وتراءى لها أنّها ستكون مرتاحة في التحدّث إليه لا سيّما أنّه سينسب اضطرابها إلى الحدث الذي جاء به إلى دارة الزان. ووجدت نفسها تتمتم وهي في غمرة تشوّشها:" شرطَ أن يتحدّث اليه والدي بأسلوب مهذّب!" وسكتت وقد أذهلتها الكلمات التي تفوّهت بها.

بعد هنيهة كانت مدام لوغرا إلى جانبها. لقد ارتدت ثيابها على عجل فلبست معطف سفر بني اللون وواسعاً، وضعته فوق مبذلها الذي كانت ذيوله ظاهرة. وكانت غلالة سوداء تنسدل من قبعتها فتخفي وجهها.

قالت وهي تغلق الباب وراءها:" إنّه لأمر رهيب، فكيف حدث؟"

نهزت أدريين بكتفيها ونكّست رأسها.

استأنفت مدام لوغرا تقول:" يا بنيّتي المسكينة، ها أنت وحيدة".

قعدت إلى جانبها على السرير وأمسكت بيدها.

"لا تنسَيْ أنّي هنا، أليس كذلك؟"

انقضت دقيقة. لم تحوّل مدام لوغرا عينيها عن الفتاة.

ثم كررت القول: "يا بنيّتي المسكينة".

واستأنفت تقول كأنّما كانت تكلّم نفسها:

"ذلك السيد المسكين! لقد أراد الهبوط في الظلمة. إنّه تهوّرٌ لمن في مثل سنّه. ومع ذلك فهنالك الدرابزين. ألم تفكّري في إضاءة الدرب له؟

قالت أدريين باقتضاب:

- لم أسمعه وهو نازل.

فعقبت مدام لوغرا وهي تتنهّد:

- كنتِ مستغرقةً في نوم عميق.

تمنّت أدريين لو تنصرف تلك المرأة وندمت على أنّها استدعتها. فهي لم تحب الطريقة التي تلحّ بها مدام لوغرا على ظروف الحادث.

وواصلت هذه تقول: "لقد مات إذن من غير أن يطلق صرخة. سيكون هنالك دون شك تحقيق تقوم به الشرطة".

ارتجفلت أدريين.

فسألتها مدام لوغرا:

- وهل يضايقك ذلك؟ إنّها مجرّد إجراءات، يا ابنتي.

في تلك اللحظة دقّ أحدهم الباب.

قالت مدام لوغرا من غير أن ترخي يد الفتاة: "أدخل!"

إنّها ديزيريه.

قالت بهدوء: "سوف يأتي الطبيب في غضون عشر دقائق". ثم أضافت: "يبدو أنّ هنالك من سمع صراخاً في الليل..."

فقاطعتها مدام لوغرا قائلة بحدّة:" كنتُ سمعت ذلك بالتأكيد. فأنا أنام نوماً متقطّعاً، وهمسة توقظني".

وأشارت بيدها للخادمة كي تنصرف، لكنّ هذه لم تكن على ما يبدو مزمعة على الانصراف. فسألت:

"أليست الآنسة بحاجة لشيء؟"

هزّت أدريين رأسها. وأدارت ديزيريه رأسها في ما حولها. وفجأة تعلّق نظرها بالسراج. كانت أدريين تتابع نظرتها تلك فارتجفت. كان الزيت كلّه قد استُهلِك.

قالت ديزيريه بصوت خافت:

"عجباً، سراج الآنسة فارغ، مع أنني ملأته بالزيت في الأول من أمس؟"

ومرّت مسرعة أمام أدريين ومدام لوغرا لتمسك بالسراج فتتفحّصه بشكل لافت للنظر. وخرجت على الفور تقريباً وهي تمشي على رؤوس أصابعها، كأنما من غرفة مريض.

ضغطت مدام لوغرا على يد الفتاة، وسألتها:

"ما رأيك بهذه المرأة؟"

تحوّلت أدريين نحو مدام لوغرا بنظرة مذعورة.

وسألتها بصوت اختنق في حلقها: "لماذا؟" فقالت مدام لوغرا:

- بدا لي أنّها تكلّمك بطريقة عجيبة. وأقسم على أنّ لديها بعض الظنون. فما الخارق في أن يكون هذا السراج فارغاً؟

رفعت الغلالة من حول القبعة وركّزت نظرها على عيني أدريين. "لقد أمضيتِ الليل بطوله ساهرة، ذلك هو الأمر كلّه. أليس كذلك؟ وهذا مثل الصرخات التي يتكلّمون عنها. فـلْنُسَلّمْ بأنّك صرخت في أحلامك، وأنّك استغثت طالبة النجدة".

لم تتحرّك أدريين. لم تجرؤ على التفوّه بكلمة ولا على الإتيان بحركة، مثلها مثل تلك الحيوانات التي تقع في الشرك فتلبث ساكنة لبعض الوقت قبل أن تبدأ تتخبّط حتى الموت. أحسّت بأصابع مدام لوغرا تغوص بإلحاح بين أصابعها، كأنما تريد الإمساك بها أكثر.

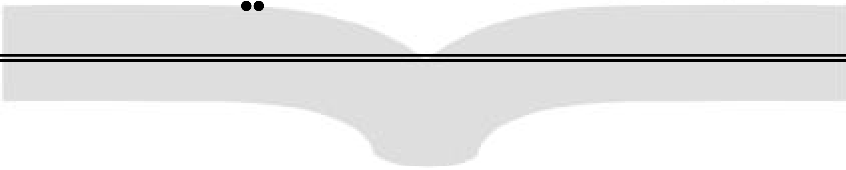
قالت بهدوء: "يا حبيبتي أدريين، هل تريدين أن أرى الدكتور ومفوّض الشرطة؟"

بدا للفتاة أنّ الغرفة أظلمت. وهوت، من غير أن تجيب، على صدر تلك المرأة التي تكرهها والتي بدأت تمسح على شعرها بحركة رقيقة وهي تدمدم بكلمات لم تسمعها أدريين.

* * *




القسم الثاني




الهيئة العامة
السورية للكتاب

-١-

"تلاحظين أنّ الأمور سارت كلّها على خير ما يرام، إذا ما جاز القول. فلِمَ وضعوا تلك العراقيل كلّها في وجه دفنه، ذلك الرجل المسكين؟ أما هذا الدكتور موركور فهو خال من العيوب. وهو يبدو غاية في الكياسة. ينبغي عليك أن تتعرّفي به، وأن تقابلي أناس المجتمع أكثر، فلا تظلّين وحيدة مثلما هي حالك الآن. إنّه لأمر سيّيء جداً. أتعلمين ما تسبّب لي بصدمة بسيطة، صدمة ضئيلة جداً؟ أتسمحين لي بأن أقولها لك؟ ذلك هو عدم الذهاب إلى الكنيسة.

إيه! ستقولين لي إنّ لكل امرىء أن يفكّر حسبما يشاء، لكن يبدو لي أنّ شيئاً ضئيلاً من الطقوس ما كان سيتسبّب بأي ضير. أنا من ناحيتي مؤمنة. لكن لا تحسبيني مهووسة أو متصوّفة، لقد تربّيت فقط وفقاً للمبادىء التي كانت سائدة قبل ثلاثين عاماً. أنا بورجوازية، أذهب إلى القداس. ألم يكن أبوك المسكين مؤمناً؟"

تلك كانت مدام لوغرا، إنّها ترتدي ثوباً ليلكيّاً وتعتمر قبّعة كبيرة من القش، وهي جالسة تطرّز منديلاً تحت شجرة في حديقتها. فترفع عينيها بين وقت وآخر، لتطلق من تحت حافة قبعتها، نظرة باتجاه أدريين الجالسة إلى جانبها وهي تصغي إليها. كانت الفتاة في حالة حداد. وقد هزّت رأسها.

قالت: "كلا".

لم يرقها ما كانت تهرف به مدام لوغرا. وحسبت أنّها تميّز في بعض العبارات نيّة غادرة تدفع بها إلى إعمال فكرها، لكنّها لا تمتنع مع ذلك عن الإصغاء إلى أقوالٍ بلا طائل تهذر بها تلك المرأة. فمنذ دَفــْنِ والدها وهي

تخرج لرؤيتها فتمكث عندها حتى يحين موعد الطعام. أما بعد الظهر فلا يندر أن تقوما بجولة، مشياً على الأقدام أو في عربة. لقد تناولتا العشاء معاً مرة أو مرّتين. ولا يعني ذلك تغيّراً من جانب أدريين حيالها. بل إنّها، بخلاف ذلك، تزدريها أكثر من أي وقت مضى، لكن قد يصحّ القول إنّ شيئاً ما يربطها إلى مدام لوغرا من غير أن تقوى على التحرّر من تلك الرِّفقة البغيضة. كانت على ثقة من أنّ مدام لوغرا قد نفذت إلى أعماق الغموض الذي يكتنف موت أبيها. فكان من شأن ذلك أيضاً أن يبعدها عن شخصية خطرة مثلها، لكنّ أدريين كانت تشعر، حين لا تكون معها، بأنّها نهبٌ لقلقٍ لا تقوم بتفسيره.

كانت تشتاق إلى لغو جارتها. عليها أن تسمع ذلك الصوت الثرثار والمتطفّل الذي يذكّرها دونما انقطاع بنهاية السيد موزيرا المأساوية. فتشعر حينئذ باشمئزاز مؤلم وبنوع من الفرَج في آنٍ معا. تتشابك يداها حول ركبتيها، وهي تصغي، من غير أن تنبس ببنت شفة، إلى تلك الأفكار المبتذلة التي تشوبها فرضيات تجعلها ترتعد. ويرد أحياناً اسم موركور في تلك الحوارات الذاتية فيولّد في نفس الفتاة الانطباع بأنّ طعنة قد وُجّهت إليها، فتجهد لإخفاء انفعالاتها تحت صفحة وجهٍ لامبالٍ فلا تردّ إلا بإيجاز شديد على أسئلة مدام لوغرا.

وتستأنف هذه القول وهي تعكف على تطريز أوراق صغيرة في زاوية منديلها:

- لقد جعلتِني أفهم أنّه كان يمنعك من الخروج. يا له من رجل مسكين! كان ذا مظهر لطيف جداً وخجول جدا. ألم تقولي لي إنّه كان خجولا؟

- بلى.

فتضيف مدام لوغرا:" ها أنتِ قد صرت حرّة. فكيف ستمضين وقتك؟"

نهزت أدريين بكتفيها تعبيراً عن أنّها لا تدري.

فاستأنفت مدام لوغرا تقول:

- عليك أن تنسيْ قليلا. وأيمَ الحق، حين يكون المرء فتياً مثلك، فالحياة كلّها أمامه. ألم تندهشي وقد عرفتِ أنك على تلك الدرجة من الغنى حين قرأ موثّق العقود وصيّة أبيك؟

فقالت أدريين:

- لست غنيّة على قدر ما تظنين.

- هيا بنا! إنّك قد حُزت على ثروته كلها.

- أنا أتقاسم الثروة، بادىء الأمر، مع شقيقتي، ومن ثمّ لن أنال حصتي إلا بعد بلوغي سن الرشد.

تنهّدت مدام لوغرا بعمق. لم تكن تجهل أنّ أدريين في أسوأ حال.

قالت: "عسى أن يحمي الله لك أختك".

لاذتا بالصمت لبعض الوقت. كان النهار متألّقاً والحديقة تفوح عطرا. كانت وفرة من الليلك تنثر في الهواء الساكن أريجها الثقيل والحزين. أما الكلب الصغير الأصفر فيجري فوق مستديرة المرج الكبيرة التي تفصل ما بين المرأتين والمنزل، وبطنه يلامس العشب، مطارداً الفراشات بنباحه الحاد. وتزقزق طيور متجاوبة في أشجار الزيزفون.

قالت مدام لوغرا وهي تنزع الكشتبان من إصبعها:

- كفى. حسبي هذا اليوم.

وصرّت المقص والكشتبان والخيط في المنديل. كانت أدريين تعرف هذا النوع من الإشارة، التي تحيطها علماً كل يوم، بأنّ مدام لوغرا نالت كفايتها من رفقتها. فكان تشعر بامتهانٍ يجعلها تُقسم بعدم الرجوع أبداً أو الانصراف قبل ذلك بنصف ساعة، على الرغم من علمها بعدم قدرتها على ذلك. فأخرجت ساعتها وتصنّعت الاندهاش.

قالت متعجّبة: "الحادية عشرة وثلاثة أرباع!"

فردّت مدام لوغرا كالعادة: "آه! ليس القصد أن تتصرفي".

أجابت أدريين: "حان موعد غدائي".

فقالت مدام لوغرا مبتسمة: "لا بأس..."

ونهضتا فتبادلتا التحيّة.

وفيما أدريين تعبر الحديقة، هتفت بها مدام لوغرا قائلة: "عودي قريبا".

كانت أدريين، وهي في بيتها، تمكث مكوثاً شبه دائم في الصالون فتشغل وقتها ريثما يُقدَّم لها الطعام. وغالباً ما كانت تضع مريلتها فوق تنورتها من الصرج الأسود، مثلما كانت تفعل فيما مضى، وتمسح أماكن من الأثاث كانت تثق بأنّ ممسحة ديزيريه لا تمرّ فوقها البتة. كذلك كانت تتسلى بإخراج الكتب من على رفوفها، فتمسح الغبار عن كل كدسة بفرشاة للملابس، ثم تعيدها إلى أمكنتها في المكتبة ملتزمة بتنسيقها وفق حجمها. ولم يخطر ببالها قط أن تقرأ واحداً منها. أمّا وهي تشبه العديد من النساء اللواتي كانت طفولتهنّ كئيبة، فلا يحتفظن من مدارسهنّ إلا بذكريات سيئة، فكانت تعاف مباشرةَ قراءةٍ طويلة كأنما الأمر يتعلّق بسخرة مقيتة أو بواجب.

كم كان نادراً أن تتوجّه إلى غرفتها، إلا للرقاد. فهي تشعر بعزلة أقل، حين تكون في حجرات الطابق الأرضي، في الأسفل، لأنّ قاعة الطعام تتصل بالمطبخ عبر ممر. فهي تتوجّس خيفة من العزلة. وحين سمعت ذات يوم نباح الكلب الصغير بيرام، راودتها فكرة شراء كلب. لكنّها لم تكن تحب تلك الحيوانات، كما أنّ القطط كانت تبدو لها حِكراً على الفتيات العوانس، فلم تشأ اقتناءها.

وهي تشعر بأنّ مدام لوغرا، لو عرضت عليها أن تأتي لتستقرّ في دارة لويزا، لقبلت عن طيب خاطر، على الرغم مما في مرافقة تلك المرأة من مشقّة. وأدركت ذات يوم بشيء من إعمال الفكر، أنّ مدام لوغرا ليست فقط شخصية يمكن أن تتحدّث إليها وتروّح عن نفسها، بل هي الكائن الوحيد في العالم الذي ترغب في صحبته.

لم تعد تتصوّر أن يدور أبسط حديث بينها وبين الدكتور، مهما بدا الأمر عجيبا. بل جهدت كيلا تشتط في التفكير فيه، خوفاً من الإفراط في الحزن الذي سيرتد عليها. حتى أنّ مجرّد الفكرة في أنّه قد جاء إلى البيت بدت لها غريبة وشبه رهيبة. وبدلاً من أن تقرّبها تلك الذكرى منه، كانت تبعدها عنه. فهي لم تجرؤ على أن تراه حين جاء، ولم تتوصّل لأن تصدّق أنّه مكث فترة في الصالون حيث هي تجلس. كان ذلك يسبب لها صدمة تشبه انتهاك المقدّسات، وكأنّ المنزل لم يكن جديراً بتلك الزيارة أو بذلك الفضل. ولم تعد تقريباً تنظر من النافذة، إنّها أبعد ما تكون عن الإحساس بحرية التصرّف وفق مشيئتها، بل كان لديها انطباع بأنّ شيئاً لا يعوّض قد جرى، فلا طائل الآن وراء النظر ناحية الجناح الأبيض والاسترسال وراء أحلامها. وإذا ما رضخت للإغراء الذي يدفع بها نحو النافذة، فألقت نظرة شاملة على ذلك المنزل ذي السطح الأزرق الذي تعلوه شجرة ترتجف، فإنّها تندم على ذلك ندامة شديدة حتى لا يبقى هنالك من تناسب بين ما نالت من متعة وبين الألم الذي صار ينجم في العادة.

لكنّ الأمر الذي يهمّها يتمثّل في سماعها مدام لوغرا تتكلّم. فتقول في نفسها: "إنّها في نهاية الأمر امرأة طيبة"، وكأنّها تعتذر بسبب حاجتها المتواصلة لسماع الحوارات البلهاء والماكرة من جارتها، لكنّها لا تصدّق منها شيئاً. كانت تخاف مدام لوغرا وتخشى ابتسامتها وطريقتها في إطالة المصافحة، وخصوصاً صوتها الثرثار الذي ينطق بالكثير من الأشياء العجيبة. ولطالما كانت أدريين على وشك أن يزلّ لسانها وهي تسمعها تتكلّم عن أبيها. لكنّ ما يرهبها أكثر إنّما هي النغمة المسالمة والرصينة التي تعتمدها السيدة السمينة للتعبير عن أشدّ الآراء إثارة للقلق. تقول مدام لوغرا من غير أن ترفع رأسها: "أصدقك القول أنّه لو قيل لي إنّ أباك المسكين قد مات مقتولاً، ما استولت عليّ الدهشة." فلا تردّ أدريين، لكنّ رؤوس أصابعها المتشابكة على ركبتيها تصير باردة متجمّدة. وتستبدّ بها الرّغبة في النهوض بغتة، لتهرع إلى المحطة فتركب القطار كما فعلت جيرمين وتولّي هاربة. لكنّها تلبث ساكنة على كرسيّها، شاخصة بنظرها إلى يديّ مدام لوغرا

الماهرتين وهما تطرّزان غصن وردة في زاوية منديل. وما من شيء يسعه أن يجعل الفتاة تتصرف قبل الحادية عشرة والنصف. فينبغي أن تنتظر اللحظة التي تقوم فيها مدام لوغرا بطيّ عملها، لتعمد هي إلى سحب ساعتها من صدارتها بمظهر من الدهشة. حينئذ تمضي بحسرة يتعذّر تفسيرها، يغمرها القنوط لتفكيرها في أنّها ستجد نفسها مجدداً وحيدة في دارة الزان، التي صارت تمقتها أكثر مما مضى أيضاً. ويبلغ بها الأمر حدّ سدّ أذنيها، حين تدخل الحديقة، فتصفق الباب المشبّك وراءها بأقصى قوة. فلا يسعها احتمال تلك الضجة التي تعرفها حق المعرفة والتي تذكّرها بأشياء كثيرة.

ذات يوم، لم ترجع إلى البيت من فورها، بل خططت لمشروع الذهاب والغداء في المدينة. لكن حال دونه الخوف من أن يُعرَف الأمر فيبدو مستهجناً. فما ستقول ديزيريه إن لم ترجع إلى البيت؟ كانت واثقة من أنّها لاتشتبه بها، على الرغم مما ظنّت مدام لوغرا في بداية الأمر، لكنّها كانت مصممة على أن تعمل ما وسعها كي لا تقدّم أدنى ذريعة للتقوّل عليها. وهذا السبب عينه يحول دون خروجها ليلا. فقد تلتقي بأحدهم. والأفضل أن تمكث في البيت. فتجلس على مقربة من مصباح في الصالون الكبير وتشرع في تقليب ألبومات صور. فتصغي وهي مستندة إلى المنضدة، إلى أصوات جلي الأواني التي تصلها من المطبخ فيما تقلّب الصفحات بشرود. لكن ما إنْ تسمع ديزيريه تغادر طرف المسكن وتسلك الممر لتتصرف، حتى تشعر بأنّها متعكّرة المزاج. فترقب ضجة الباب الذي ينفتح ووقع الخطا التي تمضي متباعدة في الممر، وأخيراً الصوت المقيت للباب المشبك الذي لا ينغلق إلا صفقاً. فيتراءى لها من بعد أنّ الصمت يتعاظم من حولها مثل الظلّ، وتحسّ في أعماق ذلك الظلّ بهمهمة ناجمة عن حشد من الأصوات. حينئذٍ يغدو شاقاً عليها تقليب صفحات الألبوم، حتى أنّ صوت تنفسها هي يزعجها. ويكاد الأمر يصل بها ، بموجب تحوّل عجيب في ذاكرتها، حدّ التحسّر على زمن كان فيه شخصان اثنان يجلسان إلى تلك المائدة نفسها فيرغمانها على لعب الورق.

* * *

-٢-

مضت على وفاة السيد موزيرا ثلاثة أسابيع. لم تحضر جيرمين، التي أحيطت علماً بالموضوع سريعاً، من أجل الدفن، فتعللت بحالتها الصحية الحرجة. إلا أنّها حرصت على استحضار نسخة ثانية من الوصية الأبوية وبعثت إلى لاتور ديفيك بموثّق عقود من سان بليز تكون مهمّته السهر على مصالحها.

تبيّن من قراءة الوصية أنّ لثروة السيد موزيرا الصغيرة أن توزّع مناصفة على ابنتيه. لكن لم يُستشفّ منها أنّ المرحوم توقّع أن يموت قبل بلوغ ابنته الثانية سنّ الرشد، فلا بدّ من تعيين وصيّ.

يتمثّل أقرباء السيد موزيرا الوحيدون، في فتاة عانس تقيم في رين ورجل عازب يقيم في باريس. وقامت منذ سنين عديدة، قطيعة بينهما وبين ابن عمّهما أنطوان. وكانا يعلمان حقّ العلم بأن لا أمل لهما في انتظار فلس واحد يأتيهما عن طريقه. وجرى، بلا طائل، توجيه دعوات إليهما: لن يرهق أيٌّ منهما نفسه من أجل لاشيء. حينئذ عمد قاضي الصلح في لاتور ديفيك، في ظلّ غياب مجلس عائلي، ورفْضِ أقرباء أدريين أن يهتمّوا بها، إلى تسمية الأستاذ بيرو، الكاتب بالعدل في لاتور ديفيك، وصياً على أدريين لحين بلوغها سن الرشد. إلا أنّ جيرمين موزيرا، كانت تتمتّع بحقّ عضوية المجلس، ويسعها أن تقترح على الأستاذ بيرو إدخال هذا التعديل أو ذاك على إدارة ثروة أدريين. فجرى الاتفاق على أن تستلم أدريين شهرياً مبلغاً قام الكاتب بالعدل وجيرمين بتحديده، ومن المسلّم به أن يُقتطع من حصّتها من الميراث. أما جيرمين، الراشدة، فيسعها قبض مالها كما يروقها. وقد جرت تسوية ذلك كله في غضون ثلاثة أسابيع.

آلَ الأمر بأدريين، مع الزمن، إلى التعوّد على الظروف الجديدة لحياتها، وعلى وحدتها، بل على تلك الكآبة التي ما عادت تفارقها. بدا لها أن معاناتها قد قلّت. فلم تعد تساورها حين تستيقظ، كما بالأمس، تلك المفاجأة الموجعة حين تفكّر في أنّ النهار الطالع لن يأتها بشيء. وخلافاً لذلك فإنّ هذا اليقين يبدو لها أمراً طيباً، لأنّها تشعر بأنّها في مأمن إلى حدٍ ما من مصيبة تحلّ بها، لأنّها تعرف أنّها في حماية من الأمل. فماذا يمكن أن يحلّ بها في الواقع من شيء قادر على ترويعها؟ ألم تستنفد مصادر اكتئابها؟ ولو توفي موركور، على سبيل المثال، فما التغيير الذي سيطرأ جرّاء ذلك على حياة الفتاة، ما دامت لم تعد تتمسّك بأيّ وهم يمسّ تلك الناحية؟

أما وهي تنتظر الساعة التي يسعها فيها الخروج بصحبة مدام لوغرا أو الذهاب لتراها جالسة تخيط في حديقتها، فإنها تَجهَد لتُشغل نفسها إلى أقصى حد ممكن، وتقوم بتنفيذ مشاريع كانت تطمح إلى تنفيذها منذ زمن طويل. ويتعلّق الأمر بتعديل تنظيم حجرات المنزل كلها. بل باشرت بإزاحة أثاث الصالون، فقضت على التناظر الذي كان قائماً في توزيع الكنبات، فألصقتها بالجدران بدلاً من تركها على شكل دائري وسط السجادة، مما أدى إلى إخلاء وسط الحجرة بعض الشيء وجعلها تبدو أكثر اتساعاً. كذلك قامت بتغيير أمكنة العديد من اللوحات. أما الكنبة التي كانت ترقد عليها جيرمين فقد أُزيحت إلى زاوية تقع بين بابين، ونزعت عنها جلد الفهد لتغطيها بوشاح من صنع بروتانيا. كانت تلك التحويلات الصغيرة تُجري من التغيير في مظهر الحجرة ما يجعل أدريين تزعم أنّها لَتُنكِر نفسها فيها وتتبسّم لإنجازها.

راودتها ذات صباح فكرة الصعود إلى الطابق الثالث لتتفحّص غرفة جيرمين. لقد حال شيء ما بينها وبين القيام بذلك أبكر. هنالك أولاً الهلع الغامض من احتمال إصابة بالعدوى. فقد تلقّت ديزيريه أمراً بتنظيف تلك الغرفة تنظيفاً جيداً وبتهويتها يومياً، وجرى منذ زمن طويل توزيع كل ما بقي في خزانة جيرمين على الفقراء. لكن بدا للفتاة أنّها كلما انتظرت كان ذلك

أفضل. أليس أمامها عمرٌ بحاله للصعود إلى فوق؟ أما وأنّها لم تعد راغبة في التفكير بالدكتور، فليس من طائل على الأقل وراء الجلوس عند النافذة الوحيدة التي قد يحالفها الحظ في رؤيته منها. لكنّها تشعر هذا الصباح بأنّها أقوى مما هي عليه في العادة، وتكاد تكون لامبالية. قالت في نفسها بفرح زائف: "ربما صرت أحبّه أقلّ". واغتبطت كمن حقق نصراً وفكّرت كم ستكون سعيدة إذا ما توصّلت إلى التحرّر تماماً من ذلك العشق.

وصعدت. ارتجفت يدها قليلاً وهي تفتح باب تلك الغرفة واستبقاها عند العتبة شعور يتعذّر تحديده. كانت آخر مرة رأت فيها شقيقتها يوم استدعتها جيرمين لتقول لها إنّها مقبلة على الموت. يقوم في تلك الغرفة ما هو أكثر من خطر العدوى، ففيها ذكرى فتاة مشرفة على الموت أمضت هنالك سنين طويلة دون هدف. وكان كل شيء، من السرير إلى الكراسي فخزانة الأدوية الصغيرة، يخاطب ذاكرتها خطاباً فصيحاً ومرعباً، فخطر ببالها أنّ تلك الغرفة مصدر شؤم. وظنّت لهنيهة أنّها ستغلق الباب من غير أن تدخل، لكنّ ترددها دام بعض الوقت. كان هنالك شيء ما يدفع بها دفعاً لا يُقاوَم نحو النافذة التي نُزعت عنها ستائرُها. فحبست أنفاسها وعبرت الحجرة مسرعة. وبعد أن فتحت النافذة، عبّت بكل قواها من الهواء الخارجي، وانحنت من فوق الميزاب فنظرت إلى أمام. لمحت من بين زيزفونات دارة لويزا، مدام لوغرا وهي تتجوّل بمحاذاة المساكب، حاملة مقص البستنة بيدها. ومشى وراءها الكلب الصغير وخطمه يلاصق الأرض متشمّماً الحصى. راودت أدريين الرغبة في إطلاق نداء إلى جارتها، لكنّها تحفّظت. ولاحظت السيدةَ السمينة وهي تمشي مطمئنّة من مشتل أزهار إلى مشتل آخر، ووجهها محجوب تحت قبعة من القش.

أدارت أدريين رأسها على نحو مباغت. شدّت بقبضتيها كما في السابق على حافة الميزاب وانحنت بأقصى ما تستطيع إلى أمام لترى الجناح. إنّما هي جاءت بهذا القصد، وقد أدركت ذلك فشعرت بغتة بنشوة تملأ نفسها حيال فكرة تذوّق تلك الغبطة التي حَرمت نفسَها منها طيلة أسابيع. نظرت بنوع من النّهم. كانت الشمس تسطع على السطح الذي يعكس نوراً مشعاً يعمي

الأبصار. رأت ذلك بادىء الأمر، ثم انحدر نظرها بحثاً عن النافذة المفتوحة كعادتها. شعرت أدريين بأنّها عادت شهراً إلى وراء. صدمها تقريباً أن ترى ضآلة التغيير الذي طرأ على الأشياء، كأنّها كانت تتوقّع مشهداً مختلفاً. وتعرّفت من فورها على تلك الكآبة الحالمة التي كانت تستولي عليها قبل شهر في هذا المكان عينه، بل ذلك التباطؤ للحياة في كيانها. كانت قبضتاها تؤلمانها. انحنت أكثر فرأت داخل تلك الحجرة التي طالما أثارت حيرتها وحيث افترضت أن الدكتور قد أقام عيادته. كان شعاع الشمس يضيء السجادة الحمراء وزاوية المكتب.

استقامت فجأة وغطّت فمها بكفّيها. لقد ظهر أحد ما على النافذة. لكنّه ليس الدكتور بالتأكيد. فقد أدركت ذلك في غضون ثانية واحدة. لبثت واقفة هنيهة، وهي تدير ظهرها للجناح وتسند رأسها إلى إطار النافذة. انطلق من صدرها نوع من التأوّه. وتمتمت قائلة: "من هذا؟ من هذا؟" ولم تجرؤ على أن تستدير لترى. تراءى لها أنّ مصير حياتها كلّها يتقرّر في تلك الدقيقة، وأنّها على وشك الاطلاع على أمر جوهري ومريع سوف يتسبّب في سعادتها أو شقائها. كان يخيّم على الشارع صمت عميق. فالطيور قد سكتت. وبدا كل شيء جامداً وصامتاً أبداً كأنّما بفعل نوع من السحر. لم تقوَ في النهاية على الصمود، فانحنت إلى أمام واستندت بيديها المرتعشتين إلى حافة الميزاب. كانت النافذة فارغة.

ارتدت أدريين إلى الوراء بقوة وأطلقت زفرة عميقة. وفكّرت قائلة: "إنّما أنا أخطأت. فلم يكن هنالك من أحد".

وهربت من الغرفة راكضة.

فيما كانت بعد الظهر تستعد للخروج لرؤية مدام لوغرا، سلّمها ساعي البريد رسالة. فتحتها في الشارع وقرأتها. كانت من رئيسة المصحّ الذي تقيم فيه جيرمين، وقد كتبت إليها تقول:

"حضرة الآنسة. نتعاطف بصدق مع الألم العميق الذي تشعرين به ونأمل أن تشملك العناية الإلهية برعايتها في هذه الأيام الصعبة، لقد خشينا، مثلما خشيت أنت دون شك، من أن يُحدِث النبأ الحزين أثراً مزعجاً على الحالة الصحية المعطوبة لشقيقتك، لكن يبدو أنّها عازمة على تحمّل كافة الآلام التي تشكّل نصيبها على هذه الأرض. فلا تقلقي كثيراً بشأنها. وليس من قبيل المجازفة القول إنّها بحال أفضل. فهواء هذه المنطقة..."

تجاوزت أدريين عشرة أسطر لتقرأ في أسفل الرسالة:

"... أضعف من أن تكتب لك بنفسها، فترجوك العمل على تحويل مبلغ خمس مئة فرنك باسمها إلى مصرف سان بليز، وهو تحويل ينبغي أن يتجدّد شهرياً..."

فدعكت الرسالة ورمت بها في الساقية. لم تكتب إلى أختها مرة واحدة، فمدام لوغرا هي التي تولّت إخطار جيرمين بوفاة السيد موزيرا. لم يكن لفكرة إقامة علاقات جديدة مع المريضة إلا أن يكدّر أدريين في واقع الأمر. بل تكدّرها أكثر إمكانية القيام بمسعى لأجلها كل شهر. وليست المسألة أنّها كانت تغبطها على نصيبها من ميراث أبيها، بل كان يضايقها الالتزام بالتفكير بها مرة كل شهر، والتوجّه إلى موثّق العقود، والانتقال إلى مركز البريد والتلفّظ باسمها. نسبت ذلك كلّه إلى الحقد الذي غذّته دائماً على جيرمين، لكنّه شيء أقوى بكثير فلا يسعها استيعابه، لأنّها لا تملك الجرأة على أن تصرّح به لنفسها. لقد احتلّ اثنان من الهموم مكانة راجحة في حياتها: كان عليها أن تفكّر بالدكتور وأن تجهد حتى لا تفكّر به، وهي طريقة أخرى للاهتمام بذلك الرجل، وينبغي أن تسمع مدام لوغرا تحدّثها عن موت أبيها وتتهمها اتهاماً ماكراً بأنّها قد قتلته. كان كلّ ما يشتت ذهنها عن عشقها الذي لا تقاومه وعن ندامات لا تبوح بها، يفوق قدرتها على الاحتمال.

عبرت الشارع وأسِفت لأنّها لم تكن تضع يديها في قفازين لقراءة الرسالة التي يمكن أن تكون المريضة قد قرأتها، وربما لامسها زفيرها.

تساءلت بقسوة: "ما نفع عيشها إذن؟ وما لديها لمَلءِ حياتها؟"

بعد ذلك بهنيهة كانت في حديقة دارة لويزا. كانت مدام لوغرا تهمّ بالخروج. هبطت درجات سلّم المدخل وأقبلت على أدريين وهي تلوّح بعصا زرقاء تحملها بيدها اليسرى، بينما تحمل تحت ذراعها الأيمن رزمة مغلّفة بورق بنّي تشدها إلى جنبها.

فسألتها الفتاة: "ما هذا؟"

قالت مدام لوغرا: "سوف ترين".

ومدّت اليها عصاها كأنّها يدها وجلست تحت زيزفونة.

باشرت مدام لوغرا بحل الرباط المحيط بالرزمة وقالت: "لدي نبأ صغير أزفّه إليك، وآمل أنّه سيزعجك...

- نبأ؟

- إنّي مسافرة..."

وضعت يديها القصيرتين على رزمتها ونظرت إلى الفتاة لتقدّر مدى تأثير كلماتها. فغضّت أدريين من بصرها.

فأضافت مدام لوغرا بضحكة مجلجلة: "... ولسوف أعود بعد ثلاثة أيام". ثم واصلت بلهجة جادة: "زوجي بحاجة إليّ. ليس في الأمر من خطورة، لكنّ شؤونه تستبقيه، ولا يستطيع الحضور إلى هنا أبداً، إذن أنت تفهمين... هل قلتُ لك ما مشاغله؟"

هزّت أدريين رأسها نفياً.

فأعلنت مدام لوغرا قائلة: "الصوف والقطن والحرير. إنّني أقولها دونما خجل، فأنا برجوازية حقيقية. وهاكِ برهاناً إضافياً..."

فكّت الرزمة: كانت تحتوي على قطعة من القماش الأزرق الفاقع. نهضت مدام لوغرا، وفردت بحركة احتفالية قطعة القماش حتى مداها وأبقت

عليها أمامها ممسكة بها بطرف ذراعها: إنّه العلم الفرنسي ثلاثي الألوان وبحجم منشفة كبيرة.

قالت أدريين: "لقد فهمت".

بدا لها ذلك الوجه الأبيض المخضّب فوق العلم هزلياً، وقد لزمها أن تضبط نفسها حتى لا تنفجر بالضحك.

"إنّ زوجي هو الذي أرسل لي هذا من أجل مناسبة الرابع عشر من تموز. كان الآخر باهت الألوان كثيراً. فنزعته عن ساريته التي احتفظت بها". ثم واصلت مدام لوغرا إيضاح المسألة: "إنّه حرير من النوعيّة الأولى. خذي المَسيه".

تلمّست أدريين القماش بإصبعين.

قالت مدام لوغرا وقد عاودت الجلوس: "بعد غدٍ هو الرابع عشر. ينبغي عليّ أن أخيط هذا العلم على ساريته. أتدرين أنّ الأمر يهزّ مشاعري. أجل، أقول لك إنّي قد تربيت وفقاً للمبادىء التي كانت سائدة قبل ثلاثين عاماً. إنّي فرنسية طيبة ومسيحية صالحة. لا أقول ذلك موجّهة الكلام إليك. لكنّني كنت أكلمك عن زوجي. ينبغي أن أجعلك تعرفينه. هل يسعك الإمساك بالسارية، ولسوف أتولى الخياطة. منذ بعض الوقت وأعماله، ليست، لسوء الحظ، على ما يرام. هنالك منافسة رهيبة في الخارج، وفي إنكلترا خصوصاً. ليتك، ياحلوتي، تمسكين بالسارية إمساكاً قوياً. فتنجم عن متاعب لا تحصى، ومن المسلّم به أنّها متاعب مالية. عليك أن تشكري السماء لأنّك في وقاية من المتاعب المالية. لقد نعمتِ بأبٍ صالح فعل كل شيء ليؤمّن لكِ مستقبلاً راغداً".

وعكفت على القماش فبدأت قطبتها. قالت بلهجة استغراق: "كنت أتحدّث عنه في ذلك النهار".

فسألتها الفتاة بعد قليل: "عمّن، يا سيدتي؟"

- عن أبيك، كما ترين. أنت لا تذهبين إلى المدينة أبداً. وأراهن على أنّك لا تدرين ما طبيعة المناطق. عليك أن تكوني باريسية مثلي لتشعري

بذلك. فالناس يتكلّمون ويتكلّمون. أنا من ناحيتي أكتفي بالإصغاء، أما بالأمس فإنّ الآنسة غران... هل تعرفينها؟

قالت أدريين وقد شحب لونها:

- بائعة الخردوات؟

- إنّها هي. قصدتها لأشتري بكرة خيطان من القطن الأزرق لهذا العلم. لبّت الآنسة غران طلبي، فصرّت البكرة في قطعة من الورق، فهل تدرين ما قالت لي؟

- كلا، ياسيدتي.

- أرجوك أن تمسكي بالسارية بكل قوة ، وإلا فسوف أخِز يدي. قالت لي: "أنت تقيمين في مواجهة دارة الزان؟ لآ بدّ أنّك تعرفين الآنسة موزيرا؟ لقد توفي أبوها بطريقة مأساوية. وذلك كلّه ليس طبيعياً". إنّ الآنسة غران هي التي قالت هذا كله، فأنت تدركين ذلك؟

قالت الفتاة: "أجل"، وتنهّدت. فواصلت مدام لوغرا القول من غير أن ترفع عينيها عن عملها:

- ليس لدي، والحق يقال، من رأي أسوقه. لكن في النهاية، وبما أنّك استدعيتني يوم وقوع الكارثة، فيسعني في الواقع أن أقول لك أنت، حقيقة رأيي، مع احتمال أن أسكت عن ذلك أمام الآخرين. الحق أنّي أجد ذلك عجيباً. وغالباً ما أتفكّر في الأمر. بالإضافة إلى أنّي ذات بديهة وأدرك بالحدس. كان على أبيك أن يستضيء بنور كي ينزل".

وساد صمت قصير.

إذن قلتُ للآنسة غران: "أجل، فذلك لا يبدو طبيعياً". لكنّك تدركين أنّي لن أخوض في حديث طويل مع تلك المرأة حول الموضوع. والأمر، على كل حال، لن يروقك، أليس كذلك؟

- بلى.

فقالت مدام لوغرا بعذوبة: "كنتُ واثقة من ذلك، يا حلوتي".

أنهت خياطتها دون أن تضيف كلمة. تأمّلت أدريين، وهي تشدّ بيديها على السارية، ذلك القذال الأبيض القوي تحت قبعة القش الدقيق، وذلك الرأس المُكِبّ بمواظبة. بدا لها ظلماً أن تقوى مدام لوغرا على التمعّن في كافة المشاريع التي تروقها، وأن تقوى على أن تحمل في دماغها الأفكار الأكثر إيذاءً، من غير أن تحيط هي، أدريين، بوصفها موضوع تلك التأملات الشقية، بأي شيء علما. فراودتها الرغبة في أن تضربها، وأن تقلبها من على الكرسي، وأن تفعل كل ما من شأنه أن يمنعها عن التفكير. وفكّرت في نفسها قائلة: "بأي حق تستجوبني على هذا النحو؟ لا ريب في أنّها تريد أن تستخدم ضدي كلّ ما أقول لها. أنا لن أجيب من بعد."

قالت مدام لوغرا وهي تعقد طرف الخيط: "هاك. لقد انتهيت. هاتي، هياّ هاتي".

وانتزعت العلم انتزاعاً تقريباً من يدي أدريين التي كانت تشدّ عليه بكل قواها فلم تدعه على الفور.

ثم قالت مدام لوغرا وهي تمسك العلم بطرف ذراعها لتتأمّله: "أنت أيضاً ستعلّقين الزينة، بكل تأكيد".

قالت أدريين: "بلى، بلى".

- يبدو عليك الحزن وشرود الذهن. هل يجعلك ما قلت لك هكذا؟

- كلا.

فمالت مدام لوغرا برأسها نحوها، وسألتها بصوت خافت:

- أم هو عشيقك؟ أنت لا تريدين أبداً أن تحدّثيني عنه، لكنّك على خطأ. لدي تجربة أكثر منك بكثير، وأنا أفهم في هذه المسائل.

قالت أدريين بصوت أجش:

- ليس لي من عشيق.

فعقبّت مدام لوغرا، وهي تضع العلم على ركبتيها:

- أنت إذن على خطأ تماماً. إنّ فتاة حسناء مثلك...

فنهزت أدريين بكتفيها، وتمتمت:

- لا يفيدني في شيء أن أكون جميلة. إنّ ذلك لا يزيدني سعادة.

فقالت مدام لوغرا:

- لا يفيد ذلك بشيء حين لا تملك الفتاة فلساً واحدا.

كانت الفتاة على وشك أن ترُدّ لكنّها ضبطت نفسها. لقد أسفت على قولها الأشياء البسيطة التي تفوّهت بها. بدا لها بغيضاً سماع هذه المرأة تتكلّم عن حبها. وتذكّرت على نحو مباغت نافذة الدكتور المفتوحة والشخص الذي اعتقدت أنّها رأته عندها في ذلك الصباح. فما الوسيلة لاستجرار مدام لوغرا كي تجعلها تزور دارتها؟ لا بدّ من وجود بعض الحجرات حيث يمكن للنظر أن يغوص فيها حتى الجناح الأبيض. لكن هل هي راغبة حقاً في أن ترى مجددا تلك النافذة، وربما ذلك الشخص المجهول الذي انحنى عليها هنيهة؟ فسألت باستخفاف:

"هل اشتريتم هذه الدارة منذ زمن طويل؟"

نظرت إليها مدام لوغرا ومطّت شفتيها.

"يا إلهي، أنت تحلمين. تعرفين حق المعرفة أنّي لم أكن هنا في العام الفائت. بالإضافة إلى أنّي لم أشترِ هذه الدارة، لقد استأجرتها. لقد استأجرها زوجي".

وضعت كفّيها على قماش العلم واستأنفت تقول بلهجة باردة قليلاً:

"إن كنت ترين أنّ ما قلت لك ليس رزيناً، فليس ما يدعوك لأن تصغي إليّ".

فأجابت أدريين وقد احمرّ وجهها: "لم أعتقد قط أنك لست رزينة".

فردّت مدام لوغرا وهي تلفّ العلم: "لا بأس، ليس لنا أن نثور، أنت تتمسّكين بأسرارك، وهذا أمر طبيعي".

ثم أضافت على الفور:

"أنا من ناحيتي، ليس لديّ من أسرار، فالأمر جد يسير. ولنطوِ هذه الصفحة".

وبدت وهي تمحو بحركة من يدها شيئاً أمامها ثم نهضت:

"أعتذر منك، يا حبيبتي. فعليّ إعداد حقيبتي. وينبغي أن أتوجّه بعد العصرونية إلى الطبيب البيطري. فقد تركت كلبي عنده. لاحظتُ أنّه يحكّ جلده كثيراً. هل ترغبين في الذهاب معي؟"

فقالت أدريين:

- أشكرك جزيل الشكر، لكنني لن أستطيع.

- إلى اللقاء إذن، ومن دون ضغينة؟

- ولِمَ ذلك؟ هيا بنا.

تصافحتا، وعادت أدريين إلى البيت.

* * *

-٣-

وجدت الفتاة نفسها، في ساعة مبكّرة من اليوم التالي، منجذبة إلى النافذة بسبب ضجيج عربة توقّفت أمام الباب الشبكي من دارة لويزا. ثم رأت مدام لوغرا تخرج من البيت فتستقرّ داخل العربة التي انطلقت من فورها. جعل ذلك المشهد قلبها ينقبض. انقضى وقت طويل على حلول الصمت في الشارع، فظلّت ساكنة، وعيناها شاخصتان إلى المكان الذي صعدت منه جارتها إلى العربة، وكأنّ شيئاً لا يُعوَّض قد وقع وأنّها لا تستطيع تصديق امتداد شؤمه. حلّ في ذاتها فراغ كبير. كان ينبغي أن تشاهد ارتحال مدام لوغرا لتدرك إلى أي مدى كانت الصحبة المقيتة لتلك المرأة ضرورية لها. لم تسعَ لأن تفسّر لنفسها تناقضاً فظيعاً، كانت تكابده مثلما يكابد المرء شيئاً لا يشعر بأن لديه القدرة على مقاومته. فبمَ يمكن أن تنفعها معرفة مصدر عبوديتها وطبيعتها، وما كان يرغمها على زيارة مدام لوغرا كلّ يوم؟ إنّها تفضّل عدم الاستفسار. فما يزال يرتادها ذلك الخوف العجيب من نفسها والذي شعرت به ليلة موت أبيها، وذلك الرعب مما يمكن لها أن تفكّر فيه أو أن تقوم به. كان الهذر الغادر لمدام لوغرا، المتسم بنوع من السحر الذي تجهل مبدأه، يهبها وحده نوعاً من السكينة الداخلية. ولو ارتحلت تلك المرأة، فكيف سيتسنى للفتاة أن تعيش؟ لقد سافرت. فينبغي انتظار ثلاثة أيام كاملة قبل رؤيتها من جديد، ثلاثة أيام من عزلة تفوق الاحتمال ومن صمت تكون الغلبة فيه للهلع، والذي ينبغي النضال ضدّه دونما هوادة لحين أن يأتي صوت مدام لوغرا الرتيب والسريع فيحطّم سحره المشؤوم.

ارتدت ملابسها بأسرع ما تستطيع مصمّمة على الخروج. كانت قد هبّت عاصفة عنيفة أثناء الليل فالجو منعش. وتبدو السماء الرمادية المنذرة كأنّها تلامس الأشجار. الساعة لمّا تبلغ الثامنة. حملت مظلّة كيفما اتفق لها وخرجت من غير أن تنتظر الطاهية لتقدّم لها قهوتها وهي في السرير.

حين أصبحت في الشارع أدارت ظهرها للجناح الأبيض بتصميم. فهي لا تنوي السير في هذا الاتجاه، ولاتنوي بشكل خاص أن تفكّر في ذلك، إنّها تريد أن تتعِب نفسها، إنّها تريد أن تمشي إلى حين أن تؤلمها ساقاها، وأن تكفّ عن التفكير بشيء، وأن تتوقّف عن إعمال فكرها في أي شيء، تريد أن تمضي، أن تذهب عبر المدينة وعبر الريف ثم تعود إلى البيت فتنام. صعدت في شارع تيير، وانعطفت نحو اليسار، وسايرت الجدار حتى الستاريات التي كانت تفوح بعبَقٍ عطر، ثم واصلت السير إلى أمام. بلغت بعد ثلاث دقائق ساحة المدينة الصغيرة. ألقى أناس عليها التحية، فردّت بشكل أخرق وحثّت الخطا. ما كان يهمّها كثيراً أن يكون لجولتها هدف. المسألة الأساسية أن تكون في حالة حركة. ورغبت مع ذلك في أن تتفادى السوق حيث يعرفها الجميع تقريباً. فسلكت زقاقا يساير الكنيسة وتوقّفت تحت مدخل أحد البيوت لتستردّ أنفاسها قليلا. كانت بشرتها ندية، فنزعت قفازيها اللذين يجعلانها تشعر بالحرّ ومسحت بمنديلها أنفها وخديها. لقد مضت بسرعة كبيرة حتى باتت لا تدري تقريباً أين هي. استأنفت دربها بعد بضع دقائق فخرجت من الزقاق لتجد نفسها في شريان المدينة الرئيس. كان الشارع ما يزال هادئاً في تلك الساعة. وكان بعض موظفي المتاجر يفتحون الدكاكين وينظرون إلى تلك السيدة التي تبدو في عجلة من أمرها. ولاحظت ذلك، فاستولى عليها فزع لا مبرّر له فارتدّت على أعقابها. لقد اختلط كل شيء في ذهنها. إنّ تلك الفتاة الرزينة جداً في العادة قد فقدت صوابها. كانت ستمضي راكضة لولا اعتقادها بأنّ ذلك سيبدو مشبوهاً، إذ يقوم في أعماق نفسها على الدوام فزع من أن تقوم بشيء يبدو غريباً. وفيما هي تستعد لعبور الشارع باغتتها عن يمينها عربة لم تسمعها. ففقزت إلى الوراء وكادت تسقط. فسارت، بتاثير من انفعالها، على

جانب الرصيف الأبعد عن قارعة الطريق ومشت بمحاذاة الجدران. رفعت عينيها على نحو مباغت لتقرأ على الباب الزجاجي لأحد المخازن اسم إرنستين غران.

توقفت. كان المخزن مطلياً بطلاء أسود وله واجهة خالية من كل عناية، تكدّست فيها دونما ترتيب ملابس منسوجة بالأصواف الباهتة، والأخفاف، كما عُلّقت على مشاجب مريلات طويلة زرقاء وحمراء. تذكّرت أدريين دكان الخردوات التي كلّمتها عنها مدام لوغرا. لا ريب في أنّها هي. وتراءى لها على نحو لا يقبل التفسير، أي مثلما يجري في الأحلام، أنّها سوف تجد جارتها هنالك. زدْ أنّها وسيلة ملائمة للإفلات من النظرات الفضولية التي اعتقدت أنّها مصوّبة نحوها. فدخلت.

أعلن جرس ذو رنّة كئيبة عن دخولها، لكن انقضى وقت لا بأس به قبل أن يأتي أحد. إنّه مخزن صغير معتم تحتل منضدة طويلة القسم الأكبر منه، وتغطي دروجٌ خضراء اللون ذات قبضات نحاسية المساحة الكاملة لأحد الجوانب. ويَستشمّ المرء رائحة غير محددة لقماش وعفونة. كانت كافة أنواع الضجيج تصل من الخارج مخنوقة ومغيّرة، ويبدو الشارع الذي لم يكن مفصولاً إلا بسماكة الزجاج بعيداً بعداً لامتناهياً.

جلست أدريين وأعادت وضع قفازيها. سمعت وسط صمت الدكان العميق صوت تنفسها وفي الوقت نفسه طنيناً مشوشاً يملأ رأسها، مثلما يقع لها كلّما كانت في حجرة مغلقة، لكنّ قلبها يخفق بقوة أقل مما كان في الشارع وشعرت بأنّها أكثر هدوءاً.

انفتح في نهاية الأمر باب في آخر الدكان لتدخل منه امرأة بدت مستاءة لرؤية زبونة في تلك الساعة المبكرة، وألقت نظرة خاطفة على المنضدة لتطمئنّ إلى عدم وجود ملابس مهملة، إنّها شخصية خشنة وطويلة القامة، مشت من غير إحداث ضجة سوى صوت خفيف لحفيف ثوبها الأسود. ألقت التحية وجاءت لتقف مقابل أدريين في الجانب الآخر من المنضدة.

- تفضّلي، يا آنسة؟

قالت الفتاة بلهجة سريعة: "أود بكرة من الخيط الأبيض".

نزعت قفازيها بدافع من الاتزان ولاحقت بنظراتها البائعة التي فتحت بصمت أحد الدروج. ضمّت أدريين يديها فوق المنضدة بقوة كأنّما لتمنح نفسها شيئاً من الشجاعة. كانت راغبة في قول شيء ما يمكنه أن يستجرّ الآنسة لوغران إلى الحديث عن مدام لوغرا، لكنّها لم تجد شيئاً. وبغتة سمعت العبارة التالية تخرج من بين شفتيها:

- هل جاءت مدام لوغرا إلى هنا يوم أمس؟

وسكتت. مرّت ثانية قاتلة، ثم أغلقت البائعة الدرج فاستدارت قائلة:

- جاءت إلى هنا لشراء خيطان في الأول من أمس.

كانت الآنسة غران ذات وجه قسماته رقيقة ويبدو اللحم تحته ميتاً، كما حال الراهبات اللواتي لا يخرجن أبداً، ويستنشقن طول النهار الهواء الفاسد نفسه. وضعت على المنضدة درجاً فيه بكرات خيطان من ألوان مختلفة وانحنت قليلا. رأت أدريين أجفانها البيضاء وفرق شعرها الذي وخطه الشيب وصففته ضفائر.

قالت البائعة بصوت هادىء: "بوسع الآنسة أن تختار..." وأضافت دونما تغيير في لهجتها:

- قالت لي إنّها تعرفك حق المعرفة.

- هذا صحيح.

قالت أدريين ذلك بنوع من الانشراح الذي كبحته بسرعة. وحرّكت بأطراف أصابعها عددا من البكرات من غير أن تختار واحدة.

ثم أضافت بهيئة استغراق: "لقد سافرت لعدة أيام. رأيتها بعد ظهر يوم أمس. كان لديها علَمٌ تخيطه. ولقد ساعدتها".

فاستأنفت البائعة تقول بعد وقت قصير: "لقد تعرّضت الآنسة لمحنة قاسية. ذلك ما قلتُ لمدام لوغرا..."

رفعت أدريين عينيها قليلاً فرأت كفّيّ الآنسة غران تستندان إلى المنضدة. إنّهما كفان طويلتان، بشرتهما مبقّعة بلون بنّي تتجعّد عند السلاميات، إنّهما كفّان قاسيتان. تنهّدت فتناولت بكرة تفحّصتها عن قرب.

وسألت على حين غرّة وهي تضع البكرة على المنضدة: "أليس زوج مدام لوغرا يعمل في التجارة؟"

قالت البائعة: "زوج مدام لوغرا؟"

ضحكت ضحكة هادئة كادت أن تكون غير مسموعة. فنظرت إليها أدريين.

ثم سألتها بصوت لا يخلو من توتر: "أليس يعمل في تجارة الحرير والقطن؟"

نهزت الآنسة غران بكتفيها وابتسمت. قالت:

- لا أعرف من أحد اسمه زوج السيدة لوغرا.

- لكنّها كلّمتني عنه يوم أمس، وقالت لي إنّه يعمل في تجارة الحرير والقطن.

- أنا لا أقول لك إنّها لا تعرف أحداً في ميدان النسيج...

ضحكت أدريين ضحكة عصبية.

قالت: "فما حقيقة زوجها إذن..."

أحنت البائعة رأسها جانباً وحكّت حافة العلبة بطرف إصبعها.

أخيراً قالت: "ليس بي من ميلٍ إلى إفشاء الأسرار".

فردّت الفتاة وهي تنحني على المنضدة: "ليس للمسألة أن تتخذ هذا المنحى. فكلّ شيء سيظلّ فيما بيننا، وأقول لك قول شرف".

رفعت الآنسة غران جفنيها للمرة الأولى ونظرت بعينيها الشاحبتين إلى أدريين. تبادلت المرأتان النظر لهنيهة.

قالت البائعة وهي تنكّس رأسها مجدداً: "يبدو أنّ ذلك الرجل كريم حيالها".

- هي التي قالت لك ذلك؟

- أجل.

همست الآنسة غران بالكلمة همساً. كأنّما هي تبوح بخطيئة.

ثم أضافت: "صحيح أنّها لم تقل قط إنّ ذلك الرجل ليس زوجها، فهذا بديهي. لكنّها أشياءُ تُعرف في نهاية الأمر، على الرغم من أنّها لا تخمِّن ذلك. فالكلّ هنا على علم بالموضوع".

أصيبت أدريين بالذهول. تذكّرت ما كان أبوها قد قال عن مدام لوغرا. واستعرضت في ذهنها عشرات التفاصيل الصغيرة التي لم تفهم معناها: التبرّج الصارخ الذي تستخدمه تلك المرأة، طرائق تصرّفها المفرطة في رفع الكلفة، وصوتها، وكل ما لمست لديها وتسبّب بصدمة لها، بدأت الآن تفسّره على ضوء ما سمعت عنها. فكيف لم تفهم ذلك في وقت مبكر أكثر؟ لكن هل يسعها أن تعرف إلى أي مدى تصل الصفاقة بتلك المخلوقات اللواتي لايتوانين عن الظهور علناً، وفي حفل موسيقي؟ لأنّها لم تتردد عن تصنيف مدام لوغرا ضمن الفئة الأكثر سفالة. كانت نارٌ تتأجّج في جبينها ووجنتيها. لم تشعر قط بأنّ أحداً قد انتقص إلى هذا الحد من كبريائها. وهكذا فقد ارتبطت إذن بواحدة من نساء الأزقة. كان شيء ما يرتعش في داخلها، وأدركت على نحو مباغت أنّها واحدة من آل موزيرا، لكنّها واحدة من آل موزيرا مُسّ شرفُها وتلطّخت سمعتها تقريباً. أعادت إسقاط النصيف على وجهها وأخذت قفازيها ودفعت الثمن من غير إضافة كلمة واحدة.

حين أضحت خارجاً أخذت البكرة من حيث وضعتها في المحفظة فرمت بها في الساقية.

كان المطر يهطل بهدوء. إنّه مطرٌ خفيف أشبه بالضباب ويسقط من غير صوت. ومع ذلك فقد فتحت أدريين مظلتها وشرعت تجري. ما عادت الآن تقيم وزناً لأن يراها أحد. كانت تريد بلوغ بيتها من أقصر طريق.

حين عادت الي البيت، لم تكلّف نفسها حتى عناء رفع قبعتها وخلع سترتها فجلست في زاوية من الصالون، وجذعها متقدّم وذراعاها على ركبتيها، في وضعية شخصٍ مُضنى. إنّ ما كان يمزّق قلبها أكثر مما عداه، هو أنّها كانت مخدوعة. وبدا لها أنّ ذلك الامتهان سوف يقضي عليها. لاريب في أنّ مدام لوغرا قد هرفت في المدينة بما شاءت مثلما تعوّدت النساء اللواتي على شاكلتها. ولا بدّ أنّها بالغت في وصف اللقاءات الحميمة التي تربط بينهما، وروّجت ألف شيء مما جعلتها سذاجتها التي لا تُغتَفَر تبوح بها إليها. ألا كم يكون الناس قد ضحكوا منها وتهكّموا عليها!

تذكّرت مدام لوغرا وهي تروي لها حلاوة المجازفة، ومدام لوغرا وهي تسألها عن مداخيل أبيها. كان ذلك يتطابق تماماً مع الصورة التي قد كوّنتها عن نساء تلك المهنة حتى تساءلت إن لم تكن حمقاء لأنّها لم تدرك ذلك أبكر. كان كل تذكّر ينتزع منها تأوّه نقمة.

لكن جاءت اعتبارات جادة اكثر لتزيد في تخوفها. لم تمتنع مدام لوغرا، بكل تاكيد، عن الكلام عن موت السيد موزيرا. فما قالت عنه؟ وأي دور نسبت إلى ابنته في تلك القضية؟

نهضت أدريين فمشت بضع خطا في الحجرة. ما معنى تلك المظاهر المرتابة التي تتخذها مدام لوغرا، وما حقيقة تلك العبارات الملتَبَسة التي تستخدمها؟ ليست المسألة أنّ أدريين لم تفكّر في ذلك مسبقاً، لكنّها اكتفت حتى الآن بأن تقول في نفسها برخاوة :" إنّها امرأة ماكرة، وهي تلعب لعبة مزدوجة"، لكنّها تمنّعت عن المضي قدماً في تفكّراتها مخافة أن تكتشف أنّ عليها الامتناع عن صحبتها امتناعاً مطلقاً. أما الآن فقد استيقظت. ينبغي لذلك كله أن ينتهي. وإلا فإنّ تلك المرأة سوف تقلّب المدينة كلها ضدّها، وتتسبّب في اعتقالها بوصفها مجرمة. فراقها أن تقول بصوت عال، وبلهجة اقتناع: "مجرمة، أنا!" لقد صدمتها تلك الفكرة وكأنّها لم تفكّر بذلك قط قبل هذه اللحظة. لا ريب في أنّها سمعت مدام لوغرا تلمِح إلى أشياء خسيسة، وقد تولاها الخوف، لكن هل اعتقدت حقاً أنّ تلك المرأة ترتاب في أنّها ارتكبت

جريمة قتل؟ ولو أنّها اعتقدت ذلك، هل كانت ستذهب للقائها يومياً؟ أما كان الأجدر بها أن تهرب؟ على كل حال، لم يعد لديها الآن أية شكوك، إنّها امرأة ذات حياة مشبوهة، فهي قادرة إذن على القيام بأكثر التصرّفات بشاعة. فما العمل؟

استندت إلى المدخنة ووضعت أصابعها على عينيها. شاهدت مرور خطوط حمراء في عتمة الليل الذي صنعته على ذلك النحو. أخذ المطر يسقط بشدة أكبر. كان مسموعاً على الحافة الداكنة للنافذة شبه المفتوحة. في غضون لحظة جلست أدريين إلى الإسكملة، منحنية بجذعها على الرخام، إذ لم تعد لديها القوة للبقاء منتصبة. راودها انطباع بأنّها تعيش وحيدة في هذا المنزل، لكن ليس منذ شهر واحد وإنما من سنين. وعلى الرغم منها، عاد وجه أبيها للترائي أمام عينيها. حينئذ فكّرت قائلة: "منذ وفاة أبي، منذ وفاة أبي..." وكان الأمر كأنّها ألقت على ذلك الحدث حجاباً يمنعها من تركيز انتباهها عليه. وقد أرضتها تلك العبارة المبتذلة عبر المظهر العادي الذي أسبغته على النهاية الرهيبة للسيد موزيرا، مستبعدة من ذاكرتها واقعاً مشؤوماً.

عادت بفكرها إلى الدكتور، لكي تدافع عن نفسها دفاعاً أفضل، إنّها ترى من حيث هي الجناح الأبيض، فاستسلمت إلى تأمّل قسم من الجدار وزاوية من السطح يغمرها الفرح المرهق والحزين لشخصية استُجديت طويلاً فتنازلت. فخلف ذلك الجدار يعيش رجل يسعه، بكلمة واحدة، أن يجعلها سعيدة إلى الأبد. وعادت ترسم صورته في فكرها. فلِمَ لا تذهب لتراه وتتحدّث إليه؟ لماذا؟ لأنّها أفرطت في الانتظار وأنّ الوقت قد فات. وتخيّلت تخيّلاً مشوّشاً، مدعّماً بالاعتقاد الباطل لدى ذوي النفوس الذين جعلتهم حياة العزلة نفورين، أنّ أفعال حياتها قد جرى إملاؤها سلفاً بفعل إرادة مجهولة، وأنّه ليس أمامهاغير فرصة، وهي فرصة واحدة لكي تتصرّف. فعليها أن تقتنص تلك الفرصة حين تسنح، لأنّ الزمان سوف يذهب بها ولن يُعيدها أبدا. منذ ساعة، مرت دقيقة، كان عليها فيها أن تضع قبعتها، فتعبر الشارع، وتتوجّه لتدقّ على باب الجناح البيض... أما الآن فلم يبق لها سوى العيش كيفما اتفق، مع حسراتها التي لن تجدي ومع عشقها الذي لم تعرف كيف تجعله يحقق الغلبة.

لم تتخبّط، بل تركت ذكرى آمال الماضي تعود اليها فتمزّقها. وبدا لها بوضوح أنّها تمضي على ذلك النحو حتى أعماق عذابها مثلما يمضي المرء إلى ملجأ. فما من شيء هنالك يعود بمقدوره أن يبلغها.

نهضت بفعل قرار مفاجيء وصعدت إلى غرفة جيرمين. فأن تذهب لتجلس إلى تلك النافذة، سيكون برهاناً إلى حد ما، على قوتها. وسوف يثبت لها ذلك أنّها لم تعد تخاف، وأنّها استعفت، فلم يعد في نفسها ذلك الشك القائم على أمل مؤلم وعلى توجّس موجع.

دخلت الغرفة ففتحت النافذة وانحنت، وتشبّثت يداها بالميزاب. سقطت على بشرتها بضع قطرات من المطر. شرع قلبها يخفق بتلك الحركة المتسارعة التي تعرفها حقّ المعرفة، والتي يبدو أنّ أثرها يزعزع كيانها كله. رأت البيت الصغير، وانحدر نظرها كما في الماضي، من السطح اللامع إلى الشجرة التي تحرّكها أقل نأمة ريح. لم تشأ أن تنظر إلى النافذة على الفور، بل استبقتها متعةً واختباراً، فجهدت في أن لا تنظر إليها.

هنالك أحدهم على النافذة اليوم، إنّها تدري بذلك فيمَ هي تنظر إلى السطح والشجرة، وبسبب ذلك كان قلبها يخفق، إلا أنّها لم تنسحب هذه المرة، فانتظرت هنيهة، ثم انحدرت بنظرها. إنّه طفل، هو صبي صغير في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة ينحني من فوق عارضة الاستناد ويسعى إلى لمس طرف ميزاب بواسطة سوط خذروف. فحبست نفسها وتابعت تلك اللعبة. كان الطفل يمد يده، ويشدّ على قبضة السوط بأطراف أصابعه. إنّه أسود الشعر. لم يكن يسعها أن ترى غير رأسه، فوجهه منكّس، وفمه يلامس دون شك عارضة الاستناد. كانت مريلة ذات مربعات زرقاء تغطي ثيابه كلها فلا تبدو منها سوى ياقة مطوية يتناقض بياضها مع سواد شعره.

لبثت ساكنة لحين أن غادر الطفل النافذة، فانتصبت بقامتها ومشت بضع خطا في الغرفة. بقي الباب نصف مفتوح فذهبت وأغلقته. اغلقت النافذة أيضاً وجلست على كرسي. قامت بتلك الحركات بكل بطء، كأنّما كانت حريصة على جعلها تتبع نظاماً محدّداً. واستسلمت على نحو مفاجىء، وسط الصمت الخانق لتلك الغرفة، لكامل الحزن الذي جهدت دونما طائل لاستبعاده، فسالت الدموع على خديها.

*   *   *



-٤-

بعد بضع دقائق، نزلت جرياً. إذ يستحيل عليها البقاء فترة أطول في هذا البيت، حيث عاشت وسط شقاء مفرط حتى لم تعد تقوى على تحمّل رؤية تلك الجدران وقطع الأثاث، وكلّها شهود على عذابها فتذكّرها به وتعيده حياً في قلبها على الدوام. توقّفت في غرفتها، فملأت حقيبة صغيرة ببعض الحوائج التي رمت بها داخلها كيفما اتفق، وأخذت ثلاث مئة فرنك من علبة خشب الزيتون وغادرت دارة الزان، بعد أن أخطرت ديزيريه بتغيّبها ليوم أو يومين.

اغتبطت لتلك الطريقة في التصرّف. فقبل خمس دقائق كانت تنوح داخل غرفة مغلقة. لقد أدركت فجأة أنّ من الغباء البكاء على ذلك النحو والاستسلام أمام إرهاقات الحياة دون السعي إلى المقاومة، إنّها تتوجّه الآن إلى المحطة، بخطى ثابتة وسريعة تزيدها نشاطاً، حاملة حقيبة بيد ومظلتها باليد الأخرى. ما زال المطر يهطل. أصغت وهي تمشي إلى الوقع الشديد لحبات المطر على حرير المظلة المشدود، وجهدت في أن تعثر فيه على نوع من الإيقاع. بدا لها أن إيلاء الاهتمام لأشياء صغيرة يبرهن لها على حرية فكرها ويرتفع بها على نحو ما إلى ما فوق ذاتها. قد يكون البكاء عاد عليها بالنفع، فهي تشعر داخل نفسها بالخجل وبأنّها أقوى.

تساءلت حين أصبحت قبالة المحطة إلى أين سوف تتجه. فالقطار المتوجّه إلى باريس لن يمرّ إلا بعد ساعتين ونصف. زِدْ أنّها لم تكن راغبة في الذهاب إلى باريس، فقد قصدتها مراراً ولم تعد منها إلا بإحساس بغيض من الانذهال والاضطراب. دخلت إلى قاعة الانتظار واستعرضت جدول

المواعيد. هنالك قطار بعد ربع ساعة إلى مونفور - لاموري. راقها شيء ما في مظهر ذلك الاسم فاشترت بطاقة من الدرجة الثانية إلى تلك المدينة الصغيرة التي كان هنالك إعلان بالألوان يشيد بقيمتها التاريخية. وحين انتهت، أخذت تتمشى في قاعة الانتظار وعلى رصيف المحطة، منصرفة بتفكيرها كله إلى المشاريع التي تتدرج في رأسها. استولت عليها حماسة مفاجئة، وحين أحسّت بأنّها وحيدة، شرعت تتلفّظ بصوت عال بعبارات لاتتمّها، وتوحي بأنّها موجّهة إلى شخص ضعيف وواهن القوى ينبغي تشجيعه واستعجاله قليلا.

كانت تقول بصوت مسموع: "هلمّي، هيّا بنا نستعجل. (وتنظر خلسة من حولها). علينا أن ننتهي. لن أظلّ هنا من بعد، فما عدت أستطيع..."

خشيت أن تكون نطقت بتلك الكلمات الأخيرة بصوت أعلى فسعلت، لكن لم يكن بقربها من أحد ليسمعها. وتولاّها نوع من الضحك كتمته بمنديلها. وفي اللحظة نفسها تقريباً، ظهر القطار.

صعد المسافرون القلائل، الذين كانوا ينتظرون معها على الرصيف، في الدرجة الثالثة، فلم تجد من عناء في العثور على مقصورة فارغة. بعد أن جلست على الأريكة الصغيرة المنجّدة بجوخ أزرق، وأحسّت بأنّها محمولة ببطء بادىء الأمر، ثم بسرعة متزايدة، راودتها الرغبة في أن تنهض فتغني، إنّها المرة الأولى التي تسافر فيها وحدها والمرّة الأولى أيضاً التي تشعر فيها بأنّها حرة. لقد تخلّصت أخيراً من ذلك القهرالذي لا يفسَّر والذي عانت منه الكثير في دارة الزان، فلم يعد عليها أن تخوض كفاحاً مع نفسها كي لا تفكر في بعض الأشياء. وكلّما رأت تباعد الأشجار والمنازل ومعها مشهد لاتور ديفيك الكريه كلّه، شعرت بشيء ما يجيش في صدرها لكن ليس هو الغمّ الذي كان ينتابها قبل قليل.

رفعت قبعتها التي كانت تضغط على رأسها وفتحت النافذتين لتطرد الرائحة الكئيبة من المقصورة. وهبت الريح على شعرها، فارتدت برأسها إلى

الخلف وهي تصغي لرجّات القطار المنتظمة. لم تكن تلك الضجة تسوؤها، بل قد يقول المرء إنّ ذلك الطرْقَ الخافت ذو معنى خفيّ وإنّه يجد في نفسها صدى عميقاً مثل جملة ذات نغمات رتيبة، يكررها المرء إلى ما لا نهاية ليجعلها تغوص إلى نفسه أبداً. وأغفت.

حين استيقظت كان القطار قد دخل إلى محطة مونفور، كان الصمت والسكون هما اللذين استجرّاها من رقادها. وضعت قبعتها بكل استعجال، ثم حملت حقيبتها ومظلتها وقفزت إلى الرصيف. وحين رآها موظف تنظر في كافة الاتجاهات بهيئة من القلق والارتياع دلّها على المخرج.

وجدت نفسها في ساحة تحيط بها الأشجار التي قد رطّبها المطر. وهنالك طريق أبيض لا تُشاهَد نهايته يمضي مستقيماً في الريف بين الحقول والأحراش. رجعت على أعقابها وسألت أحد الموظفين أين هي المدينة. فأشار إلى الطريق وقال لها إنّها تبعد مسافة نصف ساعة سيراً على الأقدام، لكن بوسعها أن تستأجر عربة. كانت في الواقع عربتان أوثلاث تنتظر أمام المحطة.

وقفت مترددة. فالمطر يواصل الهطول من غير أن يبدو أنّه سيتوقف طول النهار. كذلك لم تكن أدريين بعيدة عن اعتبار الجولة في عربة شكلاً من البذخ.

حسبت بسرعة ما يمثل ذلك من إنفاق: سوف تأخذ المبلغ في نهاية المطاف من مدّخراتها، لا من المال الذي ينبغي أن تقبضه كل شهر؛ فكانت الغلبة لهذه الحجّة. توجّهت صوب عربة وصعدت تحت الغطاء الجلدي، بعد أن قالت للحوذي أن ينقلها إلى المدينة.

كانت الطريق حتى حدود مونفور- لاموري مرصوفة ومحاطة بالأشجار. والمشهد هو نفسه عن اليمين والشمال، وليس ما يفوقه كآبة في مثل هذا الطقس السيّىء. جُلُّ ما يسع أدريين أن تراه إذا ما انحنت قليلاً على المقعد، متوالية بلا انقطاع من حقول خضراء، تحفر الريح والمطر فيها بعض الدوّامات. وتظهر عند الأفق ستائر من الأشجار المغروسة بلا انتظام فتبدو

كأنّها ستتقارب لتشكّل أحراشاً من غير أن تُوَفّق في ذلك. وتأتي سماء بلا لون لتضيف شيئاً على كآبة ذلك المنظر.

رجعت بجذعها إلى الخلف وكفّت عن النظر. أدركت بعد قليل، من وقع خطا الجواد، أنّ العربة سلكت أحد الشوارع. انحنت فرأت بعض الأطفال الذين أجتذبتهم جلبة العربة إلى الأبواب فلاحقوها بنظرة أعتقدت أدريين أنّها ميّزت فيها شيئاً من الريبة.

أوقف الحوذي حصانه أمام الكنيسة. بدا الصمت الذي أعقب فرقعة العجلات على الحجارة غريباً وشبه مستهجن بالنسبة للفتاة. وترجّلت. إنّها ساعة الفطور وليس في الشوارع من أحد. وفيما كانت تدفع الأجرة للحوذي، سمعت صياح ديك في إحدى الباحات، فتولاها انقباض في القلب من غير أن تدرك السبب.

فكّرت أدريين، بعد أن توارت العربة، في أنّه كان عليها أن تسأل الحوذي ليدلها على مطعم وفندق، فيسوؤها الآن أن تدخل إلى دكان فتزعج أناساً جالسين إلى المائدة لتحصل على ما تحتاج من معلومات. فسلكت كيفما اتفق أحد الشوارع الذي كان ينحدر انحداراً سريعاً ويبدو أنّه الشارع الرئيس في مونفور. المنازل كلها ذات مظهر قديم جداً وهادىء جداً مما حدا بها لأن تتأملها بنوع من الفضول الوجل. واستدارت فرأت برج الكنيسة الذي اتخذت حجارته في بعض الأماكن لون الماء المُلتبَس وحيث الطحالب رسمت خطوطاً غامقة بدت كالأشنيات. انتاب الفتاة إحساس مشوّش، تحت السماء الممطرة، وفي تلك الساعة من الصمت التي بدا فيها كل شيء وقد أصيب بسكون لن ينتهي أبداً، بأنّ هذه القرية القديمة تنتظرها وأنّها قد اجتذبتها اليها بأشكال من السحر الغامضة والجبّارة.

واصلت طريقها. كانت لافتة عند تقاطع شارعين تعلن عن فندق وسهمٌ أبيض يشير إلى الدرب الواجب سلوكه للوصول إليه: لم يكن عليها سوى مواصلة السير بخط مستقيم. تجاوزت أدريين بعد قليل آخر بيوت القرية، إنّها تمشي الآن على طريق ريفية تحفّ بها الأشجار والحرجات.

اعتقدت بعد بضع دقائق أنّها أخطأت دربها لولا أن جاءت لافتة ثانية تؤكّد ما جاء في الأولى، وشاهدت في الواقع، عند منعطف من الطريق، منزلا منخفضاً وطويلاً، فقير المظهر إلى حدٍ ما، تتصدّره بين نافذتين من الطابق الأول، لافتة كتب عليها بأحرف سوداء ضخمة:" فندق بوسيجور".

هنالك بابان. دقّت أدريين على واحد فلم يأتها من جواب. ورأت من نافذة في الطابق الأرضي، قاعة طعام ريفية بلاطها من الآجر الوردي. انتظرت ثانية ثم توجّهت إلى الباب الآخر ففتحته من غير أن تدق. دخلت إلى حجرة معتمة قليلاً، فيها مرآة كبيرة بإطار أسود تحتلّ الحائط المواجه للباب وتعكس ضوءاً شاحباً. كان عامل ببذلة زرقاء، يتكىء إلى منضدة من التوتياء، ويحتسي كأساً من النبيذ وهو ينظر إلى طفل يرسم في صدر الكان، وقد وضع مرفقيه على طاولة رمادية من الرخام. وقد أدار الاثنان رأسيهما صوب أدريين.

صاح العامل: "يا معلمتي".

راودتها الرغبة في الانصراف، لكنّ امرأة ظهرت في اللحظة نفسها من أحد الأبواب، إنّها ذاتُ شعر أشيـــب ، ووجه أبيض ممتلىء، فيمكن أن تكون في الخمسين من العمر. كانت تسند كفيها إلى وركيها، وتشد خصرها بمريلة زرقاء.

قالت: "تريدين غرفة؟"

وقبل أن تنتظر الرد أضافت بلهجة غير مستحبة:

- لم يبق لدينا.

فقالت أدريين:

- جئت لتناول الفطور.

فردّت المعلمة قائلة: "لا بأس. تفضّلي، من هنا".

قادت أدريين إلى القاعة التي شاهدتها الفتاة من الخارج.

سألتها المعلمة: "ستتناولين فطورك الآن؟"

فأجابت أدريين: "على الفور".

جلست إلى مائدة صغيرة أُلصقت بمدفأة ووضعت حقيبتها عند قدميها فيما كانت المعلّمة تبسط غطاء الطاولة المطلية. كان الجو بارداً في غرفة الطعام، لكنّ أدريين أكثر تعباً من أن تفكّر في الاحتجاج أو في الانصراف.

قالت المعلمة وهي تضع أمامها شوكة وملعقة: "إن كنتِ حقاً تريدين غرفة، فما تزال لدي واحدة. ويسعك رؤيتها قبل تناول الحساء".

أجابت أدريين: "لا بأس".

ونهضت فحملت حقيبتها وتبعت المعلّمة. خرجت الاثنتان من باب في صدر القاعة، فعبرتا باحة صغيرة وصعدتا سلّما من الخشب الأبيض بين جدارين مطليين بالأخضر. فيما كانت أدريين تصعد وراء المعلمة، لاحظت قدميها في جوربين من الصوف الأسود، والعرقوبين الضخمين اللذين تكشف عنهما كل حركة من تنورتها الرمادية. ورغبت مجددا في أن تولي هاربة، أن تهبط بهدوء فتبلغ الطريق. كم ستركض! لكن كانت العزيمة تنقصها.

فتحت المعلمة باباً عند أعلى الدرج وأرتها غرفة يحتل سرير حديدي القسم الأكبر منها. ثم أغلقت الباب على الفور وقالت:

"هذه مؤجَّرة لباريسيين".

وسارت في ممر فأشارت بإبهامها إلى باب آخر وقالت: "وهذه أيضاً".

حين وصلت إلى باب ثالث، قالت وهي تحدّق في عيني أدريين:

"يسعني أن أدع لك هذه حتى يوم غد".

وفتحت الباب، إنّها غرفة مربعة فيها سرير كبير من الخشب ونافذة صغيرة جداً تنفتح على جدار مطلي بالكلس في الجانب الآخر من الشارع، وعلى بعض رؤوس الأشجار. وهنالك طشت موضوع فوق طاولة من الخشب الأبيض.

قالت أدريين : "لا بأس".

وضعت حقيبتها على السرير وأطرقت نظرها حيال نظرالمعلمة الحاد.

قالت: "سآخذ هذه الغرفة".

حين نزلت من جديد، رأت العامل يجلس غير بعيد عن المكان الذي اختارته. كان يأكل وهو يقرأ جريدة. جلست بدورها وبدأت بتناول الطعام الذي قُدِّم لها، من غير أن تمتنع عن إلقاء نظرة بين فينة وأخرى إلى طاولة العامل. راقتها تلك الجيرة. كانت بحاجة لأن تشعر بأنّها ليست وحيدة. كان أمامها تقويم كبير فوق الموقد الرخامي الأسود، يستند إلى مرآة أضحت رمادية مع مرور الوقت.

كانت أدريين تأكل قليلاً، لكنّها تشرب، لكي تتدفـــأ، شيئاً من النبيذ الذي جاؤوها به، فكان من نوعية متوسّطة. وتصغي وسط الصمت إلى حفيف الجريدة التي كان العامل يثنيها ويبسطها باستمرار. كان أحياناً ينحني على الصفحة بنوع من النهم وهو يتناول طعامه. إنّه رجل في الثلاثين من العمر. وجهه ملطخ بشيء من الجص، وعيناه برّاقتان وفضوليتان. كان يمسح أحياناً شاربه الصغير الأشقر بقفا يده ويراقب أدريين خلسة. تلاقت نظراتهما في إحدى المرات. كانت راغبة في أن تعرف أين أصبح في طعامه، وأن تطمئنّ إلى أنّه لن يغادر أيضاً. وحين أدركت أنّه باغتها، احمرّ وجها وأشاحت بنظرها.

قال وهو يخفض جريدته: "إنّه لطقس سيّيء للسفر".

فردّت أدريين بإيماءة من رأسها.

فأضاف يقول: "ربما أنتِ لستِ من هنا؟"

عضّت على شفتيها. ما كان يدعوها لأن تنظر فيما حولها على ذلك النحو؟ وكأنّها لم تكتفِ بالصلة التي أقامتها مع مدام لوغرا، ثم بحاجتها لاستخلاص معلومات من بائعة خردوات. فهل ستفتتح حديثاً مع مجصِّص؟ مرّت بضع ثوان بدت لها بلا نهاية. لم يتحرّك العامل، ولم يقل شيئاً. ولبثت

ساكنة من جانبها ويداها متشابكتان تحت المائدة. وسمعته فجأة يقول بصوت بطيء وساخر:

"السيدة مسافرة".

وضحك ضحكة قصيرة وساخرة، ثم أعلن حفيف الورق أنّه عاد فأحكم الإمساك بجريدته واستأنف القراءة. اعتدلت في جلستها فشربت جرعة من الماء.

لم تقوَ رغم مساعيها على إتمام وجبتها التي وجدت كافة أطباقها عديمة الطعم. وبدا لها أنّ اللقمات القليلة التي أرغمت نفسها على ازدرادها ما تزال عالقة في أسفل حلقها وتُحكِم عليها الخناق. فهذا اللحم الليفي وتلك العصيدة من البطاطا المسلوقة يقزّزانها. راقها النبيذ وحده بطعمه المزّ واللاذع. فشربت منه كأسا.

شعرت لدى دخولها بالبرد، أما الآن فتشعر بالحرّ، بل الحرّ الشديد. نهضت قليلا من على مقعدها فرأت في المرآة الكامدة أنّها محمرّة الوجه. صعد الدم إلى رأسها وهو ينبض عند صدغيها. وعادت فجلست. راودتها رغبة مباغتة في البكاء، لكنّ عينيها ظلتا جافتين. وما كانت ستبكي حزناً بل غضباً، وسخطاً على نفسها. فما تفعل في هذا المطعم؟ وهل هي فيه أكثر سعادة منها في دارة الزان؟ كان شيء ما يضيّق على جبينها فوق الحاجبين تماماً. لو انحدرت الدموع من عينيها، لأراحها ذلك بكل تأكيد، لكنّ جهودها لكي تبكي كانت بلا طائلٍ فأتعبتها. وضعت مرفقها على المائدة وأسندت خدّها الملتهب إلى يدها. أغمضت عينيها. تولّد لديها انطباع بأنّ كل ما حولها يتغيّر. فالضجّة التي يحدثها العامل كلّما لمس الطبقَ بشوكته تصل إلى الفتاة بوقعٍ غريب، وقعٍ جعله طنينٌ متواصل غير قابل للتمييز. دام ذلك هنيهة. وحين فتحت عينيها، وقع نظرها على قائمة الطعام المكتوبة على عجل بحبر بنفسجي. تأملتها من غير أن تقوى على قراءتها، وفجأة راودتها فكرة. لقد رأت قبل قليل قلماً فوق الموقد. مدت يدها فتناولته، ثم قلبت القائمة وكتبت:

حضرة السيد...

لكنّها شطبت على تلك الكلمة، بكل بطء، كأنّها تفكّرت في شيء آخر. وشطبت مجددا تلك الكلمة بحركة قوية حتى طمستها تماماً، وفجأة خطّت هذه الكلمات:

وأنا هنا، في مونفور، في ١١ تموز ١٩٠٨، كنت أكثر شقاء مني في أي وقت مضى.

كنت تعيسة بسببك. ألا تأخذك من شفقة بي أبداً؟

كانت الدموع الآن تسيل على وجهها. طوت الورقة ووضعتها في صدارتها. حرّرتها، تلك الكلمات التي كتبتها، بشكل ما، فشعرت بأنّها أحسن حالا. تنهّدت ومسحت أنفها.

حين دخلت المعلمة حاملة قطعة من الجبن وبعض الفاكهة، أخبرتها أدريين بصوت حازم بأنّها غيّرت رأيها ولن تبقى، فالطقس سيىء جدا. سدّدت الحساب، من غير أن تمدّ يدها إلى التحلية، وصعدت لتأتي بحقيبتها.

بدرت منها، وهي في الغرفة ذات الجدران المطلية بالكلس، حركة تنمّ على الفرح كأنّما قد أفلتت من خطر. فراقها أن تتخيل هول هذا المكان ساعة الأصيل، في حين ستكون بعيدة. سيأتي الليل بهدوء عبر هذه النافذة المفرطة في الصغر والتي لا تكشف إلا عن جدار طويل وأشجار تلمع تحت المطر. أية ساعات كانت ستمضي في هذا السرير ذي اللحاف الأحمر، وفي هذا المنزل المنعزل، الكئيب جداً، في يوم طقسه رديء مثل هذا اليوم؟ فأمسكت بحقيبتها وخرجت مهرولة.

فيما كانت تعبر قاعة الطعام مجددا وتتجه صوب الباب، سمعت المعلمة تكلّم العامل وهي تقدّم له القهوة. لم تنظر إليهما، لكنّها شعرت بأنّ عيونهما تلاحقها بفضول عدائي، وسمعت هذه الكلمات التي نطقت بها المرأة ذات المريلة:

"كنت واثقة من الأمر، فهذه..."

* * *

-٥-

فتحت مظلتها وأخذت تجري رغم تعبها. أدهشها أن تقوى على المضي بذه السرعة، وأن تخطو تلك الخطوات الكبيرة. فالحال كأنّها محمولة بحركة لم تعد تسيطر عليها، وكأنّها هاربة من أمام شخص تسمع وقع خطاه وراءها. بلغت الكنيسة في بضع دقائق، فنظرت إليها على عجل من تحت حرير مظلتها المبللة. بدت لها فجأة تلك الحجارة الخضراء، التي كأنّ نهراً قد مرّ من فوقها، وتلك الكتل الصخرية المرصوفة أمام الرواق وقد صفقها المطر، مغرقة في البعد وغريبة جداً عن حقيقة نفسها حتى أنّها أصيبت بصدمة. وتحققت بغتة من شعور كان مجهولاً لديها حتى تلك اللحظة: عدم اكتراث تام من قِبَل الأشياء كلّها حيال ما يجري داخلها، وعدم اكتراث هذه الكنيسة وتلك الساحة بألمها، وعدم اكتراث ملايين الناس بمصيرها. فانقبض قلبها أمام فكرة عزلتها. فعبرت الساحة ودخلت إلى مقهى كي تتكلّم مع أحد ما.

لم يكن هنالك من أحد، لكنّها كانت ستفاجأ لو وجدت أحدا. فهذه المدينة الباردة والبخيلة لا تُظهِر سكانها عن طيب خاطر، بل تخفيهم داخل منازلها. نادت. جاء رجل بعدهنيهة. نهض عن مائدة الطعام ليأتي فقد كان يمسح فمه. ويقرأ المرء علائم الضيق في عينيه لأنّ أحداً قد ازعجه.

- ماذا تريدين؟

- إلى أين عليّ التوجّه لاستئجار عربة؟

- أنت ذاهبة إلى المحطة؟ انتظري حتى الساعة الرابعة. فالعربات كلها تذهب للقاء القطار القادم من درو.

فقالت أدريين:

- يلزمني عربة الآن. فالى أين أتوجّه؟

ضغط الرجل بقبضة يده على رخام إحدى الطاولات، وقال بصوت ينمّ على نفاد الصبر:

- إنّما أنا مؤجّر العربات، يا سيدتي. ليس هنالك من قطار إلى باريس قبل الساعة الرابعة.

فقالت أدريين بلهجة حادة:

- انا لست ذاهبة إلى باريس، أنا ذاهبة إلى درو.

قررتْ ذلك على نحو مفاجىء، فأضافت:

- لا بدّ من أن يكون هنالك قطار في حدود الساعة الثانية.

نظر اليها ثانية، ثم قام بحركة لامبالية وهو يدير لها ظهره. وأضاف وهو يبتعد:

- إنّ قطع تلك المسافة لا يستحق العناء. ينبغي أن يُدْفَع لي أجرُ عودتي.

استعادت حقيبتها من فوق الطاولة، كان جلدها ما يزال يقطر ماء. ضغط الشجن على حلقها. بدا لها ذلك الدرب الطويل الذي عليها أن تقطعه امتحاناً مفرطاً في شدّته وعليها مع ذلك أن تقبل به. خرجت فعبرت الساحة وهي تهرول تقريباً، لأنّها لاحظت أنّ سرعتها كلما كانت أكبر، كان إحساسها بالتعب أقل.

حين أضحت أدريين خارج المدينة وسلكت الطريق الرئيسة، توقّف المطر. هبّ نسيم منعش، لكنّ الأقماح المثقلة بالماء ظلّت ساكنة. وحده العشب القصير في الخنادق والحفر يتجوّف ويتقسّم بتأثير الريح، مثل شعر تعبث به أيد غير مرئية. هيمن على الريف المقفر صمتٌ عميق. مشت الفتاة مصمّمة على عدم رفع رأسها كي لا ترى طول الدرب متبّطاً لهمّتها. شغلها وقع عقبيها على الحجارة. كانت أحياناً تنقل حقيبتها من يدٍ إلى يد، لكنّ

تفكّراتها ما لبثت أن جعلتها تفقد الإحساس بالحركة والتعب فأضحت على مرأى من المحطة في وقت أبكر بكثير مما كانت تخمّن.

ليس من قطار إلى درو قبل الساعة الثالثة، فاضطرّت للانتظار في مشرب على تخوم المحطة. إنّه منزل صغير وجديد تماماً لم يتح له الوقت كيما يتّسخ. فرائحة الطلاء تفوح من طاولة البلياردو. وما يزال رخام الطاولات يحمل أثر الصقل. وقد وُضِعت على إحدى تلك الموائد حمّالة بطاقات بريدية دوّارة، يُسمع لها صرير حين يحرّكها المرء بإصبعه. جلست أدريين قرب البطاقات بعد أن أوصت على فنجان من القهوة، وحين أضحت وحدها رفعت قبعتها فهزّتها تحت الأريكة. كان وجع رأسها يتناوب الضرب على جبينها وصدغيها، مثل طائر ممسوس. أما ملابسها المبللة فتسبّب لها إحساساً شديداً بالحر. ارتعدت مرات عديدة. وباشرت النظر إلى البطاقات، لكي تروّح عن نفسها، فما كان إلا أن لاحظت كم هي مغلوطة تلك الفكرة التي تقدّمها عن مونفور. فليس ما يفوق بهجةً تلك الشوارع القديمة التي تنحني على أطرافها الأشجار. وكم تبدو بريئة، تلك الكنيسة التي رأتها كئيبة وموحشة تحت المطر. كان إلى جانب الدوارة نشّافة وريشة ومحبرة. اختارت مشهداً للكنيسة، فكتبت عنوان الدكتور على قفا البطاقة دونما تردّد، كأنّها تقوم بحركة طبيعية حتى أقصاها. كانت أول مرة تدوّن فيها اسمه، وحين انتهت من العنوان، توقفت، مندهشة مما قرأت.

راودتها فكرة الكتابة للدكتور، وإرسال بطاقة إليه، من غير أن توقّعها. فيسعها على ذلك النحو أن تقول له أي شيء كان. ولن يعرف أبداً من أين أتت. فليتها فكّرت في ذلك من قبل! يسعها أن تقول له إنّها تحبه، فتتحرّر على هذا النحو من العبء الذي يخنقها.

أمّا وقد جاءتها الخادمة بفنجان القهوة، فقد طلبت منها مظروفاً، وشرعت تكتب من فورها ما يلي:

"**أحبك وأنت لا تدري، لكنّني أعتقد أنك لو علمتَ بما كابدتُ من أجلك، لأشفقتَ عليّ**".

توقفت. فتلك الكلمات تسيء التعبير عما تشعر به وقد تسبّبت لها ببعض الدهشة، متخيّلة أنّها ستعبّرأفضل تعبير، وللوهلة الأولى، عن انفعال بهذا الوضوح. فواصلت:

"**إنّي في غاية الشقاء حتى ينبغي لذلك وحده أن يُلزمك بأن تحبني**".

لكن هذه الفكرة بدت لها مغلوطة حتى قبل أن تنتهي من الكتابة فتمتمت: "لماذا؟"

وردت تقول في نفسها: "لا ضير من ذلك ، فهو لن يعرف أبداً من كتب له هذه البطاقة". ثم واصلت:

"**أحبك، هذا كل ما يسعني أن أكتب لك، لكنّ قلبي مفعم بك وأنا لا أكفّ عن التفكير بك وأنا أبكي**".

كانت حقاً تبكي وهي تخط هذه الكلمات الأخيرة.

اخذت المظروف الذي جاءتها به الخادمة، فأدخلت فيه البطاقة وكتبت عنوان الدكتور. بعدئذ شربت قهوتها وانتظرت موعد القطار.

درو مدينة صغيرة تجارية تُقام فيها أهم الأسواق في المنطقة. حين سلكت أدريين الجادة نازلة من المحطة ووصلت دار البلدية، كانت ملزمة بأن تتسلّل ما بين العربات التي كانت تسدّ الشارع وتملأ كل زاوية في الساحة. كان أصحاب العربات يتحاورون فيما بينهم فيشكّلون مجموعات صغيرة تحيط بالعجول والخنازير التي يتقرّر مصيرها في تلك المجادلات التي لا تنتهي. وتحتلّ الأرصفةَ كلّها فلاحاتٌ يعرضن دواجنهنّ ليتفحّصها المارة، في حين أن وسط الساحة هو غنيمة باعة الخردوات والخضروات، على الرغم من الوحل وبرك الماء البنّية التي عجزت الأرض المشبعة عن امتصاصها. كان جمهور لامبالٍ يتجوّل ببطء بين البسطات، فتحاول اجتذابَه صيحاتُ الباعة الرتيبة التي يبدو أنّه لا يسمعها.

لم تستعجل أدريين عبورَ الساحة. كان يروقها الشعورُ بأن يحتكّ بها هؤلاء الناس الذين لم يسبق أن رأتهم قط والذين يرغمونها على السير خلفهم، وعلى أن تطأ وإيّاهم هذه الأرض المبللة، كأنّها تشارك دونما توقّع في طواف، حتى أنّها ضاعت فيه فنسيَت كافة همومها وكل ما يميزها عن الآخرين، لتغدو مثل أولئك الرجال وتلك النساء بوجوههم المغلقة. كانت تشعر على قسماتها بالتعبير الكئيب والمرتاب الذي تصادفه في كل مكان من حولها، وكانت تلك العقلية تريحها، من غير أن تقوى على تفسير السبب لنفسها.

دارت دون أن تشعر حول مبنى قليل الارتفاع، مزدانٍ بتماثيل، فحسبته كنيسة. وسلكت من هنالك شارعاً، وهي ما تزال مذهولة من صخب السوق، فمضت فيه صعداً وهي تلقي النظر يمنة ويسرة على الدكاكين بنوع من الاهتمام المتكلّف الذي يجعلها تقول داخل نفسها: "عجباً، محلّ ساعات؛ وهذا مخبز!"، وكأنّها حسبت نفسها ملزمة بالاستفادة من سفرها لتلاحظ كل شيء وتتعلّم.

ظهرت منازل الشارع الرئيس، في عصر ذلك اليوم الذي احتجبت شمسه، بمظهر كئيب، بنوافذها مرفوعةِ الستائر، حريصةً على التقاط آخر شعاع من نور لا يكلّف شيئاً. عُلـِّقت على الأبواب كلها، لوحةٌ معدنية صغيرة تحمل اسماً مدوّنا بأحرف صغيرة يبدو أنّه يحرس العتبة من تطفلات الأجانب. كانت السطوح ذات الميلان الشديد تنحدر كثيراً على نوافذ الطابق الأول مثل القبعة التي يُنزِل المرءُ حافتها على عينيه حتى لا يعرفه أحد. كان تعبير الارتياب نفسُه الظاهرُ على تلك المنازل هو الذي رأته أدريين على الوجوه قبل قليل. أحسّت به فحثّت الخطا. ما كانت لتقبل، مهما كان الثمن، بأن تطلب من أحد أن يدلها على فندق، مفضّلة أن تبحث كيفما اتفق وأن تستثير في عيون المارة تساؤلات صامتة وشبه عدائية.

عثرت على واحد في طرف الشارع. إنّه منزل من أفقر المنازل المجاورة رغم أنّه أكبر منها ويفقد كل طابع له بفعل بابه الذي يظلّ مفتوحا. ألقت نظرة على الواجهة حيث تعلن حروف بحجم غير لائق عن اسم الفندق، وحيث النوافذ المفرطة في ضيقها وكثرة عددها تضفي طابعا من الهشاشة

على المبنى كله. ودخلت. كان لهبٌ أزرقُ يضيء إضاءةً رديئةً دهليزاً طويلاً، سلكته حتى مكتب جلست فيه امراة سمينة تقرأ جريدة بجوار سراج. تراءى للفتاة أنّها دخلت في شبه متاهة ما عاد بوسعها الخروج منها. ولمحت عبر بابٍ نصف مفتوح، قاعة طعام طويلة غارقة في نصف عتمة المساء، لكنّها ميّزت بوضوح الموائد الصغيرة بأغطيتها البيضاء المحيطة بالمائدة البيضوية العملاقة المخصصة للنزلاء العابرين. وبدا الأمر كانّ أحداً قد قال لها: "إنّما مكانك هناك" فطلبت غرفة.

ألقت المرأة السمينة بطاقة تحمل رقماً وأعطت مفتاحاً للنادل الذي حمل حقيبة أدريين وصعد بها درجاً. فتبعته أدريين. صعدا طابقين وسلكا ممراً ليتوقفا أمام باب قام النادل بفتحه. قال : "تفضلي". ووضع الحقيبة عند طرف السرير.

اضطرّت أدريين لأن تبذل جهداً كي تدخل. بدت لها رهيبة، تلك الغرفة الضيّقة المفروشة بالأحمر الغامق. حين عبرت العتبة، تذكّرت من غير أن تدري السبب، وجه الطفل الذي رأته على نافذة الدكتور، كان وجهاً شاحباً وأبيض تقريباً، وخامرها إحساس يصعب تحديده، بأنّ ذلك الطفل يدخل بصحبتها.

بعد أن أغلق النادل الباب وراءه، مضت حتى آخر الحجرة ولبثت واقفة، واضعة كفيها على طاولة صغيرة مركونة تحت النافذة. ما كان يسعها أن ترى سوى سطوح المنازل المواجهة وسماء بلا لون تزداد عتمة بين دقيقة وأخرى. سبّب لها ذلك المنظر انقباضاً في القلب جعل عينيها تغرورقان بالدموع، لكنّها ضبطت نفسها. تمتمت قائلة: "لا ينبغي لي أن أستسلم". كانت قطيفة غطاء الطاولة رخوة الملمس تحت أصابعها. وضايقها ذلك الملمس فرفعت يديها كأنما قد وضعتهما على شيء قذر.

جلست على كنبة مستديرة الظهر وتأمّلت أثاث غرفتها. هنالك سرير حديدي كبير مغطى بلحاف أحمر يحتل القسم الأكبر. وتقوم في زاوية أخرى، قرب الباب، خزانة صغيرة مجهزة بمرآة، من النوع الذي تنتج منه المخازن الكبرى أعداداً بالآلاف، تعكس الصورة الكئيبة لجدار مخطط باللون الوردي والأحمر، وطشت فوق نوع من ركّابة حديدية. ذلك هو كل شيء. كانت

تصعد من السجادة والستائر رائحة غبار. ونهضت أدريين. لم تشأ أن يستولي عليها ما في تلك الحجرة من منفرٍ وكئيب. وهي من ناحية أخرى مرهقة، فلم تشأ ان تبحث عن غرفة أفضل. والساعة قد تجاوزت الخامسة. وبعد أن أعملت التفكير هنيهة، فتحت النافذة فخلعت حذاءها وتمددت على السرير لتأخذ قسطاً من الراحة ريثما يحين وقت العشاء.

اندسّت تحت اللحاف وجهدت في أن تغفو، لكنّ وجع رأسها منعها من ذلك. فمنذ بضع دقائق وفكرة واحدة لا تفارقها، إنّها فكرة جنونية راودتها طيلة بعد الظهر، وقد اتضحت أخيراً في دماغها. فلِمَ تشعر بهذا الحرّ كله؟ هل هي الحمى؟ وجهها يلتهب. كانت ترتعش في الشارع لأنّ الجو فيه بارد، لكن ما الذي يجعلها ترتعد على هذا النحو وهي تحت ذلك اللحاف الثقيل من الريش؟

قالت بصوت خافت "هونّي عليكِ، هونّي عليكِ"، عسى أن تطرد فكرةً تراودها، لكنّها لم تتوصّل إلى ذلك. فكلّما بذلت جهداً في سبيل التحرر، أحسّت بخوف منفِّر يتعاظم داخلها، فصالبت يديها تحت اللحاف وعكفت على التفكير في شيء آخر، لكنْ ما عاد خيالُها يطاوعها، فهو يستجرّها إلى حيث تخشى أن تمضي. وفجأة انقلبت الفتاة ووجهها إلى المخدة، وألصقت كفيها بأذنيها. هنالك فرط من الذكريات ينهال على ذاكرتها، فغدت بسببها شبه مختنقة. تمنّت أن تتلاشى وسط نوم عميق، وأن تفقد الإحساس بذاتها لساعات، بل ربما لأيام، عسى أن تُفلِت من رؤيا تطاردها منذ الفطور وقد أمسكت بها أخيراً فاستولت عليها.

صعدت إلى شفتيها، على حين غرة، الكلمات التي احتبستها داخلها وقتاً طويلاً جداً فانطلقت من فمها مع نشيج: "لقد أُصبت بداء جيرمين!" وتلوّت في السرير ثم انقلبت على ظهرها رافعة قبضتيها إلى فمها. كان رأسها على المخدّة يتقلّب يمنة ويسرة وهي تطلق صرخات صغيرة تسعى جاهدة إلى كتمها بمنديلها.

قفزت من السرير وهرعت إلى الخزانة. كان خداها الحمراوان وتسريحتها المشعثة تضفي على هيئتها المزيد من الهلع. ارتجّت دموع على حوافي رموشها. نظرت لبرهة إلى نفسها في المرآة، ثم مشت إلى النافذة. أضحى الجو معتماً أكثر بكثير، لكن ما من دكان واحدة مضاءة. هنالك أناس عائدون من السوق زرافات صغيرة، دون أن يتبادلوا الكلام. ويتجاوب الصدى في الشارع فيزيد من وقع أحذيتهم الضخمة على الحجارة. فتحت النافذة بعنف وانحنت إلى الخارج. إنّ هذه المدينة ترزح تحت عبء حزن بغيض. ومع ذلك فلا يسعها الهروب، فقد قُبِض عليها، وينبغي أن تبقى في درو، وأن تمضي فيها ليلاً طويلاً. ما الذي دعاها إذن لأن تغادر لاتور ديفيك؟ لكن بدا لها أنّها قد قامت بهذه الرحلة على الرغم منها وأنّ شيئاً فائق القدرة قد أجبرها عليها.

أما وقد أسدلت إحدى يديها على تنورتها، فقد شعرت بأنّ ملابسها رطبة. كانت سترتها التي لم تخلعها مبللة على الكمّين والكتفين. وتلمّست قدميها. كانتا مجمّدتين. راودتها الفكرة في خلع ملابسها تماماً، وأن تفرك جسمها بمنشفة، لكنّ منظور البقاء حبيسة في هذه الغرفة حتى الغد أفزعها. فصممّت، بخلاف ذلك، على أن تذهب لشراء أدوية من عند الصيدلاني. هدّأ ذلك القرار من روعها. فهي سوف تتمكّن على الأقل من التحدّث إلى أحد الناس وأن تزيح شيئاً من العبء عن قلبها.

دسّت شيئاً من الورق في حذائها، قبل انتعاله، لأنّه كان مبللاً، وخرجت.

لم يكن الطقس بارداً على قدر ما خمّنت وأضحت الأرصفة جافة. وبعد أن سلكت الشارع الرئيس لبعض الوقت وقعت على صيدلية. فتحت الباب من غير تردّد. فخجلها رضخ حيال الرغبة في الاطمئنان وفي الشفاء، إن كان ذلك ما يزال ممكناً. وليس أمامها من ثانية واحدة تضيعها. لكن ما إن أضحت في حضرة الصيدلاني، وهو رجل عجوز، حتى لم تعد تدري ما تقول له. فكيف توضح له مخاوفها؟ سوف يرسلها إلى طبيب. قالت له فقط إنّها تعاني

من زكام وقد أسفت على تلك الكلمات وهي تتفوّه بها. فلم لا تقول له الحقيقة؟ قد يكون من شأن هذه الكذبة أن تودي بها.

فسألته وفي رأسها دويّ: "هل تعتقد بأنّ ذلك خطير؟"

فنظر إليها كمن ينظر إلى مجنونة.

وكرّر القول: "خطير؟ منذ متى أنت مصابة بذلك؟"

أوضحت له أنّها مصابة بالحمى منذ الظهيرة. أحنى رأسه وتوارى وراء خزانة كبيرة مثقلة بالعلب والقوارير. سمعته بعد قليل يفتح حواجل ويلقي بأوزان في ميزان. إنّه رجل قصير القامة وملتح، مقوّس الظهر بسبب السن، يؤدي كافة حركاته بدقة تثير السخط. وقعدت، ثم نهضت ونظرت إليه عبر القوارير، لقد وضع في مربّع من الورق شيئاً من مسحوق أبيض كان يسقطه في كفّة الميزان بكثير من التأنّي.

قالت بصوت جعله الانفعال يرتعش قليلاً: "لا شك في أنّ الأمر لن يكون ذا بال؟"

لم يجب على الفور.

ثم قال لها بعد أن وزن المسحوق: "سوف أعطيك شراباً".

مرّت أيضاً بضع ثوان. صنع صرّة فأغلقها، ودوّن عليها كتابة غير مقروءة. ثم تناول زجاجة وردية اللون فتفحّص علامتها.

سألت أدريين بجهد يرمي لأن يعبّر عن برودها: "إذن أنت تعتقد بأنّ ذلك لن يدوم؟"

وضع يداً على الزجاجة ورفع نحو أدريين عينين حذرتين. لا ريب في أنّه يخشى أن تغيّر رأيها.

قال: "يتعلق الأمر بطريقة تناولك العلاج. فهذه العلل لا توقَف إلا في بدايتها".

- لكنّي بادرت في وقت مبكر.

قالت أدريين ذلك متضاحكة كأنّما تنوي الاعتذار عما يمكن أن يكون وجد من صبياني في قلقها.

- أنت تخشين أن يكون في ذلك ما هو أكثر من زكام؟ هل ذهبت إلى طبيب؟

هزّت رأسها نفياً.

- واقع الأمر أنّي لست مريضة جداً.

رنّت تلك الكلمات في أذنيها رنين جرس إنذار: فلطالما سمعتها من فم جيرمين. تناولت الزجاجة من يد الصيدلاني وسألته عن ثمنها، فقال: "أربعة فرنكات".

أضاف على الفور حيال شيء من الدهشة بدا على ملامح أدريين:

"ليس من مرض كبير بلا بداية صغيرة. فما تنفقين من جهة ، ستكسبينه من جهة أخرى. يسعك مع هذا الشراب وهذا المسحوق أن تكوني مطمئنّة".

ذلك ما كانت راغبة في سماعه. فدفعت ثمن الدواء وخرجت.

انتهت من العشاء قبل دقائق لكنّها لبثت جالسة إلى المائدة الصغيرة التي أعطوها إياها قرب النافذة. لم تتخذ قرارها بالنهوض لتصعد إلى غرفتها عبر تلك الممرات الطويلة الضيقة. وحتى قبل العشاء، لم تشعر بالقدرة على ذلك فأمضت ساعة في الصالون بإضاءته الرديئة حيث كان أناس يدخلون، فينظرون اليها نظرة تساؤل، ثم يخرجون من بعد أن يبعثروا كدسة المجلات التي تغطي وجه طاولة من الأبنوس المزيّف.

لقد تناولت الشراب والمسحوق، وهي الآن في حال أفضل. كان من شأن كلمات الصيدلاني أن هدّأت من مخاوفها قليلاً، لكنّ العزلة التي تعيش وسطها منذ الصباح تثير أعصابها. فالسؤال نفسه لا يني يتردّد في ذهنها، لمَ هي هنا؟ وماذا جنت من مغادرتها لاتور ديفيك؟

غادر الرواد قاعة الطعام الواحد تلو الآخر. تناول شاب يضع نظارة طعامه غير بعيد عنها وقد حياها بانحناءة خفيفة من رأسه وهو خارج. ردّت على تحيته. كانت راغبة عن طيب خاطر في تجاذب أطراف الحديث مع

أحدهم، حتى مع النادل الذي يتولى خدمتها فيوجّه نظره أحياناً ناحيتها، كأنّه يريد إفهامها أنّ الوقت تأخر وأنّ عليها أن تنصرف، بل ترغب في الحديث الآن حتى مع عامل مونفور.

نهضت أخيراً وتوجهت صوب الباب حين جاءتها فكرة الخروج. فقد توقف المطر منذ ساعة وملابسها الآن جافة. فسوف تؤخّر، على هذا النحوعلى الأقل، اللحظة المقيتة التي سيتوجب عليها فيها أن تدخل إلى غرفتها. ارتدت قفازيها ووضعت القارورة والمسحوق على المكتب وخرجت.

هنّأت نفسها وهي خارجة، على الفكرة التي جاءتها للقيام بجولة. فالساعة لمّا تبلغ التاسعة والليلة بهيّة. كان الشارع غارقاً في ذلك الضوء العجيب الذي يلقيه القمر حين يكون في ذروة اكتماله، فهو فائق البياض، بل أخضر تقريباً. فما من غيمة واحدة تعكّر السماء، فكأنّ لذلك المنظر أن يوحي بالاحترام للأرض، والمدينة الصغيرة غارقة في الصمت.

سارت أدريين في الشارع نزولاً من غير أن تصادف أحداً. توقفت، حين وصلت ساحة السوق، مأخوذة بالتغيير الذي حملته الساعة إلى هذا المكان الذي بدا لها أول الأمر كئيباً جداً وقبيحاً. فقد رُفعت كافة الخيام والتخشيبات التي أقامها باعة الخردوات والخضار. انصرفت العربات أيضاً. فالساحة فارغة تغطيها برك كبيرة من الماء يتجوّل فيها القمر على مهل. هنالك بناء حديث يحدها من الشمال، تليه بيوت صغيرة وأشجارتشكل حولها شبه زنار، حتى المبنى الذي ظنته أدريين كنيسة لأنّه مزدان بالمنحوتات، لكنّه ليس سوى بقايا السراي القديمة. ويتخذ منظره شكل البرج الرئيس في قلعة تعلوه قبة مرقب، وقد أسبغ على تلك الساحة، في ضوء القمر، جواً رومنطيقياً أحدث في نفس الفتاة أعمق الأثر.

أسرها جمال المكان فأمّن لها وقتاً من الهدوء نسيت فيه همومها. ولبثت هنيهة ساكنة حتى لا تعكّر الصمت الرائع بضجة وقع خطاها. تذكّرت في عودة مباغتة إلى ذاتها بعض أيام طفولتها. هنالك ساعات كانت فيها سعيدة

لكنّها لم تضعها في حسبانها وقد لزمها انتظار هذه اللحظة من حياتها لتعي ذلك. كان على ذاكرتها أن تستعيد مئات الأشياء المنسيّة، حيال هذا البرج المهدّم الذي يضيئه القمر، أو أحاديث دارت مع رفيقاتها، في حديقة سانت-سيسيل المشجّرة. جاءتها تلك الذكريات على غير انتظام، لكنّها كانت على درجة من المباغتة حتى أحسّت بصدمة منها، وهي تشعر في هذا المساء بأنّها على درجة من الوهن حتى يكفيها القليل لتحريك كوامن نفسها. فلِمَ لمْ تعد تعرف تلك السعادة التي تُغدَق على آخرين بكل سعة؟ وتولاها اندفاع موجع نحو ذلك الشيء الذي لم يعد بحوزتها والذي تجعله الذكرى شديد الحسن ومرغوباً جداً.

تنهّدت بعمق ومشت بضع خطا على الرصيف الذي يحيط بالساحة. دقّت ساعة البلدية الساعة التاسعة، تلتها ساعة الكنيسة. ونبحت كلاب في البعيد. توقفت فرفعت رأسها ونظرت إلى النجوم. كانت على درجة من الوفرة لم تقوَ معها، حتى وقد اختارت قسماً من السماء، على تعداد الكواكب فيها. فتلك الآلاف المؤلّفة من النقاط ترتعش أمام عينيها مثل حفنات من الأزهار الضئيلة البيضاء فوق صفحة ماء سوداء فاحمة. تذكّرت أغنية كانوا يجعلونها تغنيها في الصف:

... السماء المزروعة بالنجوم...

كان ينبغي رفع الصوت فجأة عند كلمة **نجوم** وهذه العلامات الموسيقية الثلاث، الصعبة جداً في التقاطها، والمغرقة في البعد، كانت تعبّر عن نوع من الحنين على درجة من العذوبة أحسّت معه وهي تتذكّره بأن قلبها يتمزّق. فرفعت كفيها إلى عينيها وبكت.

أستأنفت سيرها بعد قليل فسلكت شارعاً يتفرّع عن الساحة وهي تظنّ أنّه الشارع الرئيس. لكنّها أدركت خطأها بعد قليل. فالشارع الذي سلكته يؤدي إلى خارج المدينة. ارتدّت على أعقابها ، فسلكت شارعاً آخر، رأت في

نهايته شكل البرج الضخم، فقررت أن تعود إلى الساحة مرة أخرى لتكون على يقين من أنّها لن تخطىء، ومن هناك تستطيع العثور على دربها بسهولة.

مشت مشية بطيئة، غير عابئة بالرجوع إلى غرفتها، وفيما كانت تمرّ أمام مقهى، خرج منه عامل. كان شابا. لقد أُتيح لها أن ترى وجهه وقد أضيء بقوة بالنور الضارب إلى الصُفرة، رأت عينيه وبياضهما يلتمع، ووجنتيه الجرداوين الضامرتين قليلا. حين رآها توقف فنظر اليها، ويداه في جيبيه. عبرت الشارع على الفور وشرعت تسير بسرعة أكبر قليلا، فسمعته يسير وراءها. كان ينتعل خفين لا يكاد يُسمع الوقع الذي يحدثان على الحجارة. كانت مشيته سريعة. تولاها الخوف لأنّه لم يقل شيئاً. بدا لها أنّه لو صاح بشتيمة أو بتهديد لاطمأنّت. بعد لحظة راودتها فكرة النداء والاستغاثة، لكنّ الخوف من إثارة السخرية منعها من ذلك. كذلك لم تجرؤ على الركض. قد يكون من شأن ذلك أن يمنح ذلك الرجل المزيد من الجسارة. حثّت الخطا، مشت بخطوات كبيرة. وبدلاً من مواصلة السير قدماً حتى الساحة، انعطفت في زقاق، هو أول ما صادفت على يمينها.

هنالك أدركها. استدارت بغتة، فقالت وظهرها إلى الجدار: "إمضِ في طريقك!" لكنّه وقف ثابتاً أمامها. كانت قبعته المائلة على رأسه تكشف عن شعر أسود يلمع لمعاناً معدنياً. كانت قسماته واضحة تماماً، فبدت عيناه سوداوان. وتخفق حول عنقه ربطة حمراء فتزيد في ظهور بياضها. ضحك بصوت خافت.

سألها: "ممّ أنت خائفة؟" تشنّجت يد أدريين على قبضة مظلتها.

قالت: "دعني وشأني أو أصرخ".

نظر إليها الشاب هنيهة ثم نهز بكتفيه. قال:

"لم أكن أنوي الإساءة إليك".

ومضى في سبيله. سمعته يبتعد وهو يصفر لحن فالس شائع. اغتبطت بداية الأمر لأنّها تخلّصت من ورطة، ثم داهمها الندم مداهمة مباغتة. فقد جاء

أحدهم اليها وهي في عزلتها فرفضته. ألأنّه كان يرتدي مبذلة، وقاربها من غير أن يعرفها؟ تذكّرت صوته الرصين قليلا، وشبه الحنون، كأنّما تتذكّر شيئاً أضحى مغرقاً في البعد حتى أنّها لن تستطيع لقاءه أبداً. وإذا ما عاد هذا الرجل فلسوف تبادله الحديث بكل تأكيد، لكن هل سيعود؟ ألم تثبّط همّته؟

عادت فصعدت الزقاق في الاتجاه الذي سلكه، لكنها حين بلغت نهايته وجدت رهن اختيارها شارعين متفرّعين. لم تعد الآن تسمع شيئاً، فهو لم يعد يصفر. اختارت أحد الشارعين كيفما اتفق لها، ومشت بسرعة أكبر. كان قلبها يخفق. تمتمت: "إذا ما كان في دربي، فسوف يكلمني وأجيب." وعبر انعطاف لم تتوقعه، أعادها الشارع إلى الساحة. أتاحت لها نظرة واحدة أن ترى أنّه ليس هنالك من أحد. لا بدّ أنّه سلك الشارع الآخر. ربما تستطيع اللحاق به لو ركضت، لكن أنْ تركض! أرغمتها هذه الفكرة على التفكير فيما كانت تفعل. بدا لها أنّ نظرة جيرمين المرتابة قد وقعت عليها. تسنّدت على حاجز ملحمة فالتقطت أنفاسها قليلا، إنّها تقوم الآن بما كان أبوها وأختها يتّهمانها به زوراً فيما مضى، إنّها تسعى وراء رجل، وبدا لها أنّ هذا العمل، تتصل به اتصالا غامضاً، كلّ بشاعة المشهد الذي كانت تُقسَر على الخضوع له، حين كان العجوز والمريضة يستجوبانها ويلوّعانها، وحين كانت تتبيّن في أعماق عيونهما النَّهِمة الأفكار القذرة التي لا تجرؤ شفاههما على النطق بها تماماً. ثم ذهب شيء ما بداخلها، على حين غرّة، بتلك الوساوس كلها. وجدت نفسها داخل عزلة بلا إسم، محرومة من الصداقات العادية جدا. لم تكن راغبة في اقتراف الشر، بل أن تتكلّم فقط، وأن تسمع صوتاً يردّ على صوتها، وأن لاترجع إلى فندقها الكئيب من غير أن تكسر حاجز صمت النهار، إلا بكلمات **شكراً** و**مرحبا**. وبدت لها فكرة الغرفة التي ستمضي الليل فيها مبرراً لما كانت بصدد القيام به.

كفّت عن التساؤل وواصلت دربها، سالكة هذه المرة شارعاً ينبغي كما رأت أن يقرّبها منه. وركضت، فذلك يمنعها من التفكير. كان رجع خطاها

يتردّد في سكون الليل بضجة أقلقتها فجهدت لأن تركض على رأس قدميها، لكنّ تعبها يتزايد من ثانية لثانية. يضاف إلى ذلك أنّها لم تتعرّف إلى دربها، ولاحظت أنّها ماضية على غير هدى وأنّ المواصلة لا طائل وراءها. لم تتوقف رغم ذلك، ومضت في الشارع حتى نهايته، ثم سلكت آخر لتجد نفسها بعد قليل في نوع من باحة مغروسة بأشجار الحور التي ما زالت أوراقها السميكة محتفظة بنداوة المطر فتنشرها في الجو مع عبقها. هنالك قطعت الأرض المبللة وبرك الماء سيرها. فجلست على أحد المقاعد.

كان قلبها يخفق بشكل موجع، ويدق دقات قوية ينعكس أثرها على جسمها كله. وكانت تشعر بعنفها حتى أعماق أحشائها وفي شرايين عنقها. قالت لاهثة: "ركضت بسرعة فائقة". انحنت نصفين، فاعتمدت على مظلتها التي غرست رأسها في الأرض، ويداها تمسكان بقبضتها، مثل عجوز منهكة. ونظرت ببلاهة إلى حذائها وأسفل فستانها من الصرج الأسود وقد تلطخ بالوحل. كان ينطلق من فمها لهاث يشبه الأنين، وكان لسانها جافاً. لبثت على ذلك النحو بضع دقائق، عاجزة عن النهوض رغم الرعدات التي اعترتها والهواء المنعش الذي يجفف حبات العرق التي تتدحرج على عنقها. رزح على كتفيها تعب رهيب. فكأنّهم غرسوا رأس عصا في كل واحد من عظم كتفيها. وكان رأسها فارغاً.

نهضت أخيراً فوجدت، من غير أن تدري كيف، طريق فندقها.

أخذت قارورتها والمسحوق من مكتب الفندق وصعدت بمشقة إلى غرفتها، فوضعت أدويتها هنالك كيفما اتفق، وارتمت فوق سريرها من غير أن تكلّف نفسها عناء إشعال قنديل الغاز. لم تشعر قط بالرغبة في النوم مثلها هذا المساء. فأصغر حركة تكلّفها جهداً، لكنّها حمدت ذلك الإرهاق، فبفضله تشوّش كل شيء في فكرها. إذ لم تكن قادرة على صياغة عبارة واحدة منطقية.

غرقت على الفور في أعمق نوم. لقد استلقت على اللحاف الذي ارتفع حول جسمها كله ارتفاع موجات مستديرة وساكنة. وحين استقرّ رأسها

فوق المخدة انزلقت قبعتها إلى الخلف. انثنت ساقاها تحتها وأبقت ذراعيها ممدودتين وقد وضعت كفاً فوق كف. كان كل ما في شخصها ينمّ على حالة من الإنهاك التام، إنّها تتنفّس بصعوبة. كان رأسها نصف غارق في الوسادة، لكنّ صدرها يرتفع أحياناً بقوة أكبر، في جهد من الرئتين اللتين لا يملؤهما الهواء.

رسم ضوء القمر، الداخل بحرية من النافذة التي لم يُغلَق مصراعاها، مستطيلاً على الارض عند طرف سرير أدريين، فأسبغ على السجادة وأرضية الغرفة ذلك الصباغ العجيب الذي يبدو على الدوام مصنوعاً من ألوان ميتة. وما من نأمة تصل من الشارع أو من داخل الفندق.

كان قد مضى نصف ساعة على نوم أدريين حين رأت جيرمين داخلة. لم تسمع الباب ينفتح لكنّها رأت أختها تمرّ قرب سريرها. لم تنظر جيرمين إليها. بل مشت بخطوة ثابتة نحو الموقد حيث وضعت أدريين الأدوية. أمسكت الفتاة العانس بالقارورة فتفحّصتها، إنّها ترتدي ملابس سوداء كعادتها ولا تضع قبعة. كان على قسماتها شيء يصعب تحديده ويشبه ابتسامة، لكنّها بالأحرى هيئة شخص يتعرّف على غرض مألوف لديه، إنّها تمسك بالقارورة بيديها الاثنتين، فتبدو تارة وهي تقرأ العلامة، وتارة أخرى وهي تتفحّص لون محتواها. هزّت رأسها بعد قليل من الوقت ونظرت ناحية أدريين لأول مرة، لكنّ الفتاة لم ترَ تماماً هذا الوجه الذي التفت صوبها لأنّ جيرمين تدير ظهرها للضوء. مرّت بضع ثوانٍ. لم تتحرّك العانس وكانت تحمل القارورة على نحو يجعل ضوء القمر يخترق الزجاج فوق العنق فيبدو أنّه يشير إلى كمية السائل التي شُرِبت. أخيراً قامت بوضعها فوق الموقد بكل تأنٍ كأنّما خشيت أن تعكّـِـر صفو الليل، ولم يبدُ أنّها ألقت نظرة استخفاف بصرّة المسحوق الموضوعة بجوار القارورة. ثم توجّهت قريباً من النافذة فتأكّدت من أنّها مغلقة. كانت تقف أمام النافذة تماماً، بين الستائر من القطيفة البنّية، أما ظلها الثابت، المتمدد وسط المستطيل الطويل، مثل جسد في نعشه، فهو أطول بكثير من جيرمين التي بدت قصيرة جداً. وبدت هي نفسها مأخوذة بتأمّل السماء

السوداء التي كانت كل نجمة فيها مرئية عبر تول سجف الستارة. والقمر يلقي بلمعانه على كتفيها وعلى شعرها الذي سرّحته بعناية. مرّ بعض الوقت من غير أن تؤاتي بحركة، إلا أن أدريين كانت تستطيع فقط أن تسمع الصوت الخفيف الذي تحدثه أحياناً وهي تفرك إحدى راحتيها بالأخرى، بحركة لايتبدّل لها وضع مرفقيها.

قد يقول المرء إنّها تنتظر شيئاً ما. استدارت على نحو مفاجىء كأنّ الباب قد فُتِح ومشت بخطوة سريعة ناحية القسم من الغرفة حيث تقف أدريين، لتكون في لقاء قادم جديد. وفي تلك اللحظة رأتها أدريين. كانت على درجة فظيعة من الشحوب، تسير وهي مغمضة العينين. وهنالك تراب على شعرها وعلى مقدّم صدارتها يتناثر منه على السجادة مع كل خطوة تخطوها، لكن التراب يعود دوماً كأنّ يداً مسيئة وغير منظورة قد رمته على وجهها. انتظرت هنيهة بجوار الفتاة. كانت يداها مضمومتين ولا تؤاتيان بحركة.

مرّت دقيقتان أو ثلاث. لم ينفتح الباب، لكنّ أدريين أركت فجأة أنّ أحدهم قد دخل. فهمت ذلك أولا من حركة شفتي أختها التي كانت تتكلّم من غير أن يُمكن سماع ما تقول. ثم أدركت أن أحدهم قد مرّ بين جيرمين وسريرها ورأت الفتاة العانس تتوجّه صوب الخزانة. مكثت طويلا أمامها وهي تتكلم وتشرح شيئاً ما للشخص غير المرئي الذي يقف بجوارها، والذي لا يمكن أن يكون في ذهن الفتاة سوى أبيها. وفي تلك اللحظة تخبطت أدريين بشدة حتى استيقظت.

جلست في سريرها وتطلّعت فيما حولها. كانت صرخات تصعد إلى حلقها لكن لا يخرج من فمها إلا شبه حشرجة. وذهلت وهي لا ترى من فارق بين هذه الغرفة وغرفة حلمها، فبحثت بعينيها عن جيرمين في مرآة الخزانة وعن ظلها في المستطيل الذي يلقي به القمر على السجادة. بعد أن استيقظت تماما وهدأ روعها قليلاً، قفزت من السرير وأضاءت قنديل الغاز. الساعة لمّا تبلغ الحادية عشرة. ملأت الطشت ماء فغمرت فيه وجهها، ثم فتحت باب

الخزانة وألقت فوقه بالوشاح الذي تضعه على كتفيها، كي تحجب المرآة التي كانت تخيفها.

وتمتمت: "كنت أشعر بحرّ شديد. ما كان علي أن أنام من غير أن أخلع ملابسي. فيا له من كابوس!"

وضحكت. كان الهواء ثقيلاً في تلك الغرفة التي لم تُفتح نافذتُها منذ خمس ساعات أو ست. كان تنفّسها صعباً كما في نومها. وفجأة سعلت. فنهضت بسرعة ونظرت إلى نفسها في المرآة التي تعلو الموقد. لقد هرب الدم من وجهها، واتخذ خداها تحت ضوء الغاز لوناً كئيباً. سعلت مجدداً ورأت نفسها في المرآة وهي تسعل. فأصابها ذلك المشهد بذعر فظيع.

قالت بصوت خافت: "هذه هي البداية، إنّها النوبة الأولى".

فكّرت هنيهة ثم أمسكت بقارورة الشراب الموضوعة أمامها وشربت من فوهتها. تقزّزت من ذلك الشراب السميك. ابتلعت جرعة ثم نظرت إلى العلامة بهيئة قرف. حين وضعت القارورة على الموقد ورفعت عينيها مجددا إلى المرآة، شاهدت الخزانة خلفها مفتوحة على مصراعيها. لم تتوقع ذلك فأطلقت صرخة توقتها بيدها. ماذا سيُقال إن سمعها أحد؟ طمأنتها قليلا فكرة أن يكون لديها جيران. ثم تيقّنت على الفور تقريبا من أنّه ليس لديها جيران.

قالت في نفسها: "أنا وحيدة في هذا الطابق".

أصغت إلى الصوت الذي يحدثه الغاز وهو يشتعل، في طرف مدلاة مجهزة بكرة من الزجاج الخشن، ثم بدأت تخلع ملابسها. وبينما كانت تفك صنارات قميصها، وذراعاها مرفوعتان أمام المرآة، تولّد لديها انطباع بأنّها قد قامت بهذه الحركات ضمن ظروف مماثلة تماماً، فتوقّفت، وتجمّدت بفعل ذلك النوع من الذكرى التي لم تعرف مصدرها لكنّها أخافتها. كان لون الغاز الفجّ والأصفر يقع على وجهها فيسبغ عليه مظهراً مسرحياً. فتحت فمها. ولبثت على ذلك النحو بضع ثوان، ومرفقاها مرفوعان فوق رأسها. خافت

الآن أن تؤاتي بحركة. كان الغاز يحترق بنوع من الدمدمة المستمرة والمنهمكة التي تملأ الصمت وبدت بطريقة لا تقبل التفسير أنّها مختلطة به.

حلّت بسرعة عقد شعرها وبذلت جهداً لهزّ الخدر الذي استولى على دماغها. لا بدّ من وجود أفيون في ذلك العقار الذي تجرعته. فبدا لها أنّها ستستأنف الوقوع في كابوسها بعد قليل، حتى وهي متيقّظة، ومن ناحية أخرى فإنّها إن استغرقت في النوم، فسوف تلقى تلك الرؤية نفسها التي أرعبتها. فجعلتها هذه الفكرة ترتعد. وتساءلت كيف ستمضي الليلة.

شعرت شيئاً فشيئاً بأنّها نهبٌ لخوف ليس لعزيمتها أمامه حَوْلٌ ولاطَوْل. كان كل ما في هذه الغرفة يضايقها أو يفزعها: بدت لها الخزانة فظيعة، مفتوحة كانت أم مغلقة، بالذكريات التي توقظها في نفسها. حاولت ألا ترى الكنبة الصغيرة ذات الظهر المستدير التي لامستها أدريين بتنّورتها، ولم تتحمّل فكرة العودة إلى ذلك السرير الذي أوشكت، وهي فوقه أن يُغمى عليها من الرعب. كلما ابتعد حلمها عنها أكثر، بدا لها حقيقياً أكثر. كانت تعيش مجدداً كافة لحظاته، وهي تعرف أنّه يكفيها إغماض عينيها لكي يقترب وجه أختها على الفور من وجهها ولكي تشعر بحضور ذلك الشخص الاخر الذي انتظرته جيرمين.

كان قلبها يخفق بسرعة. فاستدارت فجأة وظهرها إلى الجدار، وواجهت الغرفة على نحو لا يمكّن أحداً من الوقوف خلفها، لكنّها أدركت أنها أخطأت بقيامها بتلك الحركة، لأنّها بدلاً من أن تهدّىء من روعها، سوف ترفع فزعها إلى درجة حادة. وما كان لها أن تبوح لنفسها على ذلك النحو بأنّها خائفة. لبثت دقيقة وراحتاها ملصقتان بالجدار، متنبّهة إلى أصغر نأمة وهي تكاد تخرج عن طورها. كان صوت تنفّسها هي يروّعها، وقد اعتقدت أنّه صوت لهاث شخص آخر، فهو لهاث غليظ وأجش.

دقّت الساعة منتصف الحادية عشرة. ما زالت هنالك خمس ساعات على الأقل قبل بزوغ الفجر. ليتها ظلت خارجاً! ليتها أمضت الليلة على ذلك

المقعد الخشبي، بين الزيزفون! راودتها الفكرة في أن تلبس مجددا، وأن تُعِد حقيبتها فتمضي. ستقول في المكتب إنّ السرير قذر، لكنّ الشجاعة خانتها. جعلتها رغبة في النوم لا تقاوَم، تهزّ رأسها، وكلّما سقط على صدرها، بدا لها أنّ جسدها كله تبع تلك الحركة فسقط، لكنّها تستدرك على الفور فتهزّ شعرها حينئذ بهيئة مرتاعة.

قررت في نهاية الأمر أن ترتدي مبذلاً وأن تفتح النافذة قليلا. فأصاب الهواء النديّ وجهها وأيقظها. تناولت دليلاً من حقيبتها فقلّبت صفحاته دون أن تتمكّن من العثور على ما تبتغي: كانت صور تخفق في ذهنها، فلا تتوصّل حتى إلى تذكّر ما تبحث عنه في الكتاب الصغير الذي كانت صفحاته الرقيقة جداً تنزلق تحت أصابعها المرتعشة. ورأت الدكتور مجدداً، حين نظر إليها هنيهة من داخل عربته. لكنّ تلك الذكرى طُرِدت من ذاكرتهاعلى الفور، وكأنّ الخوف الكامن في نفس الفتاة يحظر عليها التوقف عند الفكرة الوحيدة التي يسعها أن تجد فيها شيئاً من العزاء.

قالت في نفسها: "إنّما الأمر منوط بذلك".

شعرت بركبتيها تصطكان فحاولت أن تتذكّر وجه العامل الذي تبعها: كانت شفتاه ترتعشان، وقد استعادت حركتهما حين كلّمها، كاشفاً عن أسنان غير منتظمة تماما. لكنّ شيئاً صعد في داخلها بصخب، هو أقوى من تلك الذكريات المشوّشة التي تسعى لاستعادتها. كان الدم يضرب في صدغيها ضربات تتجاوب داخل رأسها. واعتقدت أنّها ستسقط، فتشبّثت بالسرير. كانت واثقة من وجود أحد وراءها، فقد سمعت لهاثاً أقوى من لهاثها، يأتي من فوق كتفها كما قبل قليل. وأُفلت الدليل من بين أصابعها. فانزلقت فوق السجادة وأخفت وجهها في كفّيها.

* * *

الجزء الثالث





-١-

حين رجعت إلى البيت، لم تكن ديزيريه قد جاءت. فالوقت مبكر. دخلت إلى الصالون وفتحت النوافذ. أنتزعت رؤية زيزفونات مدام لوغرا تنهيدة من صدرها. هل انقضى شهر أم يوم واحد على رؤيتها إياها؟ كم التغيير هو ضئيل في كل شيء!

كانت هنالك بطاقة من مدام لوغرا على الإسكملة. فقرأتها على الفور.

قالت صديقتها القديمة:

"يا حلوتي، أدعوك للاحتفال بالرابع عشر من تموز بصحبتي. أنا راجعة غداً، في الثاني عشر. أعمال السيد لوغرا تسير بشكل أفضل بقليل مما كنت أظن. مع مودتي. ليونتين لـــ..."

مزّقت البطاقة وألقت بقطعها تحت فتحة المدفأة. هنالك رسالة أخرى فوق الإسكملة. تعرّفت عليها فلم تمسك بها قبل أن تلبس قفازيها.

قالت رئيسة المصح حيث تُعالَج شقيقتها: "حضرة الآنسة". توقفت أدريين وتذكّرت حلمها. جعل الانفعال يديها ترتجفان. وواصلت القراءة:

"ليس لدي لحسن الحظ أنباء سيئة أحملها إليك عن أختك، لكنّ ذلك هو كل الخير الذي يسعني قوله عن صحتها. نأمل دوماً أن يردّ لها الجو شيئاً من قواها وأن ترتفع شهيتها للطعام. و إنّه لكسب كبير أنّ صحتها لم تتدهور.

رجتني أن أقول لك إنّها غيرت رأيها بشأن المال وأن لا ترسلي لها المبلغ الذي طلبته منك. فقد كتبت إلى موثّق العقود أن يرسل إليها ما تحتاج

من مال. وهكذا فليس لك أن تنشغلي بهذا الأمر. كذلك فإنّها تضيف بكثير من التعقّل، حسبما يبدو لي، إن كان لي أن أعبّر عن رأي شخصي، أنّ المبلغ الممنوح لك يزيد قليلا عما تقتضي احتياجاتك على ما يبدو، وانّها كتبت بهذا الشأن إلى الأستاذ بيرو. فلا تندهشي إذن، من استلامك هذا الشهر، مبلغاً يقل مئة فرنك عن الشهر الفائت".

وضعت أدريين الرسالة على الإسكملة قبل الانتهاء منها، وزمّت شفتيها. كانت هيئتها هيئة مُنهَكة. كأنّ حلقة تحيط بعينيها فتزيد من بريقهما، أما باقي وجهها فيعبّر عن مرارة عميقة. أحنت رأسها ولبثت ساكنة بضع ثوانٍ ، تنظر عند قدميها إلى شعاع شمس يمتدّ فوق السجادة. وبعد قليل أطلقت تنهيدة، ثم شرعت تروح وتغدو داخل الحجرة.

كان الطقس يميل للبرودة، لكنّ الشمس تنبىء بنهار جميل. كان شحرور يصفر في واحدة من أشجار الزان الصغيرة في الحديقة. فيتوقّف أحياناً كمن يريد العثور على لحن جديد، لكنّه حين يستأنف، يكرّر دوماً النغمات البهيجة نفسها، وتتباطأ الأخيرة بنوع من العجب بالذات. مكثت الفتاة فترة أمام النافذة، منجذبة انجذاباً غامضاً إلى ذلك الشدو الذي ذكّرها بأشياء كثيرة. تعوّدت، من بعد موت أبيها، أن تعود على الدوام إلى سنيها الماضية، لا سيّما أعوام طفولتها. فتغوص آنذاك في أحلام يقظة عميقة، تاركة لفكرها أن يمضي وفقاً لما تشاء ذكرياتها. كانت تأتي شحارير الى الحديقة، في كافة فصول الصيف تقريباً، في الساعات الأولى من الصباح، حين تكون المماشي ما تزال مقفرة. فتتجوّل هنالك كأنّها في بيتها، فتكون وهي سمينة وملساء، أشبه برهبان ممتلئين صحة. بل كان ذلك التشبيه على الأقل، هو الذي يرِد على لسان السيد موزيرا.

لاحظت أن الغرنوقيات تنمو نمواً جيداً، وأنّ المطر على ما يبدو قد زادها قوة. وأضحى العشب بحاجة للقص. رجعت إلى وسط الغرفة، فاقتربت من الإسكملة وقرأت الصفحة الأخيرة من الرسالة، مع تثبيتها للورقة بطرف

سبابتها. لم تزد الراهبة شيئاً ذا بال على ما قالت، منهية رسالتها بدعوات تقيّة لم تكلّف أدريين نفسها عناء المرور بنظرها فوقها. ما إن انتهت من القراءة حتى مزّقت الرسالة وألحقتها ببطاقة مدام لوغرا. ثم نزعت قفازيها وجلست إلى المكتب. وباشرت، بعد بضع دقائق من التفكير، بكتابة الرسالة التالية:

"عزيزتي جيرمين. أقترح أن نتفق، بوساطة الأستاذ بيرو، على مبلغ ثابت أستلمه كل شهر. فمن شأن ذلك أن يوفّر علينا مضايقات، حتى اليوم الذي أبلغ فيه سن الرشد، فأغدو قادرة أخيراً على التصرّف بمالي كما أشاء. أتمنى أن يكون هواء سان- بليز نافعاً لك وأن تستعيدي صحتك سريعاً. أختك أدريين".

أعادت قراءة الرسالة، وحرّكتها هنيهة في الهواء، لعدم وجود ورقة نشاف، كي يجف الحبر. وساعة همّت بطيّها ووضعها في مظروف، تراجعت عن رأيها فجأة فمزّقتها ببطء، أربع قطع. تشابكت يداها فوق الطاولة، ورفعت عينيها فثبتت نظرها على زيزفونات دارة لويزا التي يسعها أن تراها من مكانها. وجاء تجعيد صغير ليظهر على جبينها بين الحاجبين كأنّها متنبّهة للمشهد الواقع أمامها.

كان داخل نفسها نوع من المدّ والجزر لذكرى تملؤها بالأسى. وفجأة، تعود إلى ذاكرتها، من غير أن تقوى على معرفة السبب، كلمات قد سمعتها فيما مضى، وأقوال ليست بذات بال تبادلتها جيرمين وأبوها. وعبثاً تجهد في سبيل أن تحوّل ذينك الصوتين عن ذهنها، فتعوزها القوة. لقد دعمتها حتى ذلك الحين قدرة عصبية، لكن آثار ليلة من الأرق بدأت تظهر منذ بضع دقائق. لم تكن بها من رغبة في النوم. وبدا لها أنّ خدراً قد استحوذ على أطرافها، كذلك فإنّ دماغها المتعب لم يعد يستجيب لها. فهي فريسة لأية فكرة ولأي حلم. والأمر كأنما هو استحواذ على إرادتها. فقد أضحى مضنياً أن تحوّل عينيها عن الغرض الذي تنظر إليه.

بذلت بعد وقت قصير جهداً عنيفاً حيال نفسها فوقفت منتصبة. لقد أخافها ذلك النوع من الخدر الذي استولى عليها. نهضت فشرعت تتجوّل في الصالون.

تمتمت: "لم أعد أعبأ بشيء. الآن، لم أعد أعبأ بشيء".

توقفت عند النافذة ونظرت إلى الجناح الأبيض الذي يسعها أن ترى زاوية منه فقط. شغلها ذلك التأمّل بضع ثوانٍ ثم استأنفت غدوها ورواحها الذي كان يمضي بها من باب قاعة الطعام إلى باب البهو. كانت على الريق وتشعر بخفّة في رأسها. وأخذها خَوَرٌ على حين غرّة فانثنت ساقاها. سقطت على ركبتيها أمام الأريكة التي احتلت مكان أريكة جيرمين، فاستسلمت لنوبة من الدموع هزّت جذعها كله، فأخفت وجهها في ذراعيها وكررت بتوجّع:

"بأي شيء، أجل، بأي شيء."

بعد ذلك بساعتين كانت تجلس في غرفتها. لقد أفرغت حقيبتها وأغلقت خزانتها على كافة حوائج سفرها، واستأنفت حياتُها خط سيرها، وهي حياة العزلة التي تعوّدت عليها، والتي يبدو أنّها لن تقوى على تغيير شيء فيها. فما جنت من عملية انتقالها؟ ألم تكن مرغمة على الرجوع؟ وليتها رجعت بحالة نفسية أهدأ، وبعزيمة أقوى! لكنّها لم تفعل، بخلاف ذلك، إلا أن أمضّت نفسها، وغاصت إلى أعماق كآبة بعيدة القرار.

قالت مراراً وهي تضرب ركبتها بقبضتها: "ما عدت قادرة على العيش هكذا". لم تبدُ لها تلك الكلمات، بدلاً من أن تحرّضها على التصرّف، سوى تثبيت واقع لا يقبل التغيير. إلا أنّ السأم والقرف من الأفكار التي كانت تتلبّسها باستمرار جعلاها تبحث عن تسلية، أو عن شيء ما قادر على الأقل أن يشغل يديها.

أخرجت من خزانتها علبة قبعات قديمة من الكرتون، كانت تحفظ فيها كافة الرسائل التي تتلقاها. كان معظمها مرتباً كدساتٍ من عشر أو عشرين، تشهد على حرص أدريين في حفظها. كانت ورقة بيضاء، تحت الشريطة التي تلفها، تدلّ على السنة بأرقام أُحسِن تدبيجها وفقاً للمبادىء الأبوية. وهكذا فهنالك أربع رزم أو خمس: رسائل من صديقات في المدرسة، كتبت أثناء الإجازات؛ ورسائل أكثر ندرة، من أقرباء، لأنّه لم يكن لآل موزيرا سوى قلّة

قليلة من الأقرباء، وما كانوا يحرصون على تمتين أواصر القربى معهم. لذا لم يكن الأمر يتعلّق، في مراسلات أدريين مع أبناء عمومة من باريس أو من رين، بأكثر من خدمات بسيطة طلبوا منها أداءها. وهنالك أخيرا حوالي عشر رسائل ألقيت في العلبة بإهمال، ولمّا تقم بتنظيمها. إنّ تلك الأخيرة هي التي شرعت أدريين بتفحّصها. فواحدة جاءت من باريس، وثلاث من لاتور ديفيك نفسها، وأخرى من رين، إنّها رسائل تعزية بوفاة السيد موزيرا. ولم تستطع أدريين، حتى ذلك الحين، أن تقرر قراءتها، لكنّ عادتها في الاحتفاظ بالرسائل، كانت أقوى من عدم وضعها مع الرسائل الأخرى، حتى وإن لم تطّلع على مضمونها. لم تفتح رسائل الأقرباء، لكنّ تلك المرسلة من لاتور ديفيك أثارت حيرتها لأنها لم تتمكّن من التعرّف على خطها. مزقت أحد المغلفات بدبوس للشعر وسحبت منه بطاقة مذهبة على حوافيها ومعطّرة بعض الشيء: إنّها كلمة من مدام لوغرا. عقدت حاجبيها وقرأت" **المصيبة الرهيبة... صديقتك المخلصة**"، وبعد شيء من التردّد، مزّقت تلك البطاقة التي شعرت بالاشمئزاز من منظرها وعطرها.

كانت الرسالة الثانية من رئيس المحطة الذي عرف السيد موزيرا خير معرفة، وكان يَعتبِر بحق أنّه صديقه.

كانت الرسالة الثالثة مكتوبة بخط صغير ومتسرّع، تصعب قراءته، تحمل توقيع: دوني موركور. أطلقت أدريين صيحة تعجّب حين فككت الاسم واحمرّ وجهها بقوة. ارتجفت يداها ولم تستطع لبضع ثوانٍ أن تفهم الكلمات الواقعة تحت نظرها. إنّ مجرّد الفكرة بأنّ هذا الرجل قد وجّه اهتمامه شطرها، وكلّف نفسه عناء أخذ ورق رسائل وريشة، والتفكير بأدريين موزيرا، قد أثار شجونها حتى لم تعد تعرف هل هي سعيدة بذلك أم تعيسة.

كررت عدة مرات: "لابأس!" بلهجة من الدهشة العميقة، ثم مسحت الموع التي كانت تسيل على خديها وقرأت الرسالة. كانت قصيرة، ومتكلّفة بعض الشيء، لكنّ أدريين وجدت فيها من الرقة ما خطف لبّها. لقد فاتها تماماً معنى عدة جمل، فكانت تعيد قراءتها من غير أن تتوهّم ما جاء فيها، بل من

غير أن تبدو الكلمات ذات علاقة بعضها بالبعض الآخر. كانت الصيغة التقليدية في النهاية، هي التي أثّرت بشكل خاص، فلا تملّ من تلك "**العواطف المخلصة بكل احترام**"، محمّلة كل واحدة من تلك الكلمات دلالة خاصة وعميقة.

حين صارت في حال تسمح لها بقراءة الرسالة قراءة مفهومة أكثر، انخرطت في بكاء عنيف. قد يقال إنّ هذه الرسالة تمثّل عمل شفقة لا يمكن إنْ صحّ القول قياسه. وقامت، اعترافاً منها بالفضل، فرفعت الرسالة إلى وجهها وأطبقت بشفتيها على المكان الذي لا بدّ أن تكون يد الدكتور لامسته. تذكّرت فجأة البطاقة التي بعثت بها من مونفور-لاموري. لا بدّ أنّه استلمها. فما رأيه بها؟ شعرت بالخجل من فكرة أنّه قد يكون سخر منها، واغتبطت لأنّها لم توقعها. لكنّها شعرت بالأسف، بعد هنيهة من التفكّر، لأنّها لم تضع اسمها في أسفل تلك البطاقة. لا شكّ في أنّ ذلك قد يأتي بحل، أما عن تلك البطاقة المغفلة، ألنْ تجعل الموقف أكثر بلبلة وأكثر صعوبة؟

وتمتمت: "ما كنت سأجد الجرأة على التوقيع أبداً".

أعادت قراءة رسالة موركور ثم دسّتها في صدارتها.

تجوّلت طول بعد الظهر في الحقول. فالطقس دافىء وهي تأمل أن يساهم التمرين والهواء الطلق في شفائها من ذلك الضغط الذي تشعر به في صدرها. وتأتي أحياناً أعراض سعال قصير فتريحها، لكنّها تفزعها أكثر لأنّها ترى فيها إشارة لمرض بغيض، فتحرص على منعها من التكرار متخيلة أنّها ستشفى على ذلك النحو. لكنّها كانت راغبة خصوصاً في الاستفادة من طمانينة البال التي وضعتها فيها رسالة موركور. قد تكون كلمة فرح أقوى بكثير من ان تصف ما كان يعتمل داخل نفسها. فما يزال في قلبها قدر كبير جداً من الوجل، وقدر كبير من الحذر من المستقبل ومن نفسها حتى يتمكّن الفرح من الولوج إلى قلبها، لكنّها كانت تشعر بأنّها أكثر هدوءا.

حين رجعت إلى دارة الزان، علمت بأنّ امرأة قد جاءت تسأل عنها. فظنّت من فورها أنّها مدام لوغرا، لكنّ نظرة باتجاه دارة لويزا طمأنتها إلى

أنّ النوافذ ما تزال مغلقة. أمّا الزائرة فلم تترك اسمها، لكنّها وعدت بالعودة مجددا في المساء.

لم تنتظر أدريين طويلاً. فما كادت ترفع قبعتها حتى سمعت جرس الباب الخارجي يُدَقّ.

أمسكت بكتاب على الفور وجلست على الأريكة وقلبها يخفق. قرّرت أن تشاهَد وهي على تلك الحال. فتلقّي زيارةٍ بالنسبة لأنماط العيش مثل نمطها هي، ليس حدثاً ضئيل الأهمية. إذ من الملائم في مثل تلك الحالات الخارقة للعادة، عرض احتفالية كاملة، قد تبدو في سذاجتها عبثية بنظر باريسي، لكنّها مسألة لا يُستغنى عنها في مفهوم الواحد من سكان لاتور ديفيك. اتخذت إذن وضعية هي بالتأكيد بعيدة عن أن تكون مستهترة، لكنّها منسجمة كل الانسجام مع استرخاء المطالعة، أي أنّ رأسها مائل، وقد وضعت إصبعاً على خدها، في حين يسند الإصبع الآخر الكتاب الذي تقفز سطوره وتتراقص تحت ناظريها.

بعد هنيهة فُتِح الباب، لتدخل منه امرأة ترتدي السواد فتتقدم بخطا سريعة وصامتة إلى منتصف الصالون. نهضت أدريين على الفور، فألقت كتابها جانباً ورحّبت بها.

قالت الزائرة: "لم يحصل لي شرف التعرّف عليك من قبل، يا آنسة، لكنّي لا أقيم بعيداً جداً عنكم".

وسكتت، كأنّما لتثير تساؤل أدريين، وابتسمت، إنّها تبلغ الأربعين بكل تأكيد، ويبدو أنّها لم تبذل أي جهد لإخفاء سنّها. فالتجاعيد في وجهها الرقيق عديدة وترسم حول الفم والأجفان ما يشبه ابتسامة ساكنة. ما زالت العينان وحدهما فتيّتين، وهما عينان بحدقتين سوداوين يدفع بهما الفضول المستمر يمنة ويسرة بحركة لا تعرف التعب. ففيما هي تكلّم أدريين، تراءى للفتاة أنّها تعدّ قطع الأثاث في القاعة فتضع قائمة بها في فكرها. كان صوتها عذباً، فيه حرارة ضمنية ليست بغيضة.

قالت أدريين: "تفضلي بالجلوس، يا سيدتي".

جلستا على الأريكة معاً، وكل منهما بجذع منتصب.

استأنفت الزائرة تقول: "لن أدعك تبحثين طويلاً، فأقول لك إنّ اسمي ماري موركور وإنني شقيقة طبيبكم. كنت حتى الآن أقيم في باريس، لكنني استقريت مؤخراً عند أخي".

قامت عيناها مرة أخرى بجولة في الصالون، من الباب إلى النافذتين، لتستقرا كأنما بمحض الصدفة على أدريين التي لاذت بالصمت.

قالت: "هل يدهشك، يا آنسة، أنني جئت لرؤيتك؟"

ضمّت أدريين كفيها حتى كادت عظامهما تطقطق. بذلت جهداً قوياً وقالت بصوت سريع: "الواقع أنّي لم أتوقع ذلك".

- أليس الأمر، مع ذلك، طبيعياً جداً. نحن جارتان. أنت وحدك، وأراهن فضلاً عن ذلك على أنك حزينة. فالأمر مفهوم، يا آنسة.

غاص نظرها في الحديقة. وسادت فترة من الصمت. غضّت أدريين من بصرها وانتظرت.

قالت ماري موركور بعد بضع ثوانٍ:" فكّرنا، أنا وأخي، أنّه قد يكون بوسعنا أن نقدّم لك بعض النفع... وحين أقول أنا وأخي، فهي طريقة في القول قد تسقرئينها خطأ. فنحن لم نتوافق على ذلك. بل إنّ أخي لا يعلم أنّي أقوم الآن بهذه الزيارة لك. لكننا بالأمس كنا نتكلّم عنك وبدا أنّه يفكّر في ذلك نوعاً من واجب... فكيف أشرح لك الأمر؟ ساعديني.

فهمست أدريين:

- لست أدري.

- هو واجب يتمثّل في عدم تركك وحدك، وواجب في أن نكون إلى جانبك ضمن حدود الممكن. وبما أنني أفكّر بالطريقة نفسها، فقد جئت

لرؤيتك. وينبغي أن أقول لك إنّ أخي مشغول جداً، فليس لديه سوى القليل من الوقت، يضاف إلى ذلك أنّ صحته ليست على ما يرام. فكل زيارة لا تتسم بالضرورة القصوى، وكل تعب زائد عن حده، من الأمور المحظورة عليه.

قالت ذلك باندفاع من غير أن تنظر إلى أدريين.

ثم استأنفت تقول بلطافة:

"أريد الآن أن تعلمي أنّك لست وحيدة، وإنّ بوسعك الاعتماد عليّ إذا ماشعرت بأنّك حزينة جداً والمسألة في غاية البساطة، ليس لك سوى أن تكتبي لي، فآتيك".

ونهضت بحركة مفاجئة فمدت يدها للفتاة التي نهضت بدورها.

قالت ماري موركور بغتة: "لكن ما دمنا بهذا الصدد، ألم تكتبي إلينا مؤخرا؟"

حبست أدريين أنفاسها، تفحّصت خلسة هاتين العينين اللتين تتهرّبان من نظرتها، لكنّها لم تقرأ فيهما شيئا.

بعد لحظة قالت: "كلا".

أحسّت بغضب مباغت يجتاها حيال تلك المرأة. فهل جاءت لتتجسّس عليها، هي أيضاً، مثل جيرمين ومثل مدام لوغرا؟ وبدت لها فكرة أن تكون البطاقة وقعت في يدها لا يمكن تحمّلها. واستعادت الكلمات التي خطتها:... لو كنت تدري كم أنا شقية... فاحمرّ وجهها.

كررت بصوت أكثر حزماً: "كلا، لست أنا".

لأول مرة تستقرّ عينا ماري موركور على عيني أدريين. إنّهما سوداوان وفيهما ما يشبه لهباً صغيراً أصفريسبغ عليهما تعبيراً متوحّشاً بعض الشيء، وشبه شرير. فقامت بحركة من كتفها.

ثم تمتمت: "التباس في العنوان".

ثم استأنفت بصوت أعلى:

- ألن تحقدي عليّ بسبب هذه الزيارة؟ كنت شديدة الحرص على رؤيتك.

فقالت أدريين : "هوّني عليك!"

سارتا صوب الباب.

قالت ماري موركور وهي تلتفت صوب أدريين التي كانت تتبعها:

"علمت بأنك كنت مسافرة..."

لكن الفتاة لم تَرُدّ. كانتا معاً على عتبة الباب المؤدي إلى الحديقة. كانت أدريين تقف منتصبة ولا تقول شيئاً. وفجأة تسنّدت الزائرة على إطار الباب كأن ضعفاً مفاجئاً قد أرغمها على ذلك.

وسألت: "هل كنت مسافرة؟"

لم تعد نظرتها على مثل ما كانت من القسوة قبل قليل. فقد داخلها الآن شيء يشبه التوسّل، وهيئة متواضعة، كأنّها تتوسّل لأن يُرَدَّ عليها، وأن تُقال لها الحقيقة. قالت أدريين بجفاء: "بلى".

تنهّدت ماري موركور، وافترقتا بمصافحة ثانية.

* * *

-٢-

في اليوم التالي، وقبل الغداء بقليل، أعلنت الخادمة عن قدوم مدام لوغرا.

أوعزت أدريين للخادمة وهي تمسح بقطعة قماش أثاث غرفة الطعام:

"قولي إنني قد خرجت".

لكنّ مدام لوغرا دخلت في اللحظة نفسها تقريباً. وقد سمعت كلمات أدريين وهي في الصالون.

قالت متعجبة: "قد خرجت! تطلبين أن يُقال ذلك لي أنا؟"

كانت ترتدي ثوباً ليلكياً وقبعة مغطاة بأزهار بيضاء. نظرت اليها أدريين من غير أن تجيب. استدارت مدام لوغرا نحو ديزيريه التي كانت تراقب المشهد.

قالت لها بصبر نافد: "لا بأس. انصرفي يا ابنتي، فالآنسة لم تعد بحاجة اليك، حسبما أظن".

حين صارتا وحدهما، جلست أدريين وقد امتُقِع لونُها. قالت:

- لا أريد أن أراك.

ردّت مدام لوغرا بصوت صافر: "لقد لاحظت ذلك".

وتقدمت لتقف أمامها وكفّاها على وركيها. سألتها وعيناها تلتمعان:

- هل تتكرّمين فتوضحين لي السبب؟

- أريد أن أعيش وحيدة تماماً، ولا أرى أحدا.

أحسّت بنظرة ازدراء ترميها بها صديقتها القديمة، كأنّها تجلدها فنهضت.

وكررت القول مشيرة بيدها:

- ولا أرى أحدا.

- ما هذا بجواب.

نهزت أدريين بكتفيها وقالت:

- ينبغي لهذا أن يكفيك.

صارت مدام لوغرا بلون الأرجوان. فقبضت على معصمي الفتاة.

قالت بصوت خافت، ووجهها قرب وجه أدريين:

- حسبك. فهذا كله ليس بجاد. ألديك شيء ضدي؟

أفلتت الفتاة منها بفجاجة. قالت:

- دعيني. لست ملزمةً بإيضاحٍ حيالك.

لبثت مدام لوغرا صامتة هنيهة، ثم انفجرت ضاحكة ومضت فجلست على كرسي. قالت أخيراً بصوتها العادي:

- يا ابنتي المسكينة، ماذا دهاك؟ إن كان هذا مزاحاً فلننتهِ منه على الفور. فمن المستحيل أن تتكلمي على هذا النحو مع أفضل صديقة لك.

واتخذت بغتة لهجة المفاجأة الكبرى، كأنّها حتى تلك اللحظة، لم تدرك فداحة الموقف حق الإدراك. قالت:

- كلا، ولكن، يا أدريين، أتستقبلينني أنا بهذه الطريقة؟ هل وقع فأصابك مسٌّ من جنون؟ ثوبي إلى رشدك. ولنعتبر أنّ شيئاً لم يحصل..."

تنهّدت أدريين تنهيدة غضب. وقالت بعد قليل:

- لكن لا يسعني أن أقول لك بوضوح أكبر إنّي لم أعد راغبة في رؤيتك، يا سيدتي.

فصاحت مدام لوغرا:

- وأنا لا يسعني أن أقول لك بوضوح أكبر إنّك حمقاء. ولئن كان في العالم من شخص واحد يتوجّب عليك أن تحبيه وتحترميه، أجل، تحترميه، فذاك أنا.

فردّت أدريين بصوت مخنوق:

- كلا ثمّ كلا! احترامٌ لامرأة مثلك! أنت تسخرين.

- ما تقصدين بذلك، يا أدريين؟

- أنت تعرفين ما أقصد.

- أنا لا أعرف شيئاً، وأطالب بتفسير.

فصعقتها أدريين بنظرتها، وقالت بقوة:

- لا بأس. اعلمي أنّ واحدة من عائلة موزيرا لا تصافح واحدة... واحدة...

قالت مدام لوغرا وهي تدقّ على الأرض بطرف حذائها:

واحدة ماذا، يا ابنتي؟

قالت الفتاة بصوت متفجّر:

- لا تصافح امرأة ضالّة، يا سيدتي!

واستندت وهي ترتجف إلى خزانة الأواني التي كانت تمسح عنها الغبار حين أُعلِمت بحضور مدام لوغرا. كان وراءها آل موزيرا الثمانية، يتامّلون المشهد، رجالاً ونساء، مثل أعضاء المحكمة. كانت في تلك الساعة شبيهة بهم جميعاً، فالرأس مرتد إلى الخلف والعينان تنظران إلى الأمام. مرّت هنيهة قبل أن تقوى مدام لوغرا على الرد. كان واضحاً حتى اللحظة الأخيرة، أنّها لم تعتقد أنّ كلمة من هذا النوع يمكن أن تخرج من فم أدريين وكانت المفاجأة الكبرى مقروءة في نظرتها. صار خداها ممتقعين من حول التبرّج على وجنتيها. أخيراً نهزت بكتفيها بسخط وازدراء. قالت:

- أيّ لغط أنت تكررين؟ وهل تدركين فقط معنى ما تقولين؟

لوت ابتسامة زاويتي فمها. فأربك الفتاة ذلك المظهر من الهدوء، وهي التي توقّعت انفجاراً من الشتائم. فلم تردّ على السؤال الذي طُرِح عليها.

استأنفت مدام لوغرا الكلام، فقالت بصوت رتيب:

- ليس التهذيب، في الحقيقة، ولا العرفان هما اللذان سيكتمان أنفاسك. هكذا إذن، تأتين إلى بيتي يومياً، تقبلين دعواتي (التي لا أفكّر في ردّها)، وذلك كله كي تقولي لي ذات صباح، إنّي، كيف قلتِ؟ امرأة ضالّة، ضالّة! (كررت كلمة ضالة هذه، كأنّها كانت تبصقها، وضحكت.) فلِمَ، ارجوك؟ ألأنني أضع على سبيل المثال شيئاً من المساحيق؟ لا ريب في أنّ ذلك لايحصل في لاتور ديفيك. آه! إنّ الاستنتاجات المبكّرة لا تخيف واحدة من آل موزيرا!"

وبدت فجأة وقد فقدت كل سيطرة على إرادتها، فنهضت بوثبة، ومضت لتقف أمام أدريين التي أشاحت بوجهها جانباً فلم تنظر إليها.

قالت لها مدام لوغرا وكأنّها تهمس في أذنها:

- أيتها الغبيّة الصغيرة. أعرف عنك ما يكفي لإرسالك إلى محكمة الجنايات!

لدى سماع تلك الكلمات، أدارت الفتاة صوبها وجهاً خُطِفت ألوانُه. جهدت لأن تفتح فاها لكنّها لم تُفلِح. جعلها الخوف تتراجع حتى لامست زاوية خزانة الأواني وأحسّت بالجدار تحت كفها. لم تتوصّل إلى تحويل نظرها عن عيني مدام لوغرا التي استمتعت على ما يبدو بفوزها.

قالت بعد وقت قصير:

- هيا بنا، فالذاكرة تعود إليك. إنّك تنسين بسهولة، يا آنسة، ما يؤدَّى لك من خدمات. أتدرين أنّي قد أنقذتك من ورطة شنيعة؟ أتعلمين ذلك أم لا؟

فتمتمت أدريين:

- لست أدري ما تقصدين.

- بل أنت تدرينه جيداً حتى أنّي، لو جلست إلى هذه الطاولة لأكتب لمحكمة المقاطعة كل ما أعرف عن موت أبيك، لزحفتِ أمامي جاثية على ركبتيك، يا آنسة موزيرا!

أشارت إلى الطاولة الكبرى بإصبعٍ آمرة وهي تتفوّه بتلك الكلمات. تسنّدت أدريين على الخزانة. إنّ شفتيها تتلفّظان الآن بكلمات ما كانت تريد أن تقولها. فسألت بصوت متقطّع: "أين تكمن مسؤوليتي؟"

فقالت مدام لوغرا:

- اخرسي، فأنا لست قاضي التحقيق لتحاولي تبرئة نفسك. لكن حذار، إذا ما سمعت أنّك تقدحين بسمعتي في لاتور ديفيك، فلسوف أتكلّم. هل فهمت؟

وأومأت برأسها على الفور وخرجت.

سمعت أدريين باب الحديقة يُصفـَق بعنف، تلاه بعد ثوان صوت باب دارة لويزا. أصغت إلى تلك الأصوات والى نباح الكلب الصغير الأصفر وهو يستقبل سيدته. وران الصمت أخيراً. إنّه الصمت الثقيل والعميق الذي تعرفه حق المعرفة. تهالكت فوق كرسي ولبثت جامدة. سال عرق بارد ببطء من جذر شعرها على جبينها وصدغيها. لقد تلاشى شيء ما داخل نفسها، وكانت تعرف أنّها ما عادت تتمتع بقوة الكفاح. وأحسّت للمرة الأولى، منذ أسابيع، بكل هول هذه الدار الصامتة. وعلى الرغم من كل الذعر الذي يهيمن على فكرها، لم تجد لديها القوة للإتيان بحركة. فعبثاً حاولت الانتصاب على ساقيها.

تذكّرت ذلك اليوم، حين ألصقت وجهها بعوارض الباب، وراودتها فكرة الهروب، فأدارت القبضة لتجد أنّ العناية الأبوية قد أغلقت الباب المشبّك بالمفتاح. ولديها اليوم انطباع بأنّه الشيء نفسه إلى حدٍ ما، وأنّها إذا ما رغبت في الإفلات من هذا البيت، فسوف تحول دونها عوائق اقوى بكثير.

حينئذ فهمت معنى سفرها. فالمسالة كأنّ المدن الصغيرة التي زارتها قد لفظتها. لقد اعتقدت بأنّه ما عاد بوسعها العيش في دارة الزان. لكن، خلافاً

لذلك، ما عاد بوسعها العيش، إلا فيها. كان يستحيل عليها مادياً بادىء الأمر، أن تغيّر شيئاً في الوضع الراهن للأشياء. فهي ما تزال قاصرا، وثروتها ليست ملكاً لها. لكنّها لم تكن تتصوّر أنّ بوسعها أن تبيع المنزل لتشتري آخر. فقد ورثت عن أبيها نوعاً من التقديس للعادة التي تبقي عليها بين هذه الجدران، ووسط تلك الأشياء التي يذكّرها كلٌ منها بطفولة كئيبة وفتوّة مؤلمة. بوسعها دون شك أن تغيّر تنظيمها، فتغيّر أمكنة الكنبات والكراسي، لكنّها بحاجة لأن تراها من حولها.

شعرت بالخوف. فالأفكار تتوالى، في ذلك النوع من الذهول الذي غاصت فيه، بشكل فوضوي يجعلها مريعة أكثر. وتساءلت فجأة ما إذا كانت فريسة وهم وهل جاءت مدام لوغرا حقا لتراها؟ وبدا لها أنّها ما تزال تسمع ضجّة البابين المشبّكين يُفتحان ويُغلقان. فلا يمكنها أن تكون حلمت بذلك. ولا بما تلا أيضاً. وعادت اليها أقوال جارتها، لكنّ برنّة لم تكن رنّتها حين سمعتها تتفوّه بها: كانت خالية من الحقد، وأشبه ما تكون بصيحات إنذار، مثل: "انْجوا بأنفسكم!" تتجاوب وسط الصمت. استعادت قوتها بشكل مباغت فنهضت.

كان أول ما قامت به أن كتبت إلى ماري موركور تريد أن تراها. فدخلت إلى الصالون، فكتبت باستعجال أربعة أسطر على بطاقة ووضعتها في غلاف.

بعد أن كتبت العنوان، قالت بصوت عال:" ما معنى هذا كله؟"

توقّفت ثم أضافت بصوت خافت:

"لن أقول لها على كل حال إنّي قد قتلت أبي".

خرجت من فمها تلك الكلمات فسببت لها الرعب. رفعت كفّها إلى عينيها، وقالت:

"ليس هذا صحيحاً".

وفجأة أنزلت يديها وكرّرت كأنّ أحداً يجادلها في الأمر:

"أولا، ليس هذا صحيحاً".

استولى عليها غضب جنوني. كانت حتى ذلك الحين، منهكة بإفراط، وأشد هلعاً من أن تشعر بكل ما في موقف مدام لوغرا من امتهان. أمّا الآن فعادت قوتها إليها فصعدت دفقة من الدم إلى وجهها. اقتنعت بعد لحظة بأن تلك المرأة افترت عليها، فتزايد سخطها. وجّهت نظرها شطر دارة لويزا وشدت قبضتيها. صارت عيناها سوداوان.

وتمتمت: "إذا ما أتيح لي أن أراك مجددا. أيتها الـــ... القذرة. أيتها الـــ... القذرة..."بحثت عن الكلمة. خطر ببالها تعبير سمعت أباها يستخدمه:

"الكلبة، أجل، الكلبة، كلبة الشوارع القذرة".

انتصبت بحركة مفاجئة وتنهدت كأنّ تلك الشتيمة حررتها من الغم. وأخيراً نهزت بكتفيها.

وتمتمت: "على كل حال هي تعرف، جواباً على شيء تقوله في قرارة نفسها، أنني أُمسك بها جيداً. وليس الأمر منوطاً إلا بي، في نهاية المطاف، كي تشير المدينة كلها بإصبعها اليها، فتغدو مرغمة على الرحيل. ليس عليّ سوى إحاطة عدة أشخاص من هنا علماً بالأمر، كي يعلم به الجميع في غضون أسبوع".

خفضت عينيها لتقعا على الرسالة التي كتبتها لتوها.

وفكّرت: "الآنسة موركور، على سبيل المثال".

فقرّرت أن تبعثَ بالرسالة إلى ماري موركور في كافة الأحوال. لايسعها دون شك أن تبوح بمكنوناتها للفتاة العانس، لكن لم يعد بوسعها، من ناحية أخرى، أن تظلّ وحيدة هكذا. عليها أن ترى أحداً ما، أن تقابل أحداً ما.

أرجعت كرسيها فنهضت وشرعت تتجوّل في الحجرة. كانت مريلتها البيضاء ما تزال حول خصرها، في حين يُظهــِرها المنديلُ المعقود خلف قذالها بمظهر فلاحة. أما وقد مرّت أمام المرآة، فقد نظرت إلى نفسها لتجد أنّها ازدادت نحولا وأنّها ليست بسيماء حسنة. وتأتي ملابس الحداد لتزيد

لونها سوء مظهر وشحوبا. استندت بمرفقها إلى الموقد وتفحّصت وجهها عن كثب والظلال حول عينيها وتحت وجنتيها. لاحظت تجاعيد دقيقة ترتسم تحت جفنيها، وهي أكثر دقة من الشعر فلا تكاد تُرى. قطّبت حاجبيها. وحوّلت نظرها فبدت وهي تتفكّر بعمق. بدأ الاضطراب الذي نجم عن الخوف والغضب يتوارى كله تدريجياً وحلّت محله كآبة أكثر رهبة أيضاً.

جلست في الكنبة الكبرى المنخفضة حيث كان يرقد أبوها فيما مضى ساعة قيلولته، فلبثت ساكنة وظهرها إلى النافذة. ما من نأمة تأتي من المنزل أو من الشارع. فالطقس حار. وطيور الحديقة تلوذ بالصمت لاقتراب الظهيرة.

*   *   *

-٣-

قرّرت بعد الغداء مباشرة، أن تمضي فتحمل الرسالة بنفسها إلى الجناح الأبيض. من المؤكّد أنّها لن تجرؤ أبداً على دق الجرس، خشية أن تشاء المصادفة فيأتي الدكتور بنفسه ليفتح. سوف تكتفي بإدخال الرسالة في العلبة المثبتتة على الباب. حتى فكرت في أنّه لعمل كبير أن تقوم بذلك. ألا يُخشى من أن تجد نفسها وجهاً لوجه مع موركور ساعة يخرج من بيته؟

إنّ ذلك اللقاء الممكن، الذي كان يبدو لها في العادة مليئاً بالرهبة والعذوبة، قد تراءى لها اليوم محنةً يستحيل عليها أن تتحمّلها، إنّها تحلم بأن تراه حين تشعر بأنّها أكثر طمأنينة وحين لا تبدو في هذه الهيئة من التعب. فأي انطباع يمكن أن تخلّفه الآن وهي شاحبة ومشدودة الأعصاب؟ ولو ساءلت نفسها عن كثب، لوافقت على أنّها ترغب في الإفادة من حالة الهيجان التي تعيشها الآن، وأنّها تعتمد اعتماداً ساذجاً على التأثير الذي ستحدثه سحنة فكر شارد، وما ستلهم مشقـــَّةُ الكلام رجلاً من الشفقة، وأنّها إنْ لم تكلّف ديزيريه بأمر الرسالة، فلهدف مقصود. لم يعد بوسعها الاحتمال أكثر. فينبغي لها أن تبادر، ولسوف ستجد القوة في الإفراط في يأسها تحديداً.

وضعت قبعة من القش الأسود وخرجت. تساءلت وهي تعبر الشارع عمّ ستقول فيما إذا رأت موركور، فلم تُحِرْ على السؤال جواباً. بلغت بعد قليل الباب الخشبي الذي طالما راقبته والذي لاحظت أن طلاءه الأخضر ذو انتفاخات وتقشرات في بعض الأماكن بتأثير الحرارة. لبثت ساكنة لحظة والرسالة نصف منزلقة داخل فتحة الصندوق، من غير أن تتمكّن من فتح

أصابعها كي تدعها تسقط فيها. كان أحدهم يقوم بتحريك كراسي داخل الجناح الأبيض، ولا ريب في أنّها الخادمة التي تعيد ترتيب قاعة الطعام بعد الفطور. أين هو موركور الآن؟ قد يكون في الحديقة يأخذ قسطاً من الراحة. تخيّلته فوق كرسي طويل، متمدداً تحت شجرة، هي شجرة زان كالتي تُشاهَد من غرفة جيرمين. ساورها أسف مباغت لأنها لم تكتب إليه بدلاً من توجيه الرسالة إلى شقيقته، وأحسّت بدفقة من حنان انتزعت من صدرها تنهيدة، ففكرت:

"قد يكون هنالك. ليته يدري أنّي قريبة منه".

شعرت فجأة بتثبيط همتها فتركت الرسالة. أنغلق الصندوق بصوت طرقة صغيرة حادة. اعتقدت في اللحظة نفسها أنّها سمعت أحدهم يسير على الممشى الذي يساير جدار الحديقة، فابتعدت على رأس قدميها. أمسك الانفعال بخناقها، إنّها لم تخطىء فأحدهم يسير في الجانب الثاني من الجدار، لكنّ الخطا توقّفت توقفاً مباغتاً. توقفت هي أيضاً واستندت إلى الحافة الحجرية. مرت بضع ثوان. ابتعدت قليلا من جديد دون أن تحدث ضجة وبلغت زاوية الشارع. هنالك وقفت تنتظر. كان الآخر ينتظرفي الحديقة، فذلك أكيد. التقطت أذنها بعد قليل وقع الخطا التي استأنفت السير، لكن بتسارع أكبر. توقّفت لدى الباب. سمعت طرقة الصندوق الذي كانت يد تفتحه بحذر، ثم انغلق.

قالت لنفسها مذعورة: "لقد راقبوني. لقد شاهدوني".

تراجعت إلى ما وراء زاوية المنزل، من غير أن تجرؤ على الهروب. سادت دقيقة من الصمت العميق، ثم أدارت اليد، التي فتحت الصندوق بهدوء، قبضة الباب ففتحته. لقد خرج أحدهم. حبست أدريين أنفاسها. كانت أربع خطا فقط أو خمس تفصلها عن الشخص الواقف لدى الباب وينظر إلى الشارع دون شك ليرى من وضع الرسالة. حسْبُ ذلك الشخص أن يتقدّم حتى زاوية الجدار ليكتشف الفتاة. لكنّ أدريين سمعت الباب يُغلَق على الفور تقريباً والخطا تتباعد نحو البيت. انتظرت بضع ثوان أخرى ورجعت إلى المنزل بعد جولة قصيرة قادتها حتى الطريق العام.

وجدت فوق مكتب الصالون رسالة قد وُضِعت أثناء غيابها. وحسبت بنظرة أنّها تعرّفت على الكتابة وجاءت رائحة الخزامى التي تفوح منها لتؤكّد مخاوفها: كانت الرسالة من مدام لوغرا.

جلست تفكّر قبل أن تفتحها. ومن فورها تخيّلت الأسوأ: لقد كتبت جارتها رسالة وشاية إلى محكمة المقاطعة. آه، لقد آن الأوان لأن تطلب استشارة. مزّقت الغلاف وأخرجت بطاقة صغيرة بلون ليلكي قرأتها من غير أن تفهمها. قالت مدام لوغرا:

يا ابنتي الحبيبة، لقد ارتكبنا حماقة، نحن الاثنتين بنزاعنا على ذلك النحو. لا أدري من أين جئتِ بأفكارك عنّي، ولا أنا بكل ما قلت لك هذا الصباح. فلننسِب ذلك كلَّه للطقس العاصف، وتفضلي بتقبيل صديقتك القديمة ليونتين لوغرا".

مالت أدريين برأسها على ذراع الكنبة حيث كانت جالسة ولبثت ساكنة طويلاً.

تلقّت في حدود الساعة الثالثة زيارة الآنسة ماري موركور وكانت شديدة التأثر بسبب البرودة القصوى التي قرأتها في وجه العانس.

قالت هذه لها: "لقد استدعيتني، يا آنسة".

فقالت أدريين: "هذه صحيح".

جلست كل منهما في مواجهة الأخرى. كانت الآنسة موركور قد ارتدت ملابسها بكل عناية، وبشكل احتفالي تقريباً. لقد اعتمرت قبعة من الحرير الأسود تزخرفه ريشات من اللون نفسه. أما وجهها فيكاد يختفي تماماً وراء حلقات قناعها الدقيقة، فلا يسع المرء أن يميز لون بشرتها الكامد والأصفر، ولا أن يرى عينيها الغائرتين البرّاقتين. كانت سترة وفستان من الصرج الأزرق يموّهان بصعوبة نحول جسمها، على الرغم من خياطتهما الواسعة. وضعت يديها بقفازيهما المنسوجين بالخيط الأسود فوق ركبتيها وبدت كأنّها تنتظر تفسيراً.

كررت أدريين جاهدة: "هذا صحيح. ألم تقولي لي إنّ بوسعي أنْ أتوجّه اليكم يوم؟..."

كانت توشك أن تقول: في الأيام التي أشعر فيها بأنني حزينة، لكنّها توقفت حيال هيئة الرصانة والنأي البادية على الزائرة. زد أنّها من حين أن تلقت رسالة مدام لوغرا، لم تعد ترى من فائدة في لقائها مع شقيقة الدكتور، وقد ندمت لأنّها كتبت إليها.

سألتها الانسة موركور: "ماذا كنت ستقولين لي، يا آنسة؟"

غضّت أدريين طرفها ونظرت إلى يديها اللتين وضعتهما هي أيضاً فوق ركبتيها. فساد صمت قصير.

قالت ماري موركور على نحو مباغت:" يا آنسة، لقد غيرتُ من طريقتي في النظر منذ زيارتي الأخيرة. فكّرت في محاورتنا وانطباعي أنّ بوسعك الاستغناء تماماً عن صحبتي. لا سيما أنّ عزلتك، إذا ما صدّقتُ ماقيل لي، ليست عزلة تامة على نحو ما رغبتِ في أن تجعليني أعتقد.

فقالت أدريين بصوت متردّد:

- لم أفهم ما تقصدين.

فردّت ماري موركور قائلة بسخرية:

- حقاً؟ ولكنّك تنعمين بجيرة ممتازة، يا آنسة. وأنا أغبـطِك عليها. إنّ ليونتين لوغرا بلا أدنى شك شخصية ملأى بالمتعة. وعلى ذلك يؤسفنا كثيراً أنا وأخي ألا يكون مسموحاً لنا إنشاءُ أواصر معرفة بنساء من هذا النوع...

وتوقفت عن الكلام لتحدّق في عيني الفتاة.

"... أو المعرفة بصديقاتهن.

فصرخت أدريين:

- أنت مجنونة!

فاضافت ماري موركور بصوت مدروس:

- كوني مهذبة، يا آنسة، فالكياسة مطلوبة، حتى في ظروف مثل التي قادتني إلى هنا. لقد قلت لك إنك حرّة في اختيار صديقاتك وفق ما يروقك، لكن نظراً لخصلة صديقتك ليونتين لوغرا، والطبقة التي تنتمي اليها، لاينبغي لك التفكير في إقامة علاقات معنا.

احمرّ وجه ليونتين. قالت:

- لم أعد أرى مدام لوغرا.

فاستأنفت ماري موركور تقول بلهجة ارتياب:

- المسألة إذن حديثة العهد. فقد علمت هذا الصباح بأنّ مدام لوغرا، مثلما تسمينها، شرّفتك بزيارتها.

- لقد جاءت رغماً عني، يا آنسة.

- آه؟ ذلك ممكن، لكنّ المراسلات تسير سيرها الحسن، فبعد ظهر اليوم، جاءتك رسالة.

- إنّك تتجسسين عليّ، يا آنسة، وهذا ما لا أتحمّل.

- أنا أقوم بجمع استعلاماتي، قبل أن أفتح باب أسرة شريفة أمام امرأة غريبة. والآن ثبّتِ رأيي.

فقالت أدريين وقد علا صوتها:

- رأيك حول ماذا؟

حدّقت فيها ماري موركور قبل أن تجيب. ثم ردت بجفاء:

- رأيي في حقيقتك. والبرهان على ذلك وفير.

لم تعد الفتاة قادرة على ضبط نفسها. نسيت الاحتراس الذي ينصحها بعدم قطع الجسور بينها وبين آل موركور فلم تعد قادرة على ضبط غضبها.

قالت بصوت مرتجف: "أوضحي كلامك، أُنذرك بتوضيح كلامك".

كان جواب ماري موركور الوحيد، أن فتحت محفظة من القماش الأسود كانت تمسك بها بيديها فأخرجت منها رسالة. فقالت لها:

- هل كتبت هذه؟

- بكل تاكيد، يا آنسة، فهذه هي الرسالةالتي أرسلتها لك بعد الفطور.

- شيء رائع. وهذه؟

- وألقت بمغلف فوق ركبتيها. أخذته أدريين فأخرجت منه البطاقة التي كتبتها في مونفور. فانطلقت صرخة من صدرها.

فعلّقت ماري موركور وهي تغلق محفظتها: "هذه صرخة واضحة المعنى".

نهضت أدريين ورفعت يدها إلى نحرها. قالت أخيراً وقد تغيّر صوتها:

- لم تكن هذه البطاقة موجّهة إليك.

- فأجابت ماري موركور التي كانت تلاحق حركات الفتاة بابتسامة ازدراء:

- أفضّل أن أقول لك على الفور إنّها لم تصل قط إلى المرسلة إليه.

فهتفت أدريين قائلة:

- لقد سرقتِها! ذلك عار يا آنسة.

لم تتحرّك ماري موركور. وسألت:

- كيف تتذكّرين إذن ما فعلت؟ وهل تكتبين غالباً تصريحات غرامية من هذا النوع؟ لا بدّ أنّ الــ لوغرا تعطيك تعليمات ثمينة، يا آنسة. فأنا لم أعد أندهش من العلاقات بينكما.

خبطت أدريين الأرض بقدمها وصرخت:

- اخرجي من هنا.

- ليس قبل أن أنذرك بأنّي، لدى عثوري على الرسالة المقبلة في صندوقي، سوف أشهّر بسلوكك أمام الرأي العام. سأرسل إخطاراً إلى أصداء جريدة "**مرشد سين-إي-لواز**". ولسوف نرى رأي الناس الشرفاء بك!

ونهضت بشكل مفاجىء وابتعدت وهي ترتدّ بجذعها إلى وراء، ثم نهزت بكتفيها وألقت نظرة ازدراء أخيرة على الفتاة وانسحبت.

كمّت أدريين فمها بأصابعها، لتكتم صرخة سخط صعدت من صدرها، ثم تهالكت فوق الكنبة. كانت يداها ترتجفان. خبطت بقبضتها مراراً على ركبتيها.

قالت بعد وقت قصير بصوت لم يخرج من حلقها إلا بمشقّة:

- سوف أذهب لرؤيته. يعلم الله ما قالت له تلك المرأة.

أخرجت منديلا من صدارتها فمسحت فمها. قالت وهي تنهض:

- هيّا بنا، لن استسلم لتثبيط همتي بسبب عانس سيئة المزاج. لا ينبغي ذلك.

كانت صدارتها تضيّق عليها بإحكام، أما أسلاك الياقة فتنغرس تحت ذقنها. فحلّت أزرارها قليلاً لأنها جعلتها تشعر بالحر، وتنهّدت.

ثم كررت وهي تستأنف تجوالها: "هيّا بنا. لا ينبغي ذلك".

جلست فجأة إلى المكتب، فأمسكت بريشة وشرعت تكتب:

"**سيدي، إنّني أجهل ما يمكن أن يكونوا قالوا لك عني**".

ضايقتها تلك الجملة فمزّقت الورقة وبدأت من جديد:

"**سيدي، من الضرورة بمكان أن أراك**".

لكنّ هذه البداية لم تبدُ لها أفضل من السابقة، فمزّقت الورقة الثانية واستندت إلى المكتب بمرفقيها، واضعة جبينها في راحتيها.

قالت بصوت عالٍ وبلهجة من الغضب والتعب:

- ما العمل، يا إلهي، ما العمل؟"

شعرت بأن قواها ستفارقها ما لم تستجمعها على الفور. فأخذت ورقة ثالثة وكتبت باستعجال، الرسالة التالية دفعة واحدة:

" **سيدي، أريد ان أراك. كان عليّ منذ زمن طويل أن أطلب مساعدتك، ذلك أنّي بحاجة لعونك. إن كانوا قد كلّموك عني فلا تصدّق شيئاً مما قيل**

لك. أنا تعيسة بشكل رهيب، ولم أعد أقوى على الاحتمال. واجبك أن تنجدني، أن تاتي إلى هنا وحدك فتكلّمني".

وتوقفت.

قالت في نفسها: "لن أستطيع أن أبعث بهذه الرسالة"، وهتفت فجأة بلهجة سلطة: "بلى، فليكنْ! فلا يمكن أن يقع لي ما هو أسوا مما تحمّلت هذا اليوم. وأنا متيقنة أيضاً من أنّه سيفهم".

فكتبت: "**إنني واثقة من أنك ستفهم**"، ووقّعت.

بعد أن عنونت الرسالة، زرّرت قميصها، ومضت فوضعت قبعتها وخرجت. إنّ ما كانت راغبة فيه، هو أن تسلّم الرسالة بنفسها للدكتور، ثم تعود إلى بيتها فتنتظر. وبدا لها أنّ ذلك المشروع، ضمن الحالة النفسية التي كانت فيها، يجسّد البساطة نفسها. فها هي بعد أسابيع من التردّد وعدم اليقين، ترى فجأة بوضوح، كما تقول في نفسها، وبنوع من التعويض عن كل ماعانت من قبل. وقد دُهِشت لأنّها لم تفكّر في هذه الوسيلة في وقت مبكر أكثر.

فكّرت وهي تقطع الشارع: "ربما كان من الأفضل أيضاً أن أقول له إنّها مسألة استشارة طبية".

ثم أضافت على الفور:

"فلْيكنْ ما يكون، إذ لا يسعني كتابة هذه الرسالة مجدداً".

خشيت على طاقتها من أن تُستنفَد، فهي تعرف أنّها لا تستطيع أن تطلب من نفسها بذل جهد آخر، وأنّها ما لم تحقق نفعاً من ذلك الذي بذلته لكتابة الرسالة، فسوف تخسر الجولة حقاً. لا ريب في أنّه توجّب عليها أن تكلّم الدكتور منذ وقت طويل. ألا كم كان عدد المتاعب التي كانت ستوفّرها على نفسها. لكنّ ذلك الوقت المحدد الذي توجّبت عليها فيه المبادرة، تركته يمرّ، وتمّت اليوم بفضل مصادفة غامضة عودة ذلك الوقت، فهي تشعر به، وهي واثقة منه، إنّها فرصتها الأخيرة: فسعادتها كلّها، وربما حياتها كلها،

منوطتان بالطريقة التي ستعيش بها خلال الساعات الثلاث أو الأربع التالية. صدمتها تلك الفكرة المتطيرة مثل الكشف المباغت لسرٍ غامض. مشت بسرعة أكبر فبلغت زاوية الجناح، أي المكان نفسه الذي وقفت فيه قبل ساعات، حين فتحت ماري موركور الباب. استندت إلى الجدار.

كم من الوقت عليها أن تنتظر؟ وكيف ستعرف إنْ كان سيخرج بعد ظهر اليوم؟ كانت تلك الأسئلة تُطرح في ذهنها من غير أن يتولى شيء من ذاتها الإجابة عنها. وهي تشعر بأنّها مصممة ولامبالية في آن معاً. حدّقت عيناها بالحصى عند قدميها. فتسرّب إلى نظرها شيء كئيب. فقد هرب اللون كله من خديها وكانت شفتاها بلون أبيض تقريباً. وأرغمتها آلام في الكتفين على الانحناء قليلاً كأنّها ترزح تحت عبء ثقيل. وانقضى ما يقرب من عشر دقائق دون أن تفكّر في رفع رأسها.

جعلها ضجيج عربة على الطريق الرئيسة تجفل. انتصبت فألقت نظرة فيما حولها. وبعد هنيهة ساد الصمت. فالطقس حار جداً بالنسبة للخروج، وجميع الناس يلزمون منازلهم. تخيّلت جيرانها يسترخون في كنبات مريحة. ويوم غد تبدأ الإجازة الصيفية. سوف يأتي باريسيون للاستجمام في لاتور ديفيك، فيحتلّون الدارات عن يمين دارة الزان وعن شمالها. تولى الفتاة الشعور الطاغي بالوحدة الذي خلقه ألمها من حولها. كانت المتألّمة الوحيدة في هذا القسم كله من المدينة، وربما في المدينة كلها. فالرجال والنساء، أينما كانوا، يأكلون ويعملون وينامون في هدوء بال يكاد يكون كاملاً. أما هي، فهل يسعها أن تأكل وتنام وتلبث مطمئنة نصف ساعة بكامله؟

بدرت عنها بغتة حركة غضب على ذلك الرجل الذي لا يأتي، كأنّما قد ضرب لها موعداً وتأخر عنه. هنالك أوقات تشعر فيها بأنّها على استعداد لأن تكرهه. أليس هو المسؤول عن كل ما يجعلها تتألّم؟ وإنّه لـَمُزرٍ التفكير في أنّ سعادتها وبهجة نفسها تحت رحمة شخص رأته مرة واحدة يمرّ على الطريق.

جاءها فجأة الانطباع بأنّه أمامها وأنّه يراها. كانت عيناه السوداوان تنظران إليها بمزيج من العطف والفضول. فامّحى من ذاكرتها كلّ ما جال

بخاطرها. أدركت أنّها عاجزة وأنّ كافة البراهين لن تؤدي إلا لإغاظتها وأنّه ما من شيء ليغيّر واقع أنّها عاشقة.

انتهى بها الأمر، لشدّة ما أصاخت السمع، إلى الاعتقاد بأنّها تسمع وقع خطا على ممشى الحديقة. وهي تتوجّه صوب الباب. خفق قلبها خفقاً مرعباً. فلو كانت ماري موركور، ولقيتها في الشارع، فما عساها تفعل؟ وفكّرت: "وماذا لو كان هو؟" أخذ الدم يطنّ في أذنيها. ضمّت يديها وجمجمت: "كلا، كلا". كانت قوّتها تفلت منها، فقبضت أصابعها كأنّها تريد التشبث بها، وبغتة تركت الرصيف وعبرت الشارع.

قالت بسرعة وبصوت خافت:" لا طائل وراء ذلك، فلن أستطيع أن أكلمه، لن أستطيع".

وفيما كانت تدعك الرسالة في صدارتها، تدحرجت دموع على خديها.

أما بشأن العودة إلى البيت، وسماع طرطقة باب الحديقة، فبدا لها أنّها لن تقوى على ذلك. تجوّلت هنيهة في الشارع، متردّدة، وقد ضاق صدرها. شاهدت، عبر دموعها، السماء وغمامة تقطعها ببطء، والأسلاك الهاتفية وعليها طيور أرهقها الحر فحطت تستريح. وهي في ذهاب وإياب. وهزّها نحيب على حين غرّة فباغتها، كأنّ ذلك الصوت الأجش المقتضب الذي خرج من حلقها قد جاء من أحد آخر.

فكّرت قائلة: "هذا يفوق الاحتمال. سأصاب بالجنون. لم يعد بوسعي التحمّل هكذا".

ولفرط غمّها أحنت رأسها حتى لامست بذقنها صدرها، ولوّت يديها بصمت. ليس في كلّ ما عانت فيما مضى ما يُقارن بالدقائق الرهيبة التي تعيشها منذ ربع ساعة. بدا لها أنّها لم تعرف قط ما معنى البكاء حتى هذه اللحظة، وأنّ مخاوف الماضي وإحباطاته وخيباته ليست سوى أوهام وأنّها تجد نفسها للمرة الأولى حيال واقع مرعب، وأنّها قد لامست أعماق عذابها. فراودتها الرغبة في أن تنحني وأن تنكمش على نفسها. وعبرت فكرة الموت

ذهنها فلم تحرّك شجاها. تذكرت هلعها في الأول من أمس، حين اعتقدت أن علة أختها قد انتقلت إليها، لكنّ جسدها لم يرتعش وأنّ ما روّعها قبل بعض الوقت يدعها غير مبالية في اللحظة الراهنة.

قالت في نفسها: "قد تكون النهاية على هذا النحو".

توقفت ورفعت ناظريها. لقد مرّت من أمام درارة لويزا مرات عديدة. استعادت ذاكرتُها المشادة التي حصلت مع مدام لوغرا، لكن بشكل مشوّش. فكل ما وقع قبل زيارة ماري موركور بدا لها بعيدا، بل بدت لها تلك الزيارة نفسها خالية من المعنى. وراودها انطباع عجيب بأنّها سكرى. فركبتاها تخوران. شدّت حبل الجرس وأدارت قبضة الباب المشبك دون انتظار من يفتح لها. وما كادت تقطع أربع خطا في الحديقة حتى تهاوت فوق حافة المرج.

* * *



-٤-

قالت مدام لوغرا بلهجة آمر: "كلا، إبقي هادئة، ستأتيك هنرييت بمشروب منعش ولسوف تحاولين عدم القيام بحركة طول ساعة".

بعد أن اعتمت أدريين على مرفقها عادت فاستلقت على ظهرها. كانت ممددة على كرسي طويل في غرفة مدام لوغرا، تنظر فيما حولها دون أن يبدو عليها أنّها ترى ما تقع عليه عيناها. أخيراً استقرّ نظرها على جارتها التي كانت واقفة تسهر عليها، وهي ترتدي مبذلاً بنفسجي اللون، وتراقبها بكل انتباه.

سألت أدريين بعد بعض الوقت:"منذ متى وأنا هنا؟"

نظرت مدام لوغرا إلى ساعة صغيرة معلقة على الجدار.

"منذ عشرين دقيقة. هل تشعرين بشيء من التحسّن؟"

لم تجب أدريين.

قالت مدام لوغرا وهي تجلس إلى جانبها:

"لا تتكلّمي إن كان هذا يتعبك. قولي لي فقط إن كنت بحاجة لشيء ما".

قُرع الباب. ذهبت مدام لوغرا لتفتح وعادت وبيدها كأس شراب ممتلىء إلى نصفه.

طلبت إلى الفتاة أن تشرب فقالت وهي تسند رأسها: "اشربي من هذا".

أفرغت أدريين الكأس وتمتمت قائلة: "شكراً".

قالت مدام لوغرا وهي تعود إلى مكانها:

- يا بنيّتي المسكينة، لقد وجدناك مرمية على العشب. ولبثنا أكثر من خمس دقائق ونحن نغرق صدغيك بالماء ونصفعك على وجهك. فهل الوضع الآن أحسن؟

اومأت أدريين برأسها أن نعم.

واستأنفت مدام لوغرا تقول: "ليس هذا الغشيان طبيعياً. كنت أحسبك قوية جداً. لكنّ الدكتور سيأتي".

ساد صمت قصير. حدّقت أدريين في عيني مدام لوغرا.

ثم كررت بصوت بريء: "الدكتور؟"

- دون شك. فقد أرسلت في طلبه قبل قليل.

بذلت أدريين جهداً كي تنهض. وقالت بنشاط:

- لا أريد أن أراه. لا أستطيع ذلك.

قالت مدام لوغرا بلهجة رجاء:

- اهدئي، يا حبيبتي، لن ترينه إلا حين يروقك ذلك. هيا، تمدّدي.

امسكت الفتاة بيديها وسألتها؟

- أيّ دكتور؟

- لكننك تعرفين يا ابنتي، فليس سوى واحد هنا. إنّه الذي قبالتنا.

انطلقت صرخة من فم أدريين ورمت برأسها بين يديّ مدام لوغرا. فصاحت هذه:

- يا إلهي! لَكَم تخيفني! ماذا هنالك أيضاً يا أدريين؟

ونهضت وحاولت سحب يديها لتخليصهما.

رفعت الفتاة رأسها وقالت متوسّلة:

- آه! لا تذهبي! سوف أقول لك.

- إذن، ما الأمر؟ فأردفت أدريين تقول:

- اجلسي، فلا يسعني التحدّث إليك هكذا. ينبغي أن تصغي إلي، ياسيدتي. ساعديني!

- بكل تأكيد، يا ابنتي المسكينة. طلبت إليك دائماً أن تبوحي لي بأسرارك. تكلّمي. هاك. إنّني جالسة وأصغي إليك.

خبّأت أدريين وجهها بكفّيها. قالت:

- لا يسعني أن أرى هذا الرجل. ثم أضافت على الفور: ليس اليوم على كل حال.

- لا يسعك رؤية الدكتور؟ لكنّه لن يأكلك. فماذا تخشين؟

فهتفت الفتاة بصوت مخنوق:

- لا يسعك أن تفهمي. لقد تألــّمت تألّماً رهيباً.

فقالت مدام لوغرا وهي تمسك بيديها:

- لا عليك. تماسكي. إنّك تتخوّفين لأبسط الأشياء. قلتِ لي إنّ رأسك آلمك؟

- ليس الأمر كذلك. ولكن كان عليك أن تفهمي. لقد رأيت هذا الرجل عدة مرات، فأنا أعرفه.

ونظرت إلى مدام لوغرا التي بدت وهي تبحث في فكرها عن تفسير لهذا الكلام. لاحظت أدريين جفنيها الأزرقين اللذين جرى تطويلهما بالقلم. ففكرت: "وإلى امرأة من هذا النوع أوجه كلامي. فليكن". هبط خجلها هبوطاً مباغتاً، فكانت على وشك أن تقول: "أحبه"، حين هتفت مدام لوغرا، وقد أضيء وجهها بفكرة مفاجئة:

"لن تقولي لي إنّك واقعة في هوى الدكتور موركور؟"

واستأنفت تقول، بعد إيماءة من أدريين، وهي في ذروة المفاجأة:

- يا ابنتي، هذا مستحيل! تحبين رجلاً من سنه! لكنّه في الخامسة والأربعين!

فقالت أدريين وقد اجهشت بالبكاء:

- ليس الأمر بيدي!

فقالت مدام لوغرا:

- لكنك تحلمين يا ابنتي. فكّري في أنّ له ولداً في الثالثة عشرة، إنّه صبي صغير جاء للتوّ فأنهى إجازته الصيفية في لاتور ديفيك.

فأطلقت أدريين صرخة.

- موركور متزوج!

- متزوج؟ كلا. لقد توفيت زوجته قبل خمسة أعوام. لكنّ ذلك لا يغيّر من واقع الأمر شيئاً، إذ كان بوسعه أن يكون أباك. لكن ، يا إلهي، فمسألة السنّ يمكن الإغضاء عنها. لكن انظري إليه، إنّه نحيل وهزيل ويبدو شديد الهشاشة. وفوق ذلك لا يملك فلساً واحدا. فليس بطالب زواج ممتاز، يا ابنتي المسكينة.

قالت أدريين وهي تمسح عينيها:

- بمَ سيؤثّر ذلك عليّ؟ لم أحببه لأنّه كان طالب زواج ممتازاً. ثم أردفت بصوت متقطّع: لقد أحببته هكذا.

فقالت مدام لوغرا بلهجة حازمة:

- دعك من هذا! لا ينبغي تشجيع ميل لا يسعه أن يمضي بك إلى مكان واضح. لا بدّ من شفائك. أنت فتيّة وجميلة وغنيّة إلى حد لا باس به، أليس كذلك؟ أشياء كثيرة من المخجل التفريط فيها. فكري قليلاً، بحق الشيطان في ما تمثلين!. فكّري في سعادتك! من الجنون أن تولَعي برجل من هذا النوع. دعك، فأنا لا يسعني أخذ قصة من هذا النوع على محمل الجد.

وشرعت توضح لِمَ لا يبدو لها الدكتور موركور طالب زواج مقبولاً، إلا أنّه عيل صبرها حيال هيئة أدريين العنيدة، وقد بدا أنّها لا تصغي إليها، فهتفت:

- وإنّنا من بعد لطيّبتان، نحن الاثنتين! أوَتظنين أنّه يفكّر في الحب وفي الزواج؟ واضح تماماً أنّك لا تعرفينه حقّ المعرفة. إنّه لا يفكّر إلا بمرضاه.

فسألتها الفتاة:

- وما تقصدين بقولك؟

- اقصد أنّه ليس رجلاً كالآخرين. آه! يا ابنتي المسكينة، أعرف أنّه لايسع المرء الاختيار، لكن لا يسعك أن تقعي على ما هو أسوأ. كان عليك أن تستشيريني من قبل. كنت أخبرتك بكل شيء.

- لكن ماذا، ماذا؟

- لست أدري. إنّه رجل يُشاهَد في القداس كل يوم، وتقيٌّ مثل امرأة عجوز، ومحشور دائماً بين مرضاه، فهو في مصحّ هذا تارة، وفي مشفى ذاك تارة أخرى. إنّهم يعرفونه في كافة الضواحي. فهو يتوجّه إلى مشفى درو ثلاث مرات في الأسبوع حيث يقوم بمعاينات مجانية. ويؤمن، فضلاً عن ذلك، بشتى أنواع النظريات حول علاج المرضى، ولا يفعل من شيء كالآخرين. وفي النهاية انظري إلى نوعيته.

فسألتها أدريين أيضاً:

- ماذا تقصدين؟

لقد صارت على درجة من الشحوب حتى خافت مدام لوغرا مجدداً فسعت إلى تهدئتها.

- يا ابنتي المسكينة، أقول لك ذلك كله لصالحك. فأنت تعلمين أنّي لأعرف الدكتور موركور هذا. ولا ريب في أنّ لديه في نهاية المطاف قلباً مثل الآخرين، لكن إذا حكم المرء على الظواهر... على كل حال...

فهتفت الفتاة وهي تجلس:

- لِمَ تتكلّمين على نحو ما فعلتِ، ما دمتِ لا تعرفينه ؟ ولِمَ لا يسعه أن يحبني؟

ونهضت على نحو مباغت لتسقط عند ركبتي مدام لوغرا التي نهضت بدورها. قالت أدريين وهي تخرج عن طورها: "سيدتي!"

وتوقفت الكلمات في حلقها، فكررت: "سيدتي!" لقد قالتها بلهجة فيها من الغمّ ما جعل ليونتين لوغرا تظنّ أنّها ستموت.

قالت وهي تمسك بيديها: "يا ابنتي، لا تبقي هكذا. يا إلهي، ولكن ما بها؟"

قالت أدريين وهي تجهش بالبكاء: "ساعديني، يا سيدتي."

- أنا؟ ولكن كيف؟ هلمّي، انهضي. ولسوف نرى من بعد. تشجعي، تباً للشيطان! لقد عانيتُ، أنا أيضاً، من أوقات عصيبة. هذا إن كنتِ تظنين أنّك الوحيدة!"

وأرغمت أدريين على النهوض فجلست معها على الكرسي الطويل. كان الانفعال يجعلها ترتعد وظهرت في صوتها لهجة غضب فقالت للفتاة:

- الحق أنك تستسلمين فتنجرفين. أنت لم تعودي بنتاً صغيرة.

فهتفت أدريين :

- ليست هذه غلطتي. لقد طفح بي الكيل، وسوف أصاب بالجنون إن واصلت العيش هكذا. إنني لا أكلّم أحداً. ينبغي أن أحصر هذا كله في داخلي، طول النهار وطول الليل.

- تحدّثي إليه.

- لا أستطيع.

- إذن اكتبي له.

لا طائل وراء ذلك، فأخته تتفحّص الرسائل كلها قبل أن تسلّمه إياها. وهي تعرف خطي. هاك، لقد كتبت له (وسحبت الرسالة من صدارتها)، وكنت أنوي أن أسلمه هذه الكلمة بنفسي، ثم لم أستطع.

- وعلى ذلك فسوف يكون عليّ أنا أن أسلمه إياها، أليس كذلك؟ ها قد فهمت قصدك. دعكِ، فلستِ بامرأة ذات قيمة تذكر! ألا تدركين أنّ المرء لايباشر قضية قط بهذه الطريقة؟ كذلك فأنا لا أعرفه. فلا يسعك أن تستخدميني وسيطة. وهذا أمر مقيت بشكل رهيب. اجعليني أقيم صلة معه، قدّميني إليه، فنرَ من بعد.

- هذا مستحيل. فلقد تخاصمتُ مع شقيقته.

رفعت مدام لوغرا يديها نحو السقف.

الأخطاء كلها اجتمعت، كلها؟ هاتِ، اعطني هذه الرسالة، فأنا أشعر بأنّ صبري قد عيل. هاتِ.

وأحذت الرسالة بحزم.

ثم نظرت إليها مدام لوغرا نظرة استخفاف. وأخيرا قالت:

أصغي إلي، سوف يأتي هذا الرجل إلى هنا. سأستقبله داخل الصالون، في الأسفل.

سأقول إنّ هذه الرسالة سقطت من صدارتك فيما نحن نحلّ أزرارك. سوف يقرؤها. وكوني على ثقة من أنّه لن يراك على الفور. وحين يعرف طبيعة مرضك، سينتظر حتى تطمئنّ نفسك، ما لم يكن غبياً. سوف يردّ عليك، فتريني رسالته لننظر من بعد في ما علينا أن نعمل. لكن إياك والحماقات، هل تسمعيني؟

انقضت نصف ساعة بحالها قبل حضور الدكتور. ارتدت مدام لوغرا، في تلك الأثناء، تنورة وصداراً من الكتان الأبيض. وغادرت الغرفة بعد أن أوعزت إلى أدريين بالبقاء مرتاحة وأن تتصنّع النوم إذا ما ألح موركور على لقائها. وفيما هي تهبط الدرج، فتحت غلاف الرسالة التي ائتمنتها عليها أدريين، فقرأت مضمونها، ونهزت بكتفيها وأعادت لصق الغلاف بكل عناية.

كان الدكتور واقفاً وسط الصالون حين دخلت مدام لوغرا. لم تتوانَ عن الملاحظة ذهنياً أنّها لم تخطىء بشأن سنّه وأنّه يحمل على قسماته آثار كل واحدة من سنيه الخمس والأربعين. إنّه أطول منها، فقامته تشابه قامة أدريين تقريباً، لكنّه على درجة من النحول الأقصى الذي يجعله يبدو ممشوقاً أكثر من الفتاة. يغطي شعرُه الذي ما زال أسودا أعلى جبينه وصدغيه، فيزيد في حدّة بياض بشرته التي لا تتلوّن إلا على وجنتيه. وتشبه عيناه عينا أخته، ما خلا ذلك القلق الظاهر أبداً في الحدقتين. بل إنّه، بخلاف ذلك، يلقي نظرة على الأشخاص والأشياء بمزيج من الاهتمام والعذوبة فلا يبدو أنّه يحوّلها عنهم إلا على مضض. ويأتي أخيراً حاجبان أسودان، مقوّسان قليلاً، ليسبغا عليه تلك الهيئة الجنوبية، والأجنبية بعض الشيء، التي تشاهد لدى ماري موركور. وله أنف رقيق ومستقيم لكنّ المنخرين مفتوحان كثيراً. وتتيه على فمه، بشفتيه الرقيقتين المرسومتين بخفة، شبه ابتسامة لا تمّحي امّحاءً تاماً أبداً، فتبدو التعبير الخالص عن طيبة خارقة. ويمرّ بيده على ذقنه بحركة تبدو لديه عادة دائمة. كان يرتدي بزّة سوداء وصدرية ذات ثنايا ورتوق، تدلّ على القِدم، أياً تكن مهارة رتقها، لكنّ بياضها لا عيب فيه.

أشارت مدام لوغرا بيدها إلى مقعد قائلة: "دكتور، تفضّل".

فقال دون أن يجلس:

- سيدتي، أعتقد أنّ الأمر يتعلّق بقضيّة مستعجلة. وذلك، على الأقل، ما قيل لي.

فكررت مدام لوغرا بلهجة تتسم بالخطورة:

- يتعلّق الأمر بقضية مستعجلة. لكن أرجو أن تتفضّل فنجلس أولا.

وجلسا. لفّت مدام لوغرا ساقاً على أخرى وكتفت يديها وقالت بلهجة مهيبة:

- يتعلّق الأمر، يا دكتور، بالآنسة موزيرا. جاءت تزورني اليوم في حدود الساعة الثانية، حين سقطت فوق العشب مغشياً عليها. فتطلّب الأمر

مني ومن مدبّرة شؤون المنزل أن نضع قطعة قماش مبللة على صدغيها، وأن نصفعها...

- كم دام الإغماء؟

- اربع دقائق أو خمساً. وفيما كنت أحلّ أزرار الانسة موزيرا، انزلقت هذه الرسالة من صدارتها. ها هي، يا دكتور، إنّها تحمل اسمك وعنوانك.

مزّق الغلاف وقرأ الرسالة. وتنحنحت مدام لوغرا ونظرت إلى حذائها. وبعد قليل رفعت نظرها خلسة، فتفحّصت وجه الدكتور الذي قطّب حاجبيه.

فكّرت قائلة: "لقد استغرق وقتاً طويلاً. فهل هو يحفظها عن ظهر قلب؟"

وفجأة سألها موركور وهو يطوي الرسالة، هل تسمحين لي يا سيدتي بإلقاء سؤال أو اثنين؟

فأجابت مدام لوغرا بعد أن تنحنحت من جديد: "بكل طيب خاطر، يادكتور".

- أتعلمين إن كانت الآنسة موزيرا تشعر للمرة الأولى بتوعّك من هذا النوع؟

- أجل، في بيتي أنا. أما من ناحية أخرى فلا أدري، إنّها لم تتحدّث عن صحتها قط. وكنت أحسبها بحال جيدة.

- هل كانت أحسن حين تركتها؟

- قبل قليل كانت نائمة.

- هل تقيأت؟

- كلا.

- هل كانت حرارتها مرتفعة؟

- كلا أيضاً.

- سأذهب غداً لأزورها، يا سيدتي. أرجو أن تتفضّلي فتقولي لها ذلك حين تستيقظ.

ونهض فبدا مترددا. ثم قال:

- سيدتي، هنالك سؤال قد ألوم نفسي إنْ لم أطرحه عليك، فهو يتعلّق بالتاكيد بحالة الآنسة موزيرا الصحية.

فقالت مدام لوغرا بالتعبير الذي تفرضه المناسبة:

- أنا على أتم الاستعداد للإجابة على أسئلتك، يا دكتور.

- أنت تعرفين الآنسة موزيرا، فهل معرفتك بها عميقة؟

- إنني أراها يومياً.

- هل كانت تبدوهادئة وراضية في هذه الفترة الأخيرة؟

كانت يدا مدام لوغرا مضمومتين طول الوقت. ففتحتهما ونظرت في راحتيها كأنما تبحث فيهما عن جواب. وأخيراً قالت:

- وجدتها عصبية ومنهارة.

- هل تعلمين إنْ كانت تأكل كالمعتاد؟

- أجل حسبما أعتقد. لكنّها أصبحت نحيلة.

ثم أضافت مدام لوغرا بلهجة شبه مسرحية:

- منذ بضعة أيام وهي تسعل.

واحنت رأسها فبدت مستغرقة في التفكير. فسألها بصوت أخفض:

- هل تظنين أنّها تأثرت كثيراً بموت أبيها؟

فأجابت وهي ترفع كتفاً وحاجباً:

- بكل تأكيد، لكن لا بدّ من وجود شيء آخر.

عندئذ قال الدكتور وهو يأخذ قبعته:

- لا بأس. أشكرك كثيراً يا سيدتي. إن كان بوسعك أن تجعليها تمضي الليلة هنا، فأعتقد أنّ ذلك أفضل لها. فغالباً ما يرتد تغيير بسيط بالعادات، نفعاً على حالة شخص عصبي.

فكّرت مدام لوغرا لبضع ثوان، ثم قالت:

- لا بأس، سوف تنام في بيتي.

* * *



-٥-

استيقظت أدريين وسط الليل، وعرفت على الفور أنّها ليست في بيتها. كان القمر يضيء الصالون الصغير حيث استقرّ المقام بالفتاة لتنام. نهضت عن الكنبة التي استخدمتها سريراً، فوضعت خفيها، وتوجّهت إلى النافذة التي تُرِكت نصف مفتوحة. كان الهواء ثقيلا. وأعلنت السماء الصافية من كل غيمة، عن نهار يوم غد، أكثر حرارة من الأيام السابقة.

تراءى لأدريين أنّها لم تعد تحيا سوى حياة عجيبة شبيهة بتلك التي يمكن أن نعيشها في الحلم. تذكّرت الحديث الذي دار بينها وبين مدام لوغرا قبل أن تنام، وكيف أنّها سعت لمجابهة تلك المرأة التي رغبت رغبة مطلقة في تثبيط عزيمتها، وتغيير عاطفتها، وجعلها تعترف بما تطلق عليه طالباً ممتازاً للزواج. وكرّرت الفتاة بصوت خافت ومزيج من الغضب والإرهاق: "طالب زواج، طالب زواج ممتاز، إنني لأهزأ بذلك. فهل هي غلطتي إن أحببت ذلك الرجل؟ فأنا لم أختره!"

جلست على حافة النافذة ووضعت مرفقها على عارضة الاستناد. كان الشارع كله أبيض اللون مع ظلال فاقعة على صفحة الجدران. ويسود صمت عميق، هو صمت منتصف الليل ومنتصف النهار، الذي يرزح على القلب في مدن الريف الصغيرة، كأنّ كلّ شيء حيّ قد أصابه موت مفاجىء. رفعت عينيها فرأت، في الجانب الآخر من الشارع، منزلا ضيقاً في طرف حديقة. كانت الدرجات الست للمدخل الخارجي تصعد دونما أناقة حتى باب يتألف قسمه العلوي من شبك ذي رسم معقّد. تعرف أدريين ذلك الشبك حقّ المعرفة.

فلكم جالت بأصابعها وهي بنت صغيرة على الحبكات الحديدية! كان في تلك الذكرى البسيطة شيء مرهق ما. وتساءلت: "لِمَ أنا هنا؟" مضت بنظرها نحو النوافذ. كانت ست، منحوتة من الحجر كثير الحصى، عالية وضيقة هي أيضاً، كما المنزل نفسه، وسطح معمّد مبتذل ومصاريع فيها فتحات بأشكال معيّن.

وهنالك الكوّة المستديرة، ثم السطح. إنّه ذلك السطح شبه العمودي الذي لم يتوصّل الطقس لأن يصبغ بلون باهت قرميداته باحمرارها الشديد والجديدة جداً. كان انتباه أدريين منصباً كله على تلك التفاصيل التي لاحظتها مئات المرات، لكنّها تبدو وقد اكتست من أجلها، في تلك الساعة وفي ذلك المكان، مظهراً لم تره عليها من قبل البتة. فالأمر كأنّ نوعاً من الهلوسة قد استولى على فكرها. وبلغ بها الأمر، لشدّة ما نظرت إلى دارة الزان، أن كادت تتخيل أنّها لم تطأها قدماها قط، بل إنّها لم تلحظ حتى تلك الساعة وجود هذه الدار المبتذلة ببنائها السيّء. وكان ذلك الانطباع يتجاور داخل نفسها والتقزّز الذي ينتاب المرء حيال شيء يعرفه تمام المعرفة، فيشيح بوجهه عنه على نحو مباغت وباشمئزاز، من بعد أن تحمّل رؤيته على مدى سنين طوال.

وفكّرت: "إنّي أحلم. فليس لي أن أظلّ هكذا".

لكنّ نوعاً من الخدر استبقاها في مكانها فلبثت ساكنة، تسند خدها بكفّها وتعتمد بمرفقها على عارضة الاستناد. أما وأنّها لم تتوصل إلى النهوض والتحرّك، فقد شعرت كذلك بأنّها عاجزة عن توجيه فكرها. فتوافدت عليها كافة أشكال الذكريات من غير أن تقوى على بذل أدنى جهد لاستبعادها. وهي أفكار تعبر دماغها حسبما يبدو، على هواها. انتابها الإحساس العجيب بأنّها تتواصل مع عالم غير معروف، وأنّ إرادتها قد سُلِبت منها، وأنّها مرغمة على البقاء مستسلمة. ولم يكن موضع نقاش أن تكون حزينة أو أن يتولاها الخوف. فعدم الاكتراث بكل شيء يحتل الآن مكان اليأس الذي رمى بها أرضاً قبل بضع ساعات.

فقد شعرت بنفسها، على حين غرة، مبعدة عن مكوّنات حياتها العادية، ولمّا كانت تنظر إلى دارة الزان من غير أن تقوى على أن تضع في الحسبان

أنّها أمضت فيها حياتها كلها، فقد كانت مندهشة أيضاً من العواطف التي تسبّبت لها بالكثير من الألم، ولم تتعرّف على نفسها داخل ذكرى عذابها إلا بمشقّة. هنالك شيء ما قد حملها خارج نفسها. كانت تعي ما في جسدها من وزن. فرأسها ويدها وذراعها وجسدها كله بدت لها أنّها لا تشكل سوى كتلة واحدة، ولم يعد بوسعها أن تتحرّك. وتراءى لها أنّها قد أفلتت من تلك الكتلة الساكنة وأنها تحوّم فوقها. وشيئاً فشيئاً، ولج قلبها هدوء عذب، واستولى على حواسها، في الوقت نفسه، دوار لا يُعرَف ما كنهه. فالدارة والأشجار مالت أمام عينيها إلى طرف ثم إلى الطرف الآخر، بكل هدوء، فكان ذلك التأرجح الذي طال الأرض يؤرجحها.

أغمضت عينيها وأدركت في اللحظة نفسها أنّ السحر قد تحطم. فالحياة تتشكل داخلها مجدداً، على نحو ما عرفتها، على حساب الذكريات. رأت نفسها من جديد على حافة الطريق، وذراعاها مثقلان بحزمة كبيرة من أزهار الحقول. وفكّرت في أنّ كل شيء قد بدأ تحديداً هنالك.

لكنّها شعرت، فيما هي تستسلم للنزول مع انحدار ذاكرتها، بشيء ما يشبه هزّة. فكان الأمر كأنّها، وهي على وشك السقوط إلى أمام، تماسكت أو بالأحرى كأنّ قوة مجهولة جذبتها إلى الوراء فجعلتها تعود إلى ذاتها. فاختلط كل شيء أمام ناظريها، ودوّى في أذنيها ضجيج جعلها ترتعد. لقد سمعت دقاً على الباب المشبك لدارة الزان، ثم طرق سمعها، بعد لحظة من الصمت، ضجيج آخر ولّد لديها رغبة في الصراخ. وعلى الرغم منها، قامت بتحليله. هنالك في البداية صوت كامد وثقيل تكرّر بفوارق مألوفة وغير منتظمة، وهوأكثر تردداً في البداية، ثم أكثر سرعة وقوة من بعد، ووقع أقدام مشوش، وأخيراً تمتمة متعاظمة لأقوال تتردّد بصوت منخفض. أصغت، مذعورة للرمل وصرير الحصى الصغيرة تحت العجلات وهي تدور ببطء. رأت تلك العجلات مجددا.أما كانت تمشي إلى جانبها؟ كانت عجلات سوداء. وبدا الرمل أبيض تقريباً في حرارة الصباح. كانت تراه عند قدميها بين العجلتين

الاثنتين. كان ذلك كل ما وسعها رؤيته، فلم تشأ أن ترفع ناظريها. هنالك فكرة واحدة شغلت ذهنها واتخذت أهمية عظيمة: "الناس كلّهم ينظرون إليّ، فلا ينبغي أن أمشي بسرعة زائدة، ولا ينبغي أن أقترب من هذه العجلات، وينبغي أن أنتظم بمشيتي على خطا الجياد. فالناس كلهم ينظرون إليّ." كانت تمضي ببطء، وسط الذهول نفسه، وهي تكاد تختنق تحت برقعها المصنوع من الكريب. إنّها تمشي في موكب جنازة أبيها.

استعادت قواها على نحو مباغت فنهضت. قالت بصوت عال مختنق:

- ماذا دهاني؟ لئن فكّرت في هذا كله فسوف أصاب بالجنون.

هرولت إلى المنضدة الصغيرة عند رأس السرير وأضاءت السراج. لمّا تبلغ الساعة الثانية. كان قلبها يخفق بشدة حتى أنّها رفعت قبضتها إلى صدرها كأنما تريد إيقاف تلك الضجة المتسارعة التي تتجاوب في جسدها كله. جلست على سريرها. وفجأة تساءلت:

"لِمَ لا يسعني أن أنام كالآخرين؟ ألن أنعم أبداً بيوم هادىء أو بليلة هادئة؟"

انسدل شعرها على وجهها، فأزاحته ونظرت فيما حولها. فتلك القطع من الأثاث التي لم تكن مألوفة لديها، بدت لها عجيبة تحت الضوء المتحيّر لسراج الزيت. وكثرتها مفرطة. أما وهي تؤجَّر لعدد كبير من الناس، فلم يكن يبدو عليها أنّها ملك لأحد. وتساءلت من جديد:"لِمَ لا أستطيع أن أنام في بيتي؟ ولكن ما حقيقة ما بي؟" بدا لها هذا السؤال وقد نفذ إلى أعماق يأسها، فكررته بصوت عالٍ: "ولكن ما حقيقة ما بي؟"

شعرت بالهواء البارد يلامس قدميها الحافيتين فارتعدت. بدت لها فكرة إطفاء السراج، والتمدّد من جديد فوق تلك الكنبة الضيقة جداً، مستحيلة. فالخوف سيتولاها في الظلمة. وهنالك أشياء كثيرة تترصدها، وهي جاهزة لأن تفرض نفسها عليها فور أن تصير في العتمة، وفرطٌ من الذكريات الملحة كي تَعْبُر ذاكرتها، وفيضُ من التوجّسات وفيضٌ من تبكيت الضمير وفيضٌ من الأشباح التي ينبغي الكفاح ضدها.

نظرت إلى السراج الذي يشتعل تحت عاكسة نور من الحرير المموّج، مجهّزة بكشكش بدا مظهره التافه غريباً وشبه مشؤوم في هذه الساعة من الليل. وبدأت ذبابات صغيرة أيقظها النور بالدوران حول الزجاج لحين أن استهلكت حرارةُ اللهب الأصفر أجنحتها. وتجاورت على المنضدة الصغيرة، من حول السراج، أصداف ذات أشكال شتى، مع أغراض مصنوعة من الصدف. تأمّلتها أدريين بفضول يشوبه نوع من المقت. فقد مثّل لها خيالها، على الرغم منها، أصابع مدام لوغرا القصيرة وهي تفتح تلك العلب الصغيرة أو تقلّب قاطعات الورق يمنة ويسرة.

وشيئاً فشيئاً، بدأت تعي بوضوح أكبر ما قد جرى منذ يومين. لقد تنازعت مع ليونتين لوغرا، فشتمتها، ثم تصالحت معها وهي الآن في صالونها. غير أنّها تعرف حقّ المعرفة ما رأي آل موركور بهذه المرأة، الــ لوغرا، مثلما تقول ماري موركور. فكان لا بدّ من الاختيار بينهم وبينها، وهي تعرف ذلك تمام المعرفة، فما فعلت؟ لقد استقرّت عند مدام لوغرا، فرَجَتها أن تكلّم الدكتور عنها، وجعلت منها المؤتمنة على أسرارها، على علم من آل موركور، وبالتالي على رؤوس الأشهاد. فأصابتها تلك الفكرة بالذعر. وتولّد في نفسها شك مباغت في أنّها لا تتصرّف دوماً مثلما تريد على وجه الدقّة. ففي داخلها شيء لا يخضع لكافة أوامر عقلها. والمسألة أشبه بفخ، انساقت نحوه على غير دراية منها، فوقعت فيه. فبدا لها أنّ جسدها قد تجمّد.

تردّدت لحظة، ثم نهضت نهضة واحدة، وبحثت عن ملابسها فارتدتها على عجل. كانت يداها ترتجفان وهي ترتدي جوربيها، ولم تتوصّل إلى تزرير قميصها ولا أن تعقد إلى الأعلى شريطتي حذائها ذي الساق الطويلة. سرّحت شعرها كيفما اتفق بأصابعها. ونظرت في المرآة فوق الموقد وتحت ساعة الحائط، فرأت شعرها المشعّث، وعينيها المذعورتين، محاطتين بظلّ كأنما بالغ بزيادته عمداً ضوء السراج الرديء. واستفظعت على نحو مباغت، ذلك الصالون الصغير بقطع أثاثه، تلك القطع المشبوهة، التي كانت ملكاً

للجميع. فشرعت تهرول يمنة ويسرة، بحثاً عن محفظتها التي كانت تحملها بالأمس. فوجدتها على الأرض، وراء الكنبة التي أمضت الليلة فوقها. ثم خرجت.

تسنّدت إلى الجدار، وهي تسلك رواقا يقود إلى الباب المؤدّي إلى الحديقة. كان المفتاح في القفل، فأدارته بهدوء ودفعت الباب لتجد نفسها على المدخل الخارجي. اجتازت الممشى على رأس قدميها ثم مشت فوق العشب كي لا يسمعها أحد. وحين مرّت تحت شجرة كستناء توقفت: فهنا تعوّدت أن تجلس فيما مضى، حين تقوم بزيارتها اليومية لمدام لوغرا وتصغي إليها وهي تلقي عليها أسئلتها الماكرة حول موت السيد موزيرا. ولهنيهة قصيرة، سبّبت لها ذكرى تلك المنغّصات انفعالاً عنيفاً. ثم استعادة السيطرة على نفسها فجرت حتى الباب المشبّك، الذي لم يكن لحسن حظها مغلقاً إلا بالمزلاج.

أضحت الآن في الشارع. كانت قارعة الطريق، تحت ضوء البدر، بيضاء اللون تماماً، حتى كأنّها مكسوة بالثلج. وأحياناً تهتزّ رؤوس الأشجار بهدوء، لدى مرور نسمة لا صوت لها، كأنما هي تتحرّك وسط حلم، وتلتمع أوراقها تحت الأشعة المصفرّة مثل قطع معدنية. توقفت برهة بسبب التعب، لكنّها لم تتردّد البتة. انتقلت بخطا سريعة إلى الجانب الآخر من الشارع وفتحت الباب المشبك.

سمعت الباب يُصفق خلفها فاستدارت لتنظر إليه بتعبير لا يقبل الوصف. بدت عيناها وقد توسّعتا. فهي أيضاً كانت بيضاء تماماً وشبه ممتقعة اللون، وشفتاها نصف مفتوحتين كأنّهما مستعدتان للصراخ، ولم يعد لهما من لون فلا تكادان تتميّزان عن باقي وجهها. استدارت في تلك الأثناء نحو المنزل وصعدت الممشى الذي تصرخ حصاه تحت خطاها.

كان كل ما في حركاتها ينمّ على التصميم. فمضت مسرعة. إلا أنها، لحظة وضعت قدمها على الدرجة الأولى من درج المدخل، شعرت كأنّما قد استولى عليها ضعف مباغت، حتى بدت كأنّها توشك أن تسقط إلى الخلف، لكنّ شيئاً من ذلك لم يحدث، فقد أحنت رأسها ورفعت طرف تنورتها وارتقت الدرجات الست، ففتحت الباب وتوارت داخل المنزل.

كانت علبة الكبريت في المطبخ. فمشت بخط مستقيم، وهي تضرب بيدها اليسرى على الجدار طول تقدّمها، وهكذا حتى وصلت إلى نهاية الرواق. كان يترصّدها هلعٌ لا يوصَف، وينتظر اللحظة التي سوف تستسلم فيها على نحو مفاجيء، حيث ستصرخ وسط الليل، وقد استولى عليها الرعب من الظلمات. شرعت تركض وهي في نهاية الرواق، من غير أن تدرك كيف استطاعت الدخول إلى البيت في تلك الساعة المشؤومة. لقد أضحت في المطبخ، تصطدم بالكراسي التي لم تعد تتعرّف على مكانها، حين شعرت بأنّ غمّها يتعاظم، وأنّ الرعب سوف يستولي عليها، قبل أن تتمكّن من إضاءة مصباح الغاز. تعثّرت على ذلك النحو لبضع ثوانٍ في الظلمة، فكاد يُجَنّ جنونها، إلى أن عثرت أخيراً على علبة الكبريت التي لم تفتحها إلا بمشقة، لشدة ما كانت يداها ترتجفان.

حين رأت النور يلمع، نظرت فيما حولها برهبة. رفعت قبعتها وجلست إلى المائدة، تحت قنديل الغاز الذي يملأ الصمتَ صوتــُه الذي يشبه الأزيز. حدّقت عيناها في الرسم المستهلك للقماش المطلي الذي خلّفتِ الأطباقُ والصحونُ فوقه آثارَ دوائر.

استجابت فجأة لشيء لا يُقاوَم، فانحنت إلى الأمام، وأسندت رأسها إلى ذراعيها فأخفت وجهها.

انقضى ربع ساعة بحاله قبل أن تقوى على تقرير الذهاب إلى غرفتها.

* * *

-٦-

إنّها الآن في وسط الصالون، تمسك بقطعة القماش وتنظر بأسى إلى قطع الأثاث، تلك التي ترغمها العادة، وتكاد تغدو حاجة، على مسحها كل يوم. وتشعر في بعض الأحيان، مثلما كانت حالها بالأمس، بأنّ لامبالاة عامة حيال كل ما يخبّىء لها النهار قد اجتاحتها. ويتراءى لها أنّ قلبها المنهك بالعذاب لم يعد قابلاً لأن يتحمّل أي عناء. بدت لها أصناف فزعها واضطرابها في الليلة السابقة غير معقولة، فهي مطمئنة حالياً، لكنّها طمأنينة مرعبة ليست سوى نتيجة للقرف.

نظرت، وهي تمسح زخرفة الموقد، إلى صورتها في المرآة. ليست بشرتها ذات لون حسن. فبين الحاجبين تجعّد تراقبه لأنّه يتعمّق منذ بعض الوقت، وهو خط عمودي صغير كأنما رُسِم بطرف ظُفر. وتساءلت كيف يسعها أن تزيله، أو أن تحول دون تفاقمه على الأقل. وذهلت فجأة لتفاهة هذا القلق. وفكّرت قائلة:

"وما نفع ذلك؟ وما من شأنّه أن يغيّر؟"

واصلت جولتها في تفحّص كل تحفة من التحف الموضوعة على الطاولات، وهي تمرّ بالممسحة على ظهر الكراسي.

قالت في نفسها:"اليوم سوف يأتي. فمدام لوغرا قالت ذلك".

لكنّ هذه الفكرة التي جعلت الفرح يستخفّ بها قبل أربع وعشرين ساعة، خلّفتها الآن باردة تقريباً. إنّه لأمر عجيب. وعبثاً كرّرت في نفسها تلك الكلمات، وجعلت ذاكرتها تستعيد وجه دوني موركور، فلم تجد أيّ سبب لأن

تنفعل، أو أن تكون سعيدة أو تعيسة. عبرت ذهنها فكرة عجيبة. هل ذلك كله يستحق العناء؟ وهل يمكن أن تكون مدام لوغرا على حق، وأنّ الدكتور ليس في الواقع جديراً بأن تعبأ به؟ وخامرها لبعض الوقت شعور بالمرارة وبخيبة أمل عميقة.

غير أنّ توقعات مدام لوغرا تحققت، فقبل العاشرة بقليل دخل دوني موركور إلى الصالون. لم تعرفه الفتاة في بادىء الأمر. فهو لم يعلن عن قدومه ووقف هنيهة قبالتها من غير أن يقول شيئاً. نظرت اليه، وقلبها منقبض فجأة كأنّ حياتها ستفارقها على الفور، ثم أدركت أنّ الدكتور قادم لرؤيتها فاطلقت صرخة.

وسألت قائلة: "ماذا تريد؟"

وفكّرت في الوقت نفسه قائلة:" لقد أخطأت. فهذا ليس هو. إنّه أقصر بكثير. ولون بشرته أقل نضارة." لكن اليقين من أنّها لم تخطىء كان أقوى فظنّت أنّها ستغيب عن الوعي.

قال:"ظننت أنك عند مدام لوغرا. فقد ذهبت إلى بيتها أولاً لاستعلم عن أخبارك. فكيف أمضيت الليلة؟"

لم تجب أدريين.ما كان بوسعها تحويل عينيها عن ذلك الوجه الذي كانت تحسبه مختلفاً تمام الاختلاف. فشعرت بخجل مرعب وبنوع من الفرح المتوثب والمشوّش في آن معاً، مما أفقدها القدرة على الكلام. ومن غير أن تدرك كل الإدراك ما كانت تفعل، تراجعت قليلاً فجلست على الكنبة. فلبث واقفاً بعض الوقت ثم جلس بدوره.

قال بلطافة: "لو علمت بأنّ حالتك الصحية ليست على ما يرام لكنت أتيت في وقت مبكر أكثر. كان عليك أن تحيطيني بذلك علماً، يا آنسة. هل يضايقك بشيء أن تردي على بعض الأسئلة؟ ينبغي أن أعرف شيئا عما أنا بصدده".

فأومات برأسها.

"هل تنامين نوماً جيداً؟"

فكّرت ثم قالت بصوت أجش: "كلا".

- منذ كم من الزمن؟

- لست أدري.

وأضافت على الفور تقريباً: "لا يسعني الرد على هذه الأسئلة".

فأردف يقول بلهجة اللطافة نفسها:

- إنّما أطرحها من أجل أن أساعدك، يا آنسة.

تنهّدت وأطرقت رأسها. ثم أردفت كأنّها تكلّم نفسها:

- إيه، أعرف ذلك حقاً.

وبغتة غدا انفعالها قوياً جداً حتى لم تعد قادرة على ضبطه فترة أطول. فسالت الدموع من عينيها.

انتظرَ هنيهة قبل أن يتكلم، وأخيراً قال:

- إنّي أفهم متاعبك أكثر مما تظنين، يا آنسة. إنّ ما يُلحِق بك أكبر الضرر إنّما هي طريقتك في العيش، وحيدة، من دون رؤية أحد. عليك أن تخرجي، أن تشاهدي الناس. وكوني حذرة من الكآبة.

- ليست بي من رغبة في الخروج...

نهض وبدا مستغرقاً في التفكير. وجاء أخيراً ليقف في مواجهة الفتاة.

- أليست بك من رغبة في الشفاء؟

فكّرت على الفور في سعالها فخشيت أن يعلم عنه شيئاً. فردّت بحمية:

- أنا لست مريضة.

- نحن نتلاعب بالكلمات، يا آنسة. فأنت لست سعيدة. ألا تشعرين بأنّه الشيء نفسه تقريباً؟

فرفعت اليه ناظريها. قالت بجهد:

- طيب، ماذا عليّ أن أفعل كي أُشفى، وفق ما تقول؟

- هل تسمحين لي بأن القي عليك سؤالا؟

فأجابت بإيماءة من رأسها.

- هل لديك بعض عادات الورع والتقوى؟

اصطبغ وجه أدريين بحمرة شديدة، فتذكّرت ما قالت لها مدام لوغرا عن الدكتور، فخشيت أن تضايق هذا الرجل إذا ما باحت له بأنّها لا تؤمن بشيء. وراودتها رغبة مباغتة في أن تكون مثله، وأن تشبهه في كل شيء. وبعد أن انتظر الدكتور ردّها، أردف يقول، كأنّه لم يسألها عن شيء:

- أنت عصبيّة جداً يا آنسة. وأنت تقعين شيئاً فشيئاً في كآبة قد لاتتوصلين إلى الشفاء منها أبداً ما لم تبادري الآن إلى مقاومتها. ينبغي أن تقابلي الناس، وأن تبوحي بمكنوناتك بشكل خاص، وأكثر مما تفعلين بكثير. ففي ذاتك أشياء كثيرة جداً ما كان لها أن توجد. لكنّ واقع انكفائك على نفسك قد جعلها مترسّخة. لقد احتفظت لنفسك بأفكارٍ آلَ أمرُ مفعولها لأن يؤثّر فيك تأثير السم.

وظهرت عليها علائم الفزع. فسألت:

- ما تقصد أن تقول؟

فأجاب بشكل مقتضب:

- يتوجّب عليك أن تجهدي للعيش بطريقة مختلفة. ولن تكوني سعيدة أبداً ما لم تقرّري الخروج، والتعرّف إلى أشخاص في المدينة، وأن تشغلي نفسك. فما تفعلين هنا طول النهار؟

نهزت قليلاً بكتفيها من غير أن ترد. وبعد أن تاملّها بعض الشيء، جلس مقابلها إلى المنضدة الصغيرة، وباشر الكلام كأنّه غيّر رأيه في السلوك الواجب اتباعه، فاعتمد خطة جديدة.

- لا تُخفي عني شيئاً ، يا آنسة. تذكّري أنّي جئت لمساعدتك، وأكاد أقول لإنقاذك. أليس صحيحاً أنك، من يوم وفاة أبيك، أكثر شقاء بكثير؟"

ارتعدت. فأردف قائلا:

- أعرف تمام المعرفة، يا آنسة، أنّ أباك قد اختُطِف منك في ظروف موجعة بشكل خاص. فمن الطبيعي جداً الرضوخ لبعض الوقت لألم بهذه الشدة. أليس كذلك؟

لقد ثبّت عينيه في عينيها، فامّحت الابتسامة عن شفتيه. ولم تستطع تحمّل نظرته فحوّلت رأسها. كان كيانها كله يرتجف بقوة جعلتها تعتمد على ذراع الكنبة. وقد استولى عليها من جديد، الإحساس الرهيب بأنّها أشبه ما تكون بوحشٍ علِق في الشرك وأنّها لا تستطيع الإفلات. تلألأت حبات عرق تحت شعرها وسالت ببطء على بشرتها. وسمعت صوتها بغتة، سمعت صوتها هي، يقول شيئاً ما. أجابت:

- بلى. فذلك طبيعي جداً.

فقال أيضاً:

- ومع ذلك، فهل كنت إذن، يا آنسة، شديدة التعلّق بأبيك حتى ذلك الحد؟ أما كانت تطرأ أحياناً، خلافات صغيرة بينكما؟

ونظرت إلى موركور الذي ظلّ ساكناً. فقالت بصوت مخنوق:

- ولِمَ تسالني ذلك؟

فأجاب من غير أن يحوّل وجهه:

- لكي أساعدك على أن تقولي لي الحقيقة.

شبكت أدريين أصابعها فوق المنضدة، بحركة آلية، وحبست نفَسَها. كان لسانها جافاً وخشناً في ملامسة حنكها. فتمتمت بعد لحظة:

- ما قصدك أن تقول؟

لم يجب. حينئذ شعرت بشيء صاخب يضجّ في صدرها. وبدا لها أنّ أحشاءها كلها تدقّ مثلما يدقّ قلبها. ونهضت فجأة فوضعت قبضتيها على عنقها. قالت:

- لِمَ تنظر إليّ؟ وما ستفعل؟

كان صوتها أشبه بصرخة مخنوقة. ثم أردفت تقول بهيئة يصعب تحديدها، وتذكِّر بطفل يتلو درسه عن ظهر قلب:

- لقد سقط أبي على الدرج.

فسألها موركور بصوت خافت:

- ألم يكن إذن يرى طريقه؟

أجابت بنبرة أكثر هدوءاً: "كلا".

بدا عليها أنّها تتفكّر، وواصلت كأنّها تتكلّم في حلم:

- كانت ظلمة، فقد أغلقت غرفتي حيث السراج. وفجأة أصبحنا نحن الإثنين في العتمة، عند أعلى الدرج.

ولاذت بالصمت.

فقال موركور:

- وماذا بعد؟...

فأردفت قائلة بصوت مفهوم بمشقة:

- دفعته من كتفيه.

ساد صمت طويل. لم تعد تشعر، منذ بضع دقائق، بأيّ خوف. فكل ما فيها أضحى مخدّراً إن صحّ القول. وساد الانطباع الوحيد بحدوث شيء خارق للعادة. فنظرها قد تشوّش. تخيّلت أنّ خطاً سميكاً أسودا يحيط برأس الكتور وكتفيه وأنّ الحجرة تلِجُها ظلمة مُتدرّجة. والأمر كأنّها توشك أن تغرق في النوم، لكنّها لبثت واقفة ساكنة.

بعد لحظة سألها موركور: "لِمَ قتلتِ أباك؟"

تولاها انفعال رهيب. فهذه الكلمات التي قيلت بصوت أكثر قسوة وقوة قد انتزعتها من ذلك الخدَر الذي شعرت بأنّها انزلقت اليه. انطلقت صرخة من أعماق حلقها، فمشت خطوة نحو الدكتور لتسقط على ركبتيها عند قدميه. لم يتحرّك.

قالت بأنين:

- من أخبرك بذلك؟ إنّها تلك السيدة لوغرا.

فأجاب قائلاً:

- أعرف ذلك من زمن طويل. منذ صباح قدومي للتثبّت من الوفاة.

كتمت صرخة وقالت:

- هل ستُبلِغ عنّي؟

- أُبلِغ عنك؟ وكأنّك لم تُعاقَــبي بما فيه الكفاية! انهضي.

قال ذلك فنهض، وانحنى فوقها ليقول لها بلهجة آمرة أيضاً:

- انهضي، يا آنسة.

فأطاعت. كانت رجفةٌ عصبية تهزّ يديها ورأسها. بدت كأنّها تقول كلا. توسّعت عيناها المحاطتان بالسواد بفعل الفزع. فوضع أصابعه بكل هدوء على ذراع الفتاة وقال لها بصوت أكثر هدوءاً لكن بحزم:

- سوف نصعد الآن إلى غرفة أبيك.

ظهر على وجهها عبوس أشبه بابتسامة، لكنّ تعبير النظرة المأساوي جعله مرعبا.

فاردف قائلاً دونما استعجال:

- لا تخشي شيئاً، أكرّر القول إنّي جئت إلى هنا لأساعدك. أنت فتيّة جداً، فينبغي أن تكوني سعيدة، لكنك لن تكوني كذلك أبداً، ما دمت لم تتخلّصي من بعض الأفكار. أما الآن، فعليك أن تطيعيني. فلنصعد إلى تلك الغرفة.

فأجابت وهي منكّسة الرأس:

- الباب مغلق. فقد مضى شهران من غير أن أدخل إليها.

- اين هو مفتاح هذه الغرفة.

لزمت أدريين الصمت. فألحّ بلطافة:

- أريد ذلك المفتاح، يا آنسة. أرجو أن تعطيني إياه.

توجّهت نحو طاولة المكتب، كأنما بفعل دافع مفاجىء، ففتحت دُرجاً أخرجت منه المفتاح. وسلمته للدكتور. فقال:

- خذيني إليها، يا آنسة. اعتمدي على ذراعي.

تردّدت هنيهة ثم عقدت ذراعها بذراع الدكتور. كان كل شيء يتراقص أمام عينيها، فهي لا تدرك من أين استمدّت القوة لتضع قدماً أمام أخرى، وأن تثبت واقفة. كانت تحسّ بملمس القماش الخشن بعض الشيء على ذراعها العاري، وخفضت بصرها قليلاً فرأت يدها البيضاء فوق كمّ دوني موركور الأسود. فوقع في تلك اللحظة داخل ذعرها ما يشبه انطلاقة لسعادة محمومة. وكان الانفعال مباغتا جداً حتى اضطرّت للتماسك حتى لا تطلق صرخة. انبثقت دموع على حوافي أجفانها. تركت يده عند باب الصالون لتعبر أولا، ثم استعادت ذراع الدكتور لتصعد الدرج. كانت تشدّ بيدها الأخرى على عارضة الدرابزين بمنتهى القوة مما جعل الخشب يئزّ تحت كفها. ما كانت تجرؤ على رفع عينيها نحو موركور ولا أن تصدّق أنّه حقاً إلى جوارها، على الرغم من أنّها تسمع لهاثه، وأنّها رأت، وقد خفضت بصرها، يد الدكتور وفردتي حذائه الأسود يعلوهما الغبار.

حين وصلا إلى سطيحة الطابق الثاني، عاد الغمّ الذي عانت منه قبل قليل ليجتاحها مجدداً فتوقّفت، وأرخت ذراع موركور. فأمسك بيدها وشدّ عليها بقوة. وسألها:

- أليس لك من ثقة بي؟

حينئذ نكّست رأسها أمام تلك النظرة التي استقرّت على وجهها، وانفجرت على نحو مفاجىء بالنحيب. أرخى يدها. وسمعته وهو يدير المفتاح في القفل فيدفع الباب.

قال من داخل الغرفة: "تعالي".

تحاملت أدريين على نفسها فدخلت.

مضت شهور على دخولها هذه الغرفة، لأنّها لم تكن تقصدها حتى قبل وفاة السيد موزيرا، وحرصت منذ ذلك الحين على ألا تطأ قدماها أرضها. وقفت برهة في العتبة ولم ترَ شيئاً بادىء الأمر، لأنّ المصاريع كانت مغلقة. واستنشمّت رائحة غبار وعفونة. أغمضت عينيها واعتمدت على إطار الباب. فيما توجّه الدكتور لفتح النافذة والمصاريع. قال وهو يستدير صوبها:

- ما بك؟ هيا اجلسي.

وأمسك بيدها ليقودها حتى الكنبة، فجلست ونظرت فيما حولها. لطالما عرفت قطع الأثاث في الأجزاء الأخرى من المنزل، حتى أنّها لم تعد تخلّف أي انطباع في نفسها، بل قد تلاقي مشقة في وصفها وصفاً دقيقاً حتى كأنّها لم تعد تراها أبداً. فهي لا تدري إن كانت جميلة أم قبيحة، إنّها قطع **الأثاث**، مثلما الغابة بالنسبة للذئب أو الثعلب هي **الغابة** من دون أي تعريف آخر ممكن. لكنّ معرفتها بغرفة أبيها أقل بكثير، فلقد أصيبت بصدمة وهي ترى السرير من خشب **البيتشبين** والكراسي من القش، وقد استخدمها سنيناً بحالها. ومهما تكن الطريقة عسيرة على التعريف، او بدت مضحكة بعض الشيء، فإنّ قطع الأثاث تلك كانت شبيهة بالسيد موزيرا. هذا والمسألة كأنّها، لطول ما ملكتها يمينه، قد أخذت شيئاً ما من هيئته. فيصعب على المرء أن يتخيّل جسداً آخر غير جسده ممدداً فوق ذلك السرير القصير والمبتذل، وبدا طبيعياً أنّ يده المعروقة، يده وحده فقط، تستقرّ فجاة على مسند واحد من تلك الكراسي. ولئن كان ما يزال في مكان ما على الأرض، فقد كان هنالك.

عرت أدريين رعدة. فسألت:

- لِمَ جئتَ بي إلى هنا؟

فأجاب موركور:

- لأعلّمكِ عدم الخوف من هذه الغرفة. لقد أوصدت بابها طول شهرين، فكنت على خطأ. إنّ ما جعلها في نظرك مرعبة إلى هذا الحد، هو أنّك لم تعودي تدخلينها البتة. وإنّ في نفسك كذلك غرفاً سرّية لا تجرئين على ولوجها، ونوافذها مغلقة. فعليك بخلاف ذلك أن تغرقيها بالشمس. فهل أنت خائفة هنا بصحبتي؟

رفعت إليه نظرة ملآى بثقة غيرت شكلها. فقالت بصوت خافت: "كلا."

فبدرت منه حركة.

- أنت ترين إذن! ها أنت قد شفيت. لم يبقَ من شيء، لا رعب ولا أشباح. كنتِ تتوقّين التفكير في أبيك لأنك كنت تخافين منه، أليس كذلك؟

رفعت يدها إلى جبينها، كأنّها خشيت ما سيقول موركور. وقرأ القلق في عينيها فأردف يقول بصبر نافد:

- إنّك تتخيلين أشياء لا وجود لها. لم يعد أبوك في عالم يتمكّن فيه من إيذائك. فما من شيء في هذه الغرفة، وما من شيء في هذا البيت. فهل تصدقيني؟

قالت: "أنا أصدّق ما تقول." أبقى يده في يدها وواصل الكلام معها، لكنّها لم تفهم ما كان يقول. فهذا التماسّ قلب كيانها. فأخذت ترتعش بكل أطرافها وشعرت بأن قوتها ستتخلى عنها. كانت عينا موركور المحدّقتين فيها تعكسان لها صورتها الخاصة. فرأت رعشة على شفتي الدكتور. وفجأة تهاوت عند قدميه وأطلقت صرخة. توسّلت إليه قائلة:

- لا تتركني!

تدفقت الدموع من عينيها بغزارة. أحمرّ وجهها وواصلت تقول مندفعة:

- أنت لا تدري كم أنا سعيدة منذ بعض الوقت. ذلك من حين وجودك هنا. لا يسعني أن أقول لك. إنْ تتركني أُصبـِحْ مجنونة فأموت. منذ شهور وشهور وأنا أفكر بك. ما كنت أدري كيف أقول لك ذلك. كتبت لك مرات عديدة. ذلك منذ اليوم الذي رأيتك فيه على الطريق.

انحنى نحوها وأمسك قبضتيها بيديه. لقد صعد الدم إلى وجهها فألهب وجنتيها. فتمتم قائلاً:

- اسكتي! فأنت لا تدرين ما تقولين.

فهزّت رأسها بعنف وأستأنفت تقول:

- لن تمنعني من الكلام. وليست غلطتي إنْ كنت أحبك.

- أنت لا تحبينني. فهذا مستحيل.

أرخى يديها فجأة وابتعد عنها من غير أن يفارقها بناظريه. فنهضت وهتفت:

- لِمَ هذا مستحيل؟

فقال:

- لكن هذا رهان يا آنسة. فكّري في كلّ ما يفرّق بيننا.هنالك سني أولاً. هل تعلمين ما سني؟ أنا في الخامسة والأربعين، أي أنني أكبُرُكِ بسبعٍ وعشرين سنة. هل فكرت في ذلك؟

استندت إلى الكنبة، وهمست:

- إنّ ذلك لا يغيّر شيئاً.

فقال موركور بحدة أكبر:

- هذا ما ترين؟ إيه! قد أبدو قاسي القلب، لكن ليس لي أن أكلّمك بطريقة مغايرة. أصغي إلي. بوسعك أن تكوني سعيدة، بل سعيدة جدا. ألست

راغبة في ذلك؟ لكن عليك، في هذا السبيل، أن تدركي منذ البداية أنّ العقل يشكل في الحد الأدنى النصف لكل سعادة عميقة حقاً ومستمرة. وواقع الحال أنّك فكّرتِ بي زوجاً... أليس كذلك؟ إنّها الفكرة التي يمكن أن تعتبر الأكثر بعداً عن العقلانية. لقد خطرت هذه الفكرة ببالك لأنك تعيشين وحيدة. أمّا لو كنت تخرجين، واستطعت أن تقيمي صلات مع بعض العائلات في المدينة... ألم يكن لأبيك الكثير من الأصدقاء في لاتور ديفيك؟ حاولي تجديد تلك الصلات. وأنا أساعدك في ذلك. ولسوف ترين. هنالك الكثير من طالبي الزواج الممتازين في لاتور ديفيك...

رفعت أدريين ناظريها. وكرّرت بألم:" الكثير من طالبي الزواج!" فأردف قائلاً:

- بلى! ويسعني أن أسمي لك البعض منهم.

- إنّي لا أريد

- ولماذا؟

- لأنني لا أستطيع أن أحب سواك.

ضم يديه وأردف يقول بهدوء:

- لقد أدخلتِ هذه الفكرة إلى رأسك ذات يوم وأنت وحيدة، أدخلتِها ذات يوم فيما السأم يضنيك. كان بوسعك تماماً أن تحبي أيّ شخص آخر. افرضي أنّ أحداً سواي قد مرّ في العربة بدلاً مني، في ذلك اليوم الذي أتيت على ذكره قبل قليل، وإنّه كان فتياً...

- ولِمَ تريدُني أن أفرض ذلك كله؟ وحتى لو كان ما تقول صحيحاً، فلا يسعه أن يغيّر شيئاً.

شعرت بدافع مباغت من النقمة على هذا الرجل الذي يجعلها تعيسة جداً. فقالت:

- أنا لم أقم باختيارك. أنت على حق. لكن لم يعد بوسعي أن أتعذب هكذا للاشيء، فهذا غير ممكن. عليك أن تحبني. عليك أن ترأف بي، وإلا فسوف أصاب بالجنون، أجل، سأغدو مجنونة. ولنسلّم بأنني أخطأت بحبك. فلا يسعني أن أفعل شيئاً. الحال هكذا.

فقال بعد هنيهة:

- لكن تمهّلي. لو قيلت لك عني أشياء سيّئة جداً، وأشياء خطيرة جداً وذات طبيعة من شأنها أن تبعدك عني. لو علمت، على سبيل المثال...

- ما الأمر؟ ماذا ستقول؟

بدا أنّه قد تراجع فجأة. فقال:

- عليك أن تفهمي جيداً أنّه لا يسعني أن أصدّق أن سعادتك ليست منوطة إلا بي. إنّ الله رحيم. ولا يسعه أن يأمر بأن تقعي حقاً في حب رجل لا يسعك الزواج منه...

- ولم لا يسعني الزواج منك؟

لم يجب على هذا السؤال وواصل قائلاً:

- لذا لا يسعني تصديق هذا الشعور، أو تصديق الوجود العميق لهذا الشعور، على الأقل.

فقالت:

- كيف؟ إذن ما تريدني أن أفعل لأبرهن لك عليه؟ هل أقتل نفسي؟

فرد بعناد:

- أستطيع أن أبرهن لك أنّك على خطأ، وأنك تغلطين بحق نفسك.

فرفعت قبضتيها إلى صدرها وهتفت:

- لكنّي أعرف أنّي غير مخطئة. إنّي أتعذّب. أنا أعرف أنّي تعيسة لأنّي أحبك. فلم لا تصدقني؟

- نظر إليها صامتاً، وقال أخيراً:

- لا يسعني مواصلة هذا النقاش، يا آنسة.

فقالت:

كيف؟ وما ستفعل؟ إنّك لا تنوي الانصراف؟

فأمسك بها من يدها وأرغمها على الجلوس.

أطاعت وهي ترتعد، في حين أنّه جلس قبالتها. قال بعد فترة من الصمت:

- سوف أقول لك شيئاً من شأنه أن يبعدك عني يا آنسة.

رغبت في منعه من الكلام، لكنّ الشوق لسماع صوته كان أقوى. فسألت بصوت لا يكاد يُسمع: "وما هو؟"

فبذل جهداً كي يقول لها:

- هاك، إنّني مريض. أنا مريض جداً.

"مريض؟" كرّرت تلك الكلمة كأنّها لم تفقه لها من معنى.

- أجل. ولهذا السبب لم تشأ شقيقتي أن تظلّ في باريس حيث كانت معلّمة. أتت لتستقرّ هنا. كانت شديدة القلق. فأنا تحت رحمة نوبة.

امتقع لون أدريين. فهمست: "ليس ذلك صحيحاً". فقال بهدوء:

- بلى يا أنسة، فأيامي معدودة. وفي غضون عامين أكون تحت التراب.

انطلقت صرخة من صدر الفتاة. نهضت لتتهالك مجدداً فوق كنبتها. تدحرجت على جبينها حبات كبيرة من العرق. ولزم موركور الصمت فلم ينظر إليها.

قالت فجأة وبصوت خافت:

- هذا ليس صحيحاً. فأنت تقول ذلك لتتخلّص مني.

فهزّ رأسه نفياً. فهتفت:

- طيب، وليكن! فليكن ما يكون إن كنتَ مريضاً! وليس ذلك مبرّراً يمنعني من الزواج منك. سوف أموت معك. وبمَ يهمّني أن أموتَ إنْ لم تعد أنت في الوجود؟

ونهضت فقامت بحركة في اتجاهه، لكنّه نهض بدوره فأمسك بيديها بحيوية. قال بصوت متهدّج:

- ليس لي الحق في أن أدعك في الأوهام، يا آنسة. فأنا لا أحبك.

لم تحوّل ناظريها ولبثت ساكنة. لكنّها شعرت بأنّ كفّيها تبردان بين كفّي الدكتور الدافئتين، وتولاها انطباع مفاجىء بأنّ قلبها لم يعد يقوى على الخفقان وأنّها سقطت في هوّة عميقة. وسألت:

- ما عليّ إذن أن أفعل.

تزايد الوجع في صدرها، فاضطرت لإطلاق زفرة كي تلتقط أنفاسها.

لم يجب على الفور. ورأت دموعاً تتحدر على خديه. كان يشد على يديها بقوة كأنّه عازم على منعها من الهرب. تمتم يقول:

- إنّها لمحنة كبيرة. ولا بدّ من الردّ حتى لا يتضعضع كيانك.

لكنّها لم تسمعه. كانت تنظر من فوق كتفه كأنّه ليس هنالك. وكانت يداها مخدّرتين.

بعد قليل مضى في سبيله.

* * *

-٧-

إنّها وحيدة حالياً في غرفة أبيها. فمنذ نصف ساعة وهي جالسة في الكنبة، أمام الباب نصف المفتوح، حين سمعت من يناديها. لم تنهض، بل أصغت إلى ذلك الصوت الذي يتردّد رجعه في الصالون تارة وفي البهو تارة أخرى. ثم أنذرها وقع الخطا بأنّ هنالك من يصعد، وأنّه يبحث عنها في الطابق الأول. وتتكرّر النداءات في كل دقيقة بنبرة مختلفة، متنقـِّلة من المرح إلى الدهشة ومن الضيق إلى القلق، إنّها مدام لوغرا. وقد صعدت أخيراً إلى الطابق الثاني فاكتشفت أدريين.

هتفت: "طيّب، ولم لا تردّين؟"

وحين رأت هيئة أدريين توقفت.

سألتها بلهجة شبه فزعة: "هل جاء، يا أدريين؟ ماذا قال لك يا ابنتي؟"

أما وقد بدا أنّ أدريين لم تسمعها فقد جاءت إلى القرب منها، فوضعت يدها على ظهر الكنبة وانحنت حتى لامست وجهها بخدها.

تمتمت قائلة: "يا ابنتي المسكينة، إنّه غير جدير بك، فخففي عنك".

همست الفتاة قائلة: "دعيني".

فأردفت مدام لوغرا تقول بحزم مليء بالعذوبة: "كلا، لن أدعك. سوف تخبريني، ستقولين لي كل ما في قلبك، سوف تتحرّرين".

رفعت أدريين عينيها نحو جارتها بشكل مفاجيء. فقد ذكّرتها الكلمات التي قالتها مدام لوغرا بما قال لها موركور في بداية حديثهما معا. فكان الأمر

كأنّ ألمها يتجدّد فيتغيّر شكله على نحو مباغت. كانت حتى ذلك الحين غارقة في نوع من الذهول، ثم هزّتها نغمة الصوت التي تحاكي بسخرية صوت الدكتور، فجعلتها تثوب إلى رشدها. فارتمت بين ذراعي المرأة السمينة وأجهشت بالبكاء. كانت تختنق بدموعها. وتشعر بحرقتها على أجفانها وخديها. شدت بيديها الاثنتين على ذراعي مدام لوغرا ورغبت في أن تقول شيئاً، لكنّ كلماتها انقلبت إلى صرخات غير مفهومة. ودخلت خياشيمها دفقات من العطر، من ذاك الذي تعرفه حق المعرفة والذي أيقظ داخل نفسها في هذه الدقيقة فيضاً من ذكريات الشهور الفائتة. سمعت صوت مدام لوغرا وهي تهمهم بعبارات صغيرة وتضمّها إلى صدرها.

تخلّصت منها في غضون دقائق وبذلت جهداً كي تنهض.

قالت مدام لوغرا بلهجة تردّد: "خفّفي عنك. ظلّي حيث أنت. ذلك أنّك في حالة!"

ارتمت أدريين فوق الكنبة مجدداً ووضعت كفيها على عينيها.

قالت من خلال دموعها: "ماذا سيحلّ بي؟"

أخذت مدام لوغرا كرسياً فجلست قبالتها.

بادرت تقول: "يا بنيّتي، يجب أن تكوني متعقّلة".

فتأوّهت أدريين : "لا أستطيع".

قالت مدام لوغرا بكل هدوء: "لسوف ترين، يا حبيبتي. لقد عانيت أنا أيضاً من آلام عاطفية. أؤكد لك أنّك ستتعافَيْن مع الزمن".

نهزت أدريين بكتفيها وتناولت منديلها من تحت تنورتها. قالت بصوت أجش:

- لا أريد أن أُشفى.

- يا لهذه الفكرة! لكنّ الناس جميعاً قد تعذبوا، ياصديقتي، والجميع تعافى بين وقت وآخر. فأنت لست الوحيدة. قولي ذلك لنفسك. هنالك الكثير من الناس...

فقالت أدريين وهي تمسح عينيها: "كلا، ليس من أحد..."

استدارت فجأة نحو ظهر الكنبة، ملتوية الخصر، فأسندت جبينها إلى قبضتيها.

قالت "آخ!"، مرات عديدة.

نهضت مدام لوغرا وقالت بلهجة رجاء:

- هلمي، يا ابنتي، تشجعي. وربما لم يضع كل شيء.

- قال لي إنّه لا يحبني.

- قال لك ذلك حقاً؟ قد تكونين أسأتِ سمعاً.

نهضت أدريين ، لدى سماع تلك الكلمات، وتقدّمت نحو مدام لوغرا. قالت بوجهها الشاحب:

- قد أكون أخطأت، في واقع الأمر. أليس كذلك؟

أجابت مدام لوغرا بصوت متردّد:

- لا يفاجئني ذلك.

احتوت أدرين بين ذراعيها، فسندتها وتوجّهت نحو السرير حيث جلستا معاً.

قالت مدام لوغرا، بعد أن تنهّدت: "يا ابنتي، فلنهدأ ولننظر إلى الأشياء بأعصاب باردة. أنت لا تدرين أنّ بين الأشياءالتي نقولها أحياناً وبين تلك التي نفكّر فيها... وفي النهاية، قد يكون ذلك الرجل على حق ليرد عليك بالرفض هكذا. وربما ليست سوى كلمة قيلت هكذا عبثاً. أنت تدركين، بما أنّك ما زلت فتيّة، وأنّك فوق ذلك غنيّة... سيكون أمراً مدهشاً جداً إن لم تتمكّني من تسوية شؤونك... يا حبيبتي، هيا انهضي. هلمّي نذهب إلى بيتي، أو أن نقوم بجولة في المدينة".

وأحاطت بذراعها كتفي أدريين التي أدارت صوبها وجهها الغارق في الدموع.

قالت بصوت مختنق: "تعتقدين إذن أنّ.. أنّ الأمر يمكن أن يُسوّى؟"

فقالت مدام لوغرا بلهجة اطمئنان كبير: "أجل، لكن تشجعي قليلاً، تباً للشيطان! انهضي. المطلوب أولاً ألا تفقدي صوابك. آه! لو لم أكن هنا! حاولي أن تفكّري في شيء آخر...هل كانت هذه غرفة أختك؟"

ونهضتا.

قالت أدريين بصورة آلية: "كلا، بل غرفة أبي".

وأدخلت ذراعها تحت ذراع مدام لوغرا فلم تبتعد عنها.

"إنّها غرفة... آه، لا بأس. هل تريدين أن ننزل، يا حبيبتي؟ سنذهب لنجلس في غرفتك. وسوف أهتم بإعداد شراب منعش لك".

فسألتها أدريين : "وهل ستذهبين؟"

- لن أذهب، اطمئني.

وخرجتا بتمهّل. كانت مدام لوغرا تمسح بيدهاعلى يد الفتاة وتشدّ بذراعها على ذراعها.

قالت لها وهما تهبطان الدرج: "ألا قولي، يبدو أنك قمت برحلة قصيرة. أه! ينبغي ان تقصي عليّ ذلك بعد أن تتحسّن حالك. لكن كيف لم تفكّري ياحلوتي، في إرسال بطاقة إليّ؟ ألم أعدْ صديقتك؟ أتدرين، ونحن بهذا الصدد، أنّي سأطلب منك خدمة، يا حبيبتي أدريين ؟ آه! أعتذر لأنّي سأكلّمك في هذه المسألة اليوم ، لكنّ الظروف ترغمني على ذلك؟ إنّ البريد الذي تلقيته اليوم هو السبب. تخيلي أنّي تلقيت فاتورة المورّد من باريس. وبما أنّي لا أملك مالاً حالياً وأنّي لن أسافر من أجل مبلغ ألف ومئتي فرنك... وفي نهاية المطاف، فكّرت بك".

قالت أدريين التي لم تفقه شيئاً: "فكّرتِ بي أنا؟"

- أجل، يا حبيبتي. أنت تعرفين أنّي أجد في باريس عشرات الأشخاص لتسليفي هذا المبلغ الضئيل. آه. أما زوجي، فلا. إنّه يعاني في هذا الوقت من متاعب كثيرة مع مصانع الغزل. أما الصديقات، الصديقات مثلك، يا أدريين.

كما أنّ المسألة لن تدوم سوى أيام معدودات. لدي مبلغ صغير يتراوح بين ألفين وثلاثة آلاف، وانتظر استلامه بين وقت وآخر. أعتذر حقاً يا صديقتي الحبيبة، لكن إن كان بوسعك أداء خدمة لصديقة...

- كل ما أملك من مال مودع عند الكاتب بالعدل. وليس لديّ سوى ما أقبض شهرياً.

- لكن لديك مدّخرات، يا حبيبتي. أوّاه! لا أنصحك بمسّها لو كان لشيء آخر، لكن يسعك حقاً أن تكوني مطمئنّة.

كان في صوتها لهفة، يصعب عليها تمويهها. مسحت أدريين عينيها وأنفها.

قالت: "أعرف ذلك." وأضافت: "سوف أرى."

قادت مدام لوغرا إلى غرفتها وفتحت خزانتها ذات المرآة.

قالت مدام لوغرا فيما أدريين تبحث عن علبتها: "تخيلي أنّها فاتورة مورّدي. أودّ أن أسألك إن كان المرء يرغب في دفع فاتورة بائع الفراء يوم الرابع عشر من تموز".

مرّت فترة صمت. عثرت أدريين على العلبة المصنوعة من خشب الزيتون ففتحتها بالمفتاح الصغير المعلّق مع ساعتها.

قالت بهيئة كئيبة: "هاك."

فأردفت مدام لوغرا بقولها: "إيه!"

وغاصت أصابعها في العلبة فأخرجت اللفائف الذهبية. وفي تلك اللحظة، تذكّرت أدريين ما قال لها أبوها بشأن المال الذي أقرضته لجيرمين: "إنّك لن تريه أبداً. فهذا مبلغ نقص من بائنتك". فاطلقت صرخة ومدّت يدها نحو العلبة، لكنّ مدام لوغرا جذبتها اليها بعنف فجعلتها بعيدة عن متناول أدريين. وهتفت:

- يا إلهي، لكَم أخفتني! ماذا دهاك؟

فقالت أدريين بصوت مخنوق:

- لا أستطيع أن أقرضك هذا المال. رديه إليّ!

فنهضت مدام لوغرا قائلة، والعلبة تحت ذراعها:

- أؤكّد لك إنّه في أمان.

- إنّي بحاجة لهذا المال على الفور، يا سيدتي.

- ولماذا؟

أصطبغ وجه أدريين بلون الأرجوان.

- لا أستطيع أن أقول لك. إنّه يلزمني.

فقالت مدام لوغرا وقد ازدادت حدة:

- حقاً؟ أتعلمين أنّ ما تقومين به حيالي هنا، ليس من الكياسة في شيء؟ فبعد أن وعدتني بهذا المبلغ، ووضعته بين يدي...

قالت أدريين وقد فقدت صوابها:

- سأوضح الأمر لك.

- وأنا مصغية لك، يا أدريين.

بدأت أدريين القول بصوت متألّم:

- إذا ما تزوجت...

توقفت فضمّت كفيها. وتنهّدت ملء صدرها.

فقالت مدام لوغرا وهي تضع العلبة على كرسي بجانبها:

- غير أنك لن تتزوجي هذا الأسبوع.

فسألتها الفتاة بعد لحظة:

- هل تعتقدين بأنّي سوف أتزوج ذات يوم؟

فاستأنفت مدام لوغرا تقول، بلهجة شخص راغب في العودة بالحديث إلى اللهجة المعقولة:

- يا حبيبتي، نحن نتكلّم عن شيئين مختلفين. طلبت منك أن تقرضيني المال، فأعطيتني إياه، أي أنك أقرضتني إياه، ثم تريدين استرداده بحجة أنّك بحاجة إليه من أجل زواجك. لكن دعيني أقل لك إنّ المرء لا يتزوّج بالسرعة التي تتخيّلين. سوف تحصلين على هذا المال في بحر الأسبوع. يبقى أنّ ذلك كله غير معقول! وإنّي لأتساءل عن طريقتنا في التفكير.

وتناولت العلبة ففكت اللفائف. قالت: "فلنعدَّ هذا المال".

نظرت أدريين من غير أن تنطق بكلمة إلى تلك الأصابع القصيرة والمدببة وهي تخرج بخفة القطع الذهبية من فئة العشرين فرنكاً، فتفك بطرف ظفرها أقمطتها الورقية. تحققت مدام لوغرا من محتوى كل لفافة.

قالت: "خمسة آلاف ومئتان. طيب! آمل أننا نشعر بالغنى! ها أنا، ياحبيبتي، آخذ فرنكاتي الألف ومئتين. هل تريدين أن أكتب لك إيصالاً بها؟ كلا، أليس كذلك؟ قلت لك إنّها مسألة يومين بل ثلاثة أيام على الأكثر. ليتك تعلمين أية خدمة تؤدين لي! أؤكد لك أنّي لن أنساها أبداً".

وفيما كانت تتكلّم، دسّت ستّ لفائف من القطع الذهبية في حقيبة يدها وهي ترمي الفتاة بنظرات جانبية. قالت:

"لسوف ترين، يا أدريين. فمن الممكن أن تكوني ذات يوم بحاجة إليّ مرة أخرى، وعندها... أليس كذلك؟"

ولما لم تجب الفتاة بشيء أعادت مدام لوغرا وضع العلبة وحقيبتها على الكرسي واتخذت هيئة جادة. قالت: "يا أدريين".

لكن من يرَ أدريين يقلْ إنّها غاصت شيئاً فشيئاً في حلم، وإنّ عينيها، على الرغم من بقائهما مفتوحتين، قد كانتا مستقرتين، لا تريان ما يقع تحت نظراتهما.

مسحت مدام لوغرا بأصابعها فوق حاجبيها، وعليها مظهر من القلق.

قالت بصوت خافت: "هاتِ نرَ. ما بها أيضاً؟"

وأمسكت بيد الفتاة بحركة تنمّ على نفاد الصبر.

- ألم تسمعي ما قلت لك، يا أدريين؟ هيا بنا، يا أدريين!"

حملت حقيبة يدها ونهضت، ثم نظرت إلى الفتاة وبدا عليها التفكّر. قالت فجأة:

- ماذا لو قلت لك إنّي سأقترض ألفاً وخمس مئة، بدلاً من ألف ومئتين؟

وأمسكت بالعلبة الخشبية فمدتها للفتاة بيد كانت ترتجف قليلا بسبب الانفعال. لكن بدا على أدريين أنّها لم تلحظ تلك الحركة.

تمتمت مدام لوغرا بارتباك: "المسألة خطيرة بعض الشيء".

انتظرت هنيهة ، ثم وضعت العلبة على المنضدة ففتحتها من غير أن تحوّل نظرها عن أدريين. وأردفت:

- لا بأس، سوف أضيف ثلاث مئة فرنك على الألف والخمس مئة التي تكرّمت فأقرضتني إياها. هاك، إنّي أضعها في حقيبتي.

رافقت حركتها تلك الكلمات. ثم لبثت ساكنة بجانب المنضدة، ومترددة. وأخيراً تمتمت:

- ألا كم تخيفني! أقول إنّها تنظر إليّ، وحين أكلّمها..."

تأمّلت الفتاة بمزيج من الفزع والنفور. وقالت في اضطرابها بصوت خافت:

- ما يمنعها من أن تراني؟ إنّها ليست مريضة؟ وهي لا تسمع أيضاً.

ونادتها: "يا أدريين!" لكنّها لم تتلقَ جواباً.

وبغتة أخذت القطع الذهبية المتبقية في العلبة الخشبية فدستها في حقيبتها. كانت عيناها تبرقان. وضعت العلبة الفارغة بهدوء على الطاولة، فاقتربت من الفتاة ومكثت لحظة بالقرب منها. تعلّق نظرها منذ ثوانٍ بالسلسلة

الذهبية التي تربط الساعة إلى زنار أدريين. أسندت كفّها إلى كتف الفتاة من غير أن يبدو على أدريين إحساس بتلك اللمسة. عندئذ قامت مدام لوغرا، وبحركة سريعة من يديها الاثنتين، بتمرير السلسلة من فوق رأس أدريين واستلّت الساعة من زنارها. لقد تم الأمر بسرعة كبيرة ومهارة فائقة حتى ليحسب المرء ذلك واحداً من الأدوار التي يقوم بها أحد المشعوذين فيجعل عينيك تجحظان. وفي غضون ثانية، مضت الساعة والسلسلة لتنضما إلى اللفائف الذهبية في أسفل الحقيبة.

انتصبت مدام لوغرا في وقفتها وهي تتمتم:

- هيا بنا. لقد كنتِ حقاً مدينةً لي بذلك كله!

جالت على ما حولها بنظرة حادة، ومشت بضع خطا في الغرفة، وفمها نصف مفتوح وصدرها يعلو ويهبط بلهاث أقصر من المعتاد. ثم توجّهت صوب الباب وخرجت دونما إبطاء.

* * *

-٨-

"يا آنسة أدريين!"

إنّها الطاهية تنادي من على الدرج. أجفلت أدريين لدى سماعها ذلك الصوت فلم تجب إلا حين سمعت ديزيريه تصعد الدرج.

سألت بصوت أجش: "ما الأمر؟"

فأردفت ديزيريه وهي تدخل: "الآنسة هنا؟"

كانت نظرتها الحادة والمنقِّبة تضايق الفتاة، تلك النظرة التي تعلّقت بالسراج الفارغ، غداة وفاة السيد موزيرا. وهي امرأة يبدو أنّ نار الطهي قد جففتها مثل عود الكرمة. فليس من يتخيّل أنّ الدم يسري تحت تلك البشرة الجافة والشحيحة، والملتصقة بالعظام حتى بدت وقد اتخذت منها لونها. كان أنفها مستقيماً بمنخرين شبه مفتوحين، وعينين عسليتين ووقحتين، وطريقة في إدخال الرأس بين كتفينها وهي تتكلّم مما يساهم في إظهارها بهيئة من الترقُّب.

وأضافت:

- ظننت أنّ الانسة قد خرجت. لم أسمعها تمشي في الصالون. ظننت أنّها قد تكون خرجت لوداع مدام لوغرا.

- مدام لوغرا؟

فبدت أدريين في غاية التعجّب: "ويا لها من قصة! ألا تعلم الآنسة أنّ مدام لوغرا قد صفعت صاحب دارة لويزا؟ وهي، ألم تخبر الآنسة بشيء من ذلك؟ صحيح أنّه ليس هنالك ما تزهو به. لقد انتهى كل شيء على أي حال. لقد أُغلِقت الدارة. ألم تسمع الآنسة صوت العربة قبل قليل؟

فأجابت أدريين وهي تنهض: "كلا، يا ديزيريه".

فاستأنفت ديزيريه تقول: "إنّ الآنسة لا ترى من أحد قط، لذا فهي ليست على علم بشيء. لا بأس، فلقد جرى طرد مدام لوغرا. أجل. لقد تحوّل الأمر إلى فضيحة بوجود تلك المرأة التى تعرض نفسها في كل مكان، مخضّبة ومتبرّجة، ووقحة فوق ذلك. ومن المؤكّد أنّهم لوعرفوا ما حقيقة أمرها، ما كانوا أجّروها تلك الدارة. وأخيراً خشي المالك دون شك مما سيسود به الاعتقاد، فبعث إليها برسالة. إنّ الأرملة غوت، خالة بائعة الخردوات، هي التي روت لي ذلك، لكنّ الناس جميعاً على علم به. فما كان من مدام لوغرا إلا أن ذهبت إلى المالك فتفوّهت حياله بالحماقات. يبدو أنّ عقد الإيجار كان باسم صديقها، لكنّها تنازعت معه، فاتفق مع المالك على طردها. لقد ذهبت إلى باريس من أجل تسوية المسألة تحديداً. وكانت فضلاً عن ذلك بحاجة للمال، بل لكثير من المال، وعلى الفور. حتى إنّها جاءت هذا الصباح لتطلب مني أنا. لكن ليس للآنسة أن تتخيّل أنّي قد أعطيتها. أليست الآنسة على مايرام؟ قالت ديزيريه ذلك وهي ترى أدريين تغمض عينيها وتتكىء على الطاولة. قالت أدريين:

- ليس الأمر بذي بال. كم هي الساعة الآن؟

- الغداء جاهز، يا آنسة.

رفعت أدريين كفّها إلى جبينها وتوجّهت صوب كنبتها فجلست. كان نظر ديزيريه يسبّب لها إرباكاً رهيباً. أحسّت به يتابعها فيدرس حركاتها. قالت وقد حولت نظرها:

- سوف أنزل بعد برهة قصيرة.

فقالت ديزيريه:

- آه، نسيت أن أقول للانسة إنّ هنالك من جاء يسأل عنها منذ حوالي ساعة، لكن يا إلهي! ظننت أنّ الآنسة قد خرجت.

- من، يا ديزيريه؟

نهزت ديزيريه بكتفها صوب الشارع.

- إنّها أخت الدكتور.

- تفوّهت بكلمة **التكتور**، بشيء من الاستخفاف. فهتفت أدريين:

- الآنسة موركور!

- ظننت أنّها لن تذهب مطلقاً. لقد ألحّت وألحّت. قالت إنّها ستعود.

- متى؟

- لم تقل لي ذلك.

ثم أضافت بصوت رقيق يبدو على الدوام أنّه لا يقول شيئاً إلا لتهيئة سؤال جديد.

"إنّ هؤلاء جميعا أناس، ما كان أبوك يحبّهم البتة".

لكنّ أدريين لم تسمع تلك الكلمات الأخيرة. فنهضت فجأة وجاءت نحو الطاهية.

قالت بعد شيء من التردّد: "يا ديزيريه، سوف أمضي النهار كله في البيت. إنْ تعُدْ تلك المرأة، تُعلِميني على الفور، أتسمعين؟ المسألة هامة".

بدا أنّها استردّت قوّتها فجأة، فتكلّمت بحماسة لم تفكّر في تمويهها.

- أنت واثقة من أنّها قالت إنّها ستعود؟

- فلتكن الآنسة مطمئنة. وهل الآنسة حريصة حقاً على رؤيتها؟ من المؤكد أنّ الأمر لا يتعلّق بي، لكن ليس من امرأة أسوأ من تلك المرأة. بيد أنّ هذا لا يحول دون رؤيتها وهي تتقدّم يوم الأحد، في القداس، لتتناول القربان المقدس... لكنّ الآنسة لا تذهب إلى القداس.

قالت أدريين: "لا بأس"، وكانت تودّ لو تراها تتصرف، لكن لا يسعها الامتناع عن الإصغاء. فاستأنفت ديزيريه وهي تهزّ رأسها:

- لا مناص من القول إنّ الآنسة ليست فضولية البتة. فهي لا تعرف شيئاً. والأمر يعنيها. الحق أنّ الآنسة موركور هذه قد أثارت غضبي كثيراً قبل قليل، حتى أوشكت أن أقول لها بعض الحماقات. فهي بهيئتها...

فسألت أدريين بصورة آلية:

- أية هيئة؟

فردّت ديزيريه بلهجة ساخطة:

- إنّها متعجرفة. ومن ثَمَّ فليس لأحد أن يقترب من أخيها، إنّها غيورة! وكأنّ هنالك من يرغب في ذلك الدكتور المسكين. وقد يحسبهما المرء متزوِّجين، بيد أنّه لايروقه كثيرا، وفقاً لما يبدو، أن تتولى السهر عليه سهراً دائماً...

فامتقع لون أدريين. وسألت بصوت مخنوق:

- ديزيريه، ماذا تقولين؟

فنهزت ديزيريه بكتفيها وقالت بلهجة تنمّ على الشفقة:

- إنّما الآنسة تعيش في حلم. وهي تتخيّل أنّ الاخرين يفعلون كذلك. تباً للشيطان، يا آنسة، ألا تدركين أنّ المرء حين تكون لديه أسرار مثل أسرارك، فإنّه لا يمضي ليبوح بها إلى نساء على شاكلة مدام لوغرا؟

فهمست أدريين :"أسرار؟"

شعرت بساقيها تتراخيان فتهالكت فوق السرير. قالت ديزيريه:

- بلى، بلى. إيه! ما يزال يحالف الآنسة الحظ بوقوعها على امرأة مثلي، فأنا ما أزال أستطيع القول إنّ ذلك غير صحيح.

توقفت بانتظار أن تطلب إليها أدريين أيضاحاً فكرتها. لكنّ الفتاة لزمت الصمت. فاردفت تقول بصوت أكثر هدوءاً:

- لا ريب في أنّ الآنسة تدري ما أريد أن أقول. يمكن القول إنّها نعمة عليك أن أكون طاهية هنا وأن يكون لساني طويلاً بما يكفي للصمود أمام ثرثارات المدينة.

قالت أدريين :

- الثرثارات، يا ديزيريه؟

- أجل، الثرثارات في السوق، هاك، يبدو على الآنسة أنّها لم تفهم. آه، سنعود إلى الحديث عن ذلك، فلا تخافي. وفي كافة الحوال، سوف أقدم للآنسة نصيحة نافعة، إنّها تتعلّق بالنّصيحة التي يمكن القول إنّي جديرة بالعرفان من أجلها. طيّب، لا ينبغي للآنسة أن تخرج البتة في الوقت الراهن. أما فيما بعد، فسوف نرى. هنالك كافة أشكال الإشاعات التي تروج بشأنها.

أطلقت أدريين صرخة ونهضت. قالت:

- رباه، اسكتي، يا ديزيريه. سوف أعطيك مالاً. أتسمعين؟

فردّت ديزيريه من غير استعجال:

- آه، بلى، بلى، يا آنسة.

أمسكت أدريين بذراعها، كانت ترتعد بشدة حتى كادت تعجز عن الكلام. أخيرا قالت:

- ديزيريه، أنا استطيع الاعتماد عليك، اليس كذلك؟ سوف أعطيك نقوداً، مئة فرنك، مئتين، ماذا قالوا لك يا ديزيريه؟

- ما قالوا لي؟ لكنّ الجميع يكرّر القول إنّ السيد أباك...

فقاطعتها أدريين وقد طار صوابها:

- كلا، كلا. يبقى أنّهم لو تكلموا عن ذلك حقاً، لأحاطني الدكتور علما...

قالت ديزيريه وهي تنفجر ضاحكة:

- آه، ذاك! ألا تدرين أيضاً أنّه أكثر منك سذاجة؟ لكنّه ينظر إلى الجميع داخل غيمة. وهو يتخيل أنّ الجميع بمثل طيبة الخبز. ألا كم هو مضحك عشيقك، يا آنسة! لا أقول هذا لأغيظك، لكنّ بائعة الخردوات تروي قصصاً جميلة أخذتها نقلاً عن مدام لوغرا. لقد قلتِ إذن كلّ شيء لتلك المرأة؟ آه، أما عن قصة السيد أبيك، فلولا أنّك رويتها...

كتفت يديها فاتخذت هيئة مرعبة.

- لولا أنّك رويتها، لما خرجت من الأرض وحدها!

صاحت أدريين: "كلا، كلا"، ورفعت قبضتيها إلى شفتيها. وارتمت بحركة تشنّجية على ركبتي الطاهية فقبضت على تنورتها بيديها المرتجفتين. وتمتمت: "سوف أعطيك كل ما لدي، يا ديزيريه. ارحميني، يا ديزريه. أنت تعلمين أنّ ذلك كله غير صحيح. ربّاه! ربّاه!"

جرّت نفسها حتى السرير، فخبّأت وجهها وغطّت رأسها بكفيها.

وصدر من فمها نوع من العويل المخنوق.

هنالك بعض الأوقات التي يبدو عيشها مستحيلاً. فينبغي التمكّن من تجاوزها وإغفالها وملاقاة الحياة أبعد منها بقليل. ما الداعي إلى تحمّل تلك الأشكال من العذاب كلّها ؟ إنّها لا تأتي بأي تحسّن، ولا تحمل حلولاً للمتاعب الراهنة، وهي عجفاء فلا تؤدي إلا إلى زيادة القلب قسوة. ذلك ما كانت تفكّرفيه أدريين وهي متمدّدة فوق سريرها.

أسدلت ستائر نافذتها، ولم تجهد لتنام بل لتبقى هادئة البال. كان فكرها يمضي دونما تغيير نحو المستقبل وذلك عبر جهد يائس حتى لا تتفكّر في أحداث الصباح. كانت تقول في نفسها بعناد يدخل فيه من الجبن على قدر مايدخل من الشجاعة: "قد ينتهي كل شيء إلى التسوية". ويبدو لها ذلك محتملاً لا سيّما أنّ هنالك قدراً ضئيلاً من الأسباب الداعية إلى الاعتقاد به اعتقاداً جاداً. كانت ترصد كافة أشكال الضجة في البيت وفي الشارع. ينبغي أن ينتهي الأمر بماري موركور إلى القدوم. سوف تدفع الباب المشبك، فتصعد، ولن تدخل إلى هنا إلا بأنباء، بأنباء أكيدة، وإلا فلِمَ ألحّت كل ذلك الإلحاح لترى أدريين؟

كانت الفتاة تنتظر كل شيء من تلك الزيارة، تنتظر خلاصاً من آلامها كلها، تنتظر معجزة. وما كانت لترى من شيء آخر، لم تكن لترى اليوم التالي. الشيء الوحيد المحتسب هو زيارة ماري موركور. كانت تجد في

العاصفة الرهيبة لقلقها، بعض الثواني من الفرح الجنوني، فرح الهذيان المتمثل في أنّ تلك المرأة ستعيد إليها سعادتها. فكيف تعيد اليها سعادتها؟ إنّها لا تدري من الأمر شيئاً. بل إنّها لم تفكّر بما باتت تعرف عن طبع ماري موركور، فهي تستودعها سعادتها بلا رويّة لأنّه لم يكن هنالك من أحد تستطيع أن تطلب منه العون. أما الباقي فيتلاشى. لم يبقَ في الدنيا سوى وقع خطا تلك المرأة القصيرة التي ستسمعها تسير على الممشى، ثم الدقائق القليلة التي ستمضيها بحضورها.

وضعت يدها بحركة آلية على زنارها، كأنما لتخرج منه ساعتها. ولم تفكّر وهي في غمرة اضطرابها حتى في إبداء دهشتها من أنّ ساعتها ليست معها. هنالك أصابعها فقط التي واصلت جسّ زنارها وتلمّس صدارتها، بحثاً عن السلسلة الذهبية الطويلة التي تلتقيها عادة.

نهضت في غضون ربع ساعة وهي تكاد تخرج عن طورها لنفاد صبرها. حين مرّت من أمام المرآة، لم تستطع الامتناع عن النظر إلى نفسها فيها. كانت أجفانها المنتفخة تريها صورة شخص نام نوماً مزعجاً. أما وجهها فممتقع.

تأوّهت: "يا إلهي، ولكن ينبغي لها أن تأت".

مشت حتى الباب وألصقت أذنها بالمصراع. فمن حين جاءت ديزيريه وكلمتها، وهي لم تغادر هذه الغرفة. لمّا تتناول غداءها. قد تكون الساعة بلغت الثالثة. أصغت وهي تحني رأسها. ثم أدارت المفتاح بحركة آلية، إنّها لا تفكّر في النزول مهما كلّف الأمر. ففكرة أنّها ملزمة برؤية ديزيريه مجدداً تجمّدها. بذلت كل ما تبقى لديها من قوة لاستبعادها من ذهنها. لو تستطيع فقط أن ترى ماري موركور مجدداً... صارت المسألة استحواذاً. فلديها أشياء كثيرة توضحها لها، ولديها كل ما لم تستطع أن تشرحه لأخيها، وكل ما كان سيقنع أخاها قناعة أكيدة. وهي لن تشعر بأي خجل حيال ماري موركور. يضاف إلى ذلك أنّها فرصتها الأخيرة، وهي تعرف ذلك ولديها حولها حدس داخلي موثوق جداً. سوف تتحدّث إلى تلك المرأة كما لم تفعل حيال أحد مطلقاً، وستفعل ذلك بكل صراحة ودون وجل. ولسوف تقول لها: "أجل، أريد

الزواج من أخيك، فأنا فتيّة، وأنا غنيّة، غنيّة إلى حد لا بأس به. فأين سيجد راغبة في الزواج مثلي؟ وهل أنا دميمة؟"

استدارت صوب المرآة وكرّرت تلك الكلمات بصوت خافت. لم يكن نور الغرفة الخافت يلائمها. فذهبت إلى النافذة وأزاحت الستائر دفعة واحدة، إنّها الآن أمام خزانتها تنظر إلى نفسها من جديد. كان النور مسلطاً على وجهها تقريباً، إنّها شاحبة من دون شك، بل شاحبة بشكل مفزع، لكنّ نظرها انزاح إلى كتفيها السمينتين اللتين تملآن صدارتها، والى ذراعيها المستديرين اللذين مدّتهما قليلاً، ثم جعلته ينحدر على طول فخذيها.

قالت في نفسها: "قد لا أكون جميلة على قدر ما أظن".

حاولت أن تتذكّر عدد الأشخاص الذين قالوا لها إنّها جميلة. مدام لوغرا أكثر من الجميع، لكنّ مدام لوغرا كانت تطمع في مالها. أبوها قالها، ذات مرة، أجل، أبوها. وذلك العامل الذي لاحقها في درو. أمّا هو، دوني موركور، أما كان وقع في هواها على الفور، لوانّه وجدها جميلة؟

تمتمت تقول: "إنّي على ثقة من أنه يخفي نيّته." تذكّرتْ في واقع الأمر كلمة قالتها مدام لوغرا بهذا المعنى. ثم واصلت تقول بصوت أعلى: "وأنا، من بعد، أحبه حباً فائقاً، أحبه حباً فائقاً يحول دون ألا يحبني".

وبدأت باستنباطات لا تنتهي، ثم أغتاظت على نحو مباغت من انتظار بلا نهاية، فذهبت إلى النافذة وسقطت على ركبتيها أمام عارضة الاستناد.

تمتمت وهي تضرب بقبضتها على حافة النافذة: "ولكن فلتأتِ".

وبغتة تولّد لديها الانطباع بأنّ كل شيء يتكرّر كأنّ شيئاً لم يحصل بالأمس ولا حتى في هذا الصباح نفسه. وها هي ترتئي أن تُفهِم الدكتور أنّها تحبه، لكنّ كل شيء إنّما يبدأ مجددا داخل نفسها هي، إذ ليس في نفسها سوى ذلك العشق، في حين أنّ كل ما حولها مستمر. فالأشياء تمضي بسرعة، بسرعة أكبر. والناس يتكلّمون ويتصرّفون، وتتهيّأ أحداث من كل صنف ولون في حين أنّها هي تظلّ ساكنة. أغمضت عينيها ووضعت كفيها على أذنيها.

فهي تسمع مرة أخرى أيضاً، ذلك الطنين الذي تمقته، فهو في مكان في أعماق رأسها، إنّها على حالها دوماً، وعذابها هو نفسه. قيل لها: "أنا لا أحبك"، فلم يغيّر ذلك من واقع الأمر شيئاً.

رأت، في تلك اللحظة، ماري موركور تقطع الشارع متوجهة نحو دارة الزان. فهبّت أدريين واقفة واحتجبت وراء الجدار. إنّ قلبها يخفق. وجاءها حدس مفاجىء بأنْ لا أمل يُرتجى من وراء تلك الزيارة فنزلت.

دخلت ماري موركور بحركة سريعة إلى الصالون حيث كانت أدريين جالسة. كانت ترتدي على الدوام تلك الملابس التي كأنّها كانت من قبل لامرأة أقوى، ذلك أنّها لا تتطابق وجسدها النحيل. كان عنقود من العنب يُثقِل قبعتها المصنوعة من القش الأسود، المستديرة وضيقة الحوافي. وقد ارتدت، على الرغم من الحر الشديد، سترة طويلة من الكتان الأزرق فوق قميصها. وهي تحمل بيدها المحفظة الصغيرة القديمة التي أخرجت منها رسائل أدريين، اثناء زيارتها السابقة. وربما لم تكن تتوقع أن تجد الفتاة في الصالون، لأنّها قامت بحركة لدى رؤيتها واحمرّ وجهها قليلاً.

قالت، من غير إلقاء التحية: "سعيت لرؤيتك هذا الصباح. لم أعرف. قد تكونين أعطيت إيعازاً بشأن ذلك. إنّ ما سأقول لك، على كل حال، لن يستغرق وقتاً طويلاً ولسوف تسمعينه".

كان صوتها قاسياً ومهموماً. ويحرّك رأسها نوع من الاهتزاز المتواصل فتخفق بفعله أوراق الكرمة من التفتا السوداء على قبعتها. نظرت إلى الفتاة التي كانت تستند إلى ظهر كنبة وواصلت قائلة:

"أتدرين ماذا أنت تفعلين في هذا الوقت؟"

انتظرت جواباً لم يأتِ. كان لوقع تنفّسها وسط الصمت ضجيج وصوت أجش، كأنّه صفير.

قالت أخيراً وبشدّة: "إنّك تقتلين أخي".

أجفلت أدريين وفغرت فاها. سألتها قائلة: "أنا؟"

فردّت ماري موركور بإصرار وهي تقترب منها:

"بلى، أنت. ألا تدركين إذن مدى ما فعلتِ من شرّ؟ إنّ أخي رجل في منتهى الهشاشة".

وبدأت دموع الغضب والانفعال تطغى على صوتها، لكنّها تمالكت نفسها وواصلت باندفاع، كأنما خشيت أن تنفجر باكية قبل أن تصل إلى نهاية ما تريد قوله:

"إنّه في غاية الهشاشة. ولم تكن حياته سوى سلسلة طويلة من الأمراض. إنّه ضعيف، وقلبه ضعيف، ومن شأن شيء تافه أن يؤدي إلى نوبة قلبية، الى توقــُّـف القلب. إنّما أنا التي تولّيت العناية به دوماً. إنّني أكبره بعشرة أعوام، ومع ذلك فهو الذي يبدو أكبر سناً. فإذا ما أصابه مكروه..."

وتولاها نوع من الاندفاع فلم تستطع أن تكبحه.

"... والأولى أن أمضي معه. فليس لي في العالم سواه. لا يسعني منعه من تكبّد التعب، ومن معالجة الناس حتى الذين لا يدفعون أتعابه، لكنّ ما لاأسمح به، هو أن تأتي نساء على شاكلتك ليقضضن مضجعه بمشكلاتهن".

حدّقت في أدريين التي لبثت ساكنة، فتوقّفت هنيهة. ثم كرّرت تقول بغضب مسعور، لأنّ السخط تجاوز إشفاق ما قبل قليل:

"نساء على شاكلتك. أتدرين ما فعلتُ برسائلك؟ لقد رميتُها في الشارع، ولسوف تكون الحال كذلك كلما حاولتِ أن تكتبي له. كذلك لا تأملي في أن تريه من بعد أبداً. لقد جاء هذا الصباح لأنّك اجتذبته إلى بيتك بحجة المرض. أما الآن فقد تم إخطارنا. فيسعك تقديم أنصارك إلى طبيب آخر. اطلبي عناوينهم من صديقتك ليونتين لوغرا. لا بدّ أن يكون لديها الكثير".

وتنهدت فاردفت:

"كلا، فحين أتفكّر في الأمر... لقد رجع هذا الصباح، فحسبت أنّه سينتهي. لبث خمس دقائق لا يقوى على التلفّظ بكلمة. ما شعرت بالخوف قط مثل تلك اللحظة، صدّقيني. فاستلقى على الأريكة في غرفة عيادته..."

وبدت وقد طفح بها الكيل من الذكرى التي استحضرتها فاستأنفت تقول بشدة أكبر:

"بوسعي أن أقول لك الآن، إنّه إذا ما أصابه مكروه، فسوف أجعلك مسؤولة عن ذلك. هنالك قوانين بكل تأكيد تطالُ جناةً من أمثالك. وهاك أخيراً، إنّ كان لدي من نصيحة أسديها إليك، على كل حال، فهي أنك خيراً تفعلين برحيلك من هنا".

توقّفت وهي ترى التعبير على وجه أدريين. ثم أضافت بصوت أقل قسوة:

"هلمي، فإنّ صوت العقل هو الذي يكلّمك. ومادمت غير سعيدة هنا، فاذهبى للعيش في مكان آخر. فالوسائل في متناولك، ولم يعد لديك من روابط عائلية في لاتور ديفيك".

جلست أدريين. فاتخذت ماري موركور مكاناً بجانبها وواصلت تقول:

"وفضلاً عن ذلك، وهذا ما تعرفين مثلما أعرف، فأنت لا تتمتّعين هنا بسمعة نقيّة. حتى لو اقتصر الأمر على صلتك الحميمة بليونتين لوغرا، اليس كذلك؟ وأنا واثقة من أنّ ما يلزمك، في نهاية الأمر هو الزواج. لا بأس، لكن لا تأملي في العثور على راغب في الزواج ملائم في لاتور ديفيك. فالكل معبّأ ضدك إلى حدٍ فائق. بودي عدم تصديق ما يقال، وأعرف ما قيمة ثرثرات الآنسة غران، لكن ماذا تفعلين، فالكذب في مكان مثل هذا المكان يتمتع بقوة الحقيقة. إذن ارحلي، ارحلي. اذهبي إلى أي مكان تشائين. لقد أمضيتِ بعض الوقت في درو، فعودي إليها، إنّها مدينة أكبر من لاتور ديفيك".

وفي معرض رغبتها في إقناعها، خفّضت من لهجتها حتى بلغت تلك التي كانت تتكلّفها مدام لوغرا. وقد بدت لها فجأة، تلك الفكرة في التخلّص من أدريين بجعلها تغادر المدينة، على درجة من النزاهة والنجاح، حتى أوشكت معها أن تنسى غضبها.

"كوني على ثقة من أنّك ستكونين هنالك أفضل من هنا. قلتُ لك إنّ مجتمع درو أكثر عدداً واصطفاء. أما هنا! في هذا الجحر! ألا ليت وسائلنا

تسمح لنا بالرحيل إلى مكان آخر. أما أنتِ، فهيّا، فكِّري! تبيعين دارتك، وتذهبين للاستقرار في...

وبدت وقد صدمتها فكرة مباغتة. فاكفهرّ جبينها. أليست درو قريبة جداً من لاتور ديفيك؟

فسألتها: "ولِمَ لا تذهبين بكل بساطة إلى باريس؟ على كل حال، لاتضيعي وقتك. من الممكن أن تفاجئك في أحد الأيام زيارة لا تروقك. فهل تسمعيني؟هل تسمعيني ، يا آنسة موزيرا؟"

ووضعت يدها على ذراع الفتاة وهزّتها هزة خفيفة. لكن كان يعلو قسمات أدريين الذهول نفسه، مثل حالها حين غادرتها مدام لوغرا. ولم يكن يُقرأ في عينيها أيٌّ انفعال. نظرت إليها ماري موركور بعض الوقت ثم قالت بصوتِ نفادِ صبر:

"هيا بنا، لا بأس! إنّها دراما، إنّها تمثيلية درامية، دون شك، مثلها قبل قليل. آه! أفضّل أن أقول لك إنّي أتمتع بأعصاب قوية، كما تعلمين. فأنا لاتؤثر بي هذه... هذه... هذا النوع من الهستيريا. جئتُ إلى هنا كي أؤدي لك خدمة".

وعاد الغضب ليستبدّ بها. "الخلاصة، بلى! جئت كي أقوم بخدمة حيالك. وحين أفكّر بمَ ألحقتِ بي من ضرر! إيه! لقد حالفك الحظ لأنّ خصومتك مع امرأة مسيحية، يا آنسة. أنتِ معرّضة للخطر، هل تفهمين؟ قد يأتون غدا إلى هنا من قبل السلطات. وعندئذ؟ ماذا ستفعلين؟ لا نفع وراء اللجوء إلى التهريج، اليس كذلك؟"

نهضت وشرعت تتكلّم بلهجة شخص جنّ جنونه فطار صوابه من الإعلان عن وقوع كارثة:

"إذن ارحلي! ماذا تنتظرين؟ جهّزي حقائبك هذه الليلة. والكاتب بالعدل يتكفّل بالباقي".

انحنت صوب أدريين، فأمسكت بيدها ونظرت في عينيها.

قالت كأنّها تتكلّم إلى صمّاء: "ألا قولي!"

وفجأة أرخت يدها وانتصبت واقفة.

وتمتمت: "ماذا دهاها؟"

انتظرت هنيهة أيضاً، وهي متردّدة.

ظنّت، بادىء الأمر، أنّ أدريين تسخر منها، لكنّ هذا الانطباع ما لبث أن امّحى على الفور. كان في نظرة الفتاة شيء لا يمكن أن يَخدع، إنّها نظرة فارغة، مثل نظرة إنسان نائم، ويفتحون له أجفانه. فالحدقتان الزرقاوان لاتحدّقان في شيء، وربما لا تريان شيئاً من بعد.

نهضت ماري موركور على نحو مباغت، فاستدارت صوب الباب وخرجت.

*   *   *



-٩-

أتى المساء، إنّها واحدة من ليالي الصيف الجميلة التي لا يسع المرءَ أن يقول في أية ساعة تبدأ، لا سيّما أنّ السماء تظلّ مضاءة، حتى بعد غياب الشمس. الساعة هي الثامنة والنصف. كانت الأشجار أكثر عتمة، فلاذت الطيور بالصمت، لكنّ السماء ما تزال زرقاء.

هيأت ديزيريه عشاء بارداً لمعلّمتها، على نحو ما جرت به العادة أيام الأعياد، وأضحت حرة من التزاماتها فغادرت المنزل حتى الغد. ولم تسع لرؤية أدريين مجدداً بعد حديثها معها، ولا ريب في أنّها ذهبت، مثل كافة الناس في ذلك المساء، إلى الحفل العام الذي يقام في لاتور ديفيك.

كانت الفتاة وحدها في الصالون، إنّها جالسة على الكنبة، لكنّها تنهض بين وقت وآخرلتقوم ببضع خطا من طرف الحجرة إلى طرفها الآخر. لم تكن حركاتها تنمّ على أي صبر نافد. فهي تمشي مشية بطيئة وفي هيئتها استغراق، ما لم نقل في عينيها، لأنّ عينيها على حالهما، جامدتان مثل عيني دمية. ليس من شك في أنّ الحرّ يضايقها، ولقد حلّت المشابك التي كانت تغلق قميصها عند العنق. وتطلق في بعض الأهيان تنهيدة إرهاق، أو تتوقّف أمام المرآة، فتربّت على جديلتها المعقودة كعيكة أو تمسّد جبينها بهيئة تأمّل.

لمّا تتناولْ عشاءها. واقع الأمر أنّها لم تغادر الصالون منذ زيارة ماري موركور. أمّا الآن فجلست من جديد وهي تنظر فيما حولها بكافة حركات الاهتمام لكن مع استمرار تلك النظرة الغريبة التي تتنقّل بين الأشياء من غرض إلى آخر دون أن يبدو أنّها تراها. صار الجو معتماً أكثر فأكثر. بيد

أنّها لم تفكّر في إضاءة المصباح. كانت تلفّ ساقاً على ساق، وتضمّ كفّيها بحركة مباغتة في الغالب، وتهزّ رأسها لتستأنف تجوالها.

حين أظلم الجو تماماً في الصالون، جلست على كرسي قرب النافذة ورفعت عينيها إلى السماء التي بدت أعمق مع ازدياد العتمة. مزّقت الصمت صيحة طائر واستمرّت لبضع ثوان، عالياً جداً، وبعيداً جداً، كأنّها صرخة فزع أمام الليل. فاحت من الحدائق المجاورة كافة أصناف العطور، وهي من تلك الروائح الثقيلة التي تضوع من الأزهارفي نداوة الغسق. كان الهواء ساكناً. وليس من نأمة تصل من الشارع أو من البيوت المجاورة التي رفع واحد أو اثنان منها العلم الوطني. كان هذا القسم من المدينة مقفراً، وانقضى من الوقت ما يقارب ربع ساعة.

والحال أنّه كانت تصل ضوضاء من ناحية المدينة، ثم استطاعت أدريين أن ترى خطاً مضيئاً يرتفع من وراء دارة لويزا تماماً لينتهي بغتة في تفتح من الشرر، شبيه بزهرة أسطورية في ضخامتها. وفي غضون ثانية ملأ السماء ضياء متأجّج، فألقى انعكاساً أصفر اللون على وجه الفتاة. طرفت أدريين بعينيها وأصاخت السمع لتصغي إلى تهليل الإعجاب الذي يرافق الألعاب النارية. ثم انطلقت صواريخ أخرى، بعضها على شكل حزم فضّيّة، وأخرى بمسارات لولبية ذات انحناءات أكثر فأكثر اتساعاً شبيهة بنابض متراخٍ، فتلك تنطلق مستقيمة، ثم تـــُبَعثـــِر على حين غرّة في النجوم عدداً لامتناهياً من النقاط الذهبية الصغيرة. وتصطنعُ الأخيرة شكلاً عملاقاً لباقة ثلاثية الألوان فتنتزع شهقة كبرى: "آه !" من الإعجاب والمتعة يتردّد صداها حتى دارة الزان.

لم تتحرّك أدريين. فقد شبكت يديها بركبتيها وبدت منصرفة انصرافاً كلياً إلى المشهد الذي يدور أمامها، لأنّ تلك الخطوط الكبرى من الضوء قد اجتذبت في نهاية الأمر انتباهها وثبتت أنظارها فوق سطح دارة لويزا. كانت تتابع مسار الصواريخ بحركة بسيطة من رأسها، وتظلّ عيناها ثابتتين على

النقطة التي انفجرت فيها، لحين ظهور آخر يخطّ في السماء رسماً جديداً. وانتظرت زمناً طويلاً أيضاً بعد تفتح الباقة ثلاثية الألوان وهي ساكنة.

سمعت فجأة ضجة فرقة موسيقية عسكرية. كانت الموسيقى فرحة تارة وكئيبة تارة أخرى، لكنّ الأجزاء المرحة والسريعة منها فقط كانت تبلغ مسامع أدريين. أصاخت السمع. لم تكن المقطوعة طويلة ولم تُحتسب بالتأكيد إلا بمكانة طبق تمهيدي. فقد تلاها على الفور تقريباً لحن من الفالس استُقبِلت إيقاعاتُه الأولى بنوع من الهمهمة الشرهة. فاللحن في واقع الأمر معروف جداً. فقد جرى طول الفصل الأخير، عزفه وغناؤه ودندنته، حتى إنّه ما عاد فرد واحد في البلد يجهل إيقاعه الحائر والفاتر.

نهضت أدريين. لقد سمعت مدام لوغرا مراراً وتكراراً تدندن كلمات ذلك الفالس. هل يمكن أنّها تتذكرها؟ كلا. فما من فكرة، ولا من انفعال كان يُقرأ على قسماتها. استدارت نحو داخل الغرفة وشهقت بقوة مرة أو مرتين. ثم مشت بضع خطا في الصالون رغم الظلمة. وفجأة اصطدمت بقطعة أثاث فاطلقت صرخة حادة. فلبثت ساكنة هنيهة، ثم استأنفت طريقها فخرجت من الصالون.

كان في خطوتها شيء من التردّد وهي تهبط درج المدخل، وتوقفت في الممشى، معقودة الحاجبين، كأنّ شيئاً فاجأها، شيءٌ ما في السماء أو في الأشجار لم تفهمه جيداً. ألقت نظرة شبه محتارة واتجهت صوب الباب المشبك. كان ما تقول عسيراً على الفهم، لكنّ لهجة كلامها الباردة والمترفِّعة تتناقض وبعض الفصاحة.

فتحت الباب المشبك ثم أغلقته، وعبرت الشارع من غير أن تكفّ عن الغمغمة. الأرض الآن سوداء تماماً وما عادت الرؤية ممكنة تقريباً، لكنّ أدريين واصلت السير بخطا سريعة فوصلت بعد قليل إلى الشارع المؤدي إلى القرية. كان وجهها داكناً، تحت الضوء الغامق النازل من السماء، وظلال كبيرة تزيد من تدوير محجريها وتحتفر خديها. وتزيد هيئةُ عدم اكتراثٍ في قسوة قسماتها فكأنّها من الرخام. لقد امّحى كل حنوّ من ذلك الجبين الشاحب، ومن ذلك الفم المنزوف الذي يتكلّم دونما انقطاع.

قالت: "إنّ من شأن خمس مئة فرنك من الكاتب بالعدل في نهاية الشهر، وفوقها وفر بقيمة خمسة آلاف ومئتين، أن تكوّن بائنتي. كذلك يسعني على الدوام، أن أقترض من هنا وهناك، من مدام لوغرا ومن آل موركور. ويعطيني الكاتب بالعدل بسهولة سلفة شهر أو شهرين. يلزمني مال. لا يمكن الزواج من غير مال. سوف يساعدني أبي بكل تأكيد. وإن يرفض، آخذْ حصتي مثلما فعلت جيرمين حين سافرت. سوف آخذ ما بقي من مجوهرات أمي. فما من قانون يحول دون ذلك. هذه المجوهرات ملك لي على أي حال، ما دام أبي قد مات، وهذا نصيبي من الإرث. أما بعد فكيف لها، بحق الشيطان، أن تنفع رجلا؟ خواتم امرأة وعقود. إنّ أبي لا يستطيع رغم ذلك أن يضعها".

ضحكت بصمت وواصلت:

"كذلك فلتعلم جيرمين أنّي لن ادع أحداً يتجسّس عليّ. سوف أدخل وسوف أخرج كما يروقني. وإذا ما خطر لهم أيضاً أن يغلقوا ذلك الباب المشبك لمنعي من التجوّل، فالحل يسير، سوف أصنع مفتاحاً خاصاً بي، أجل، لي أنا!"

ونظرت فيما حولها ورددت بقوة:" لي أنا. وسوف أذهب إلى غرفة جيرمين على قدر ما يروقني. فهي أولاً مدينة لي بخمس مئة فرنك، وما دامت لم تسدّد لي الدين فسوف أظلّ مقيمة في غرفتها. فهل تسمعوني؟"

كانت تلك الكلمات الأخيرة موجّهة لامرأة عجوز خرجت من منزل في الجانب الآخر من الشارع، وقد حثت الخطا وهي ترى أدريين تقوم بحركات في اتجاهها.

وصرخت المجنونة: "هيا اهربي! أنتِ أيضاً يتولاكِ الخوف!" وأضافت بصوت خافت، حين ابتعدت العجوز: "حسناً فعلتِ حين هرولتِ. لكن ليس لأحد أن يثير غضبي اليوم. فقد طفح بي الكيل من أولئك الفاجرات كلّهن!"

وفجأة تدفّق من فمها سيل من الشتائم المقذعة. صرخت بكلمات سافلة كانت تردّدها بتلذّذ وضراوة مرعبة، كلمات قد لاتكون فهمت معناها قط، فيسترجعها الآن دماغها التعيس حيث اختلط كل شيء في تشوّش مشين. كانت تحرّك ذراعيها في كل اتجاه وتمشي بسرعة متزايدة. وأخلى سخطها الساحة لمرحٍ مباغت، فصارت تضحك الآن ضحكاً عميقاً ومشؤوماً.

توقفت توقفاً مفاجئاً. لقد وصلت قريباً جداً من مكان إقامة الحفل الراقص حتى أنّ ضجة الموسيقى طغت على صوتها. كان بوسعها أن ترى عند نهاية الشارع، زاوية من الساحة وزخارف من أنوار صغيرة تتدلى من شجرة إلى أخرى. كان بعض الأزواج يرقصون. نظرت فمشت بضع خطوات أيضاً. أولئك الناس يرقصون بوقار، وبحركات بطيئة. ويظهر في حركاتهم كلها الحرص على عدم الوقوع في الخطأ، وعلى الالتزام بالإيقاع. ويُحدِث وقع الأقدام فوق الساحة نوعاً من الدمدمة الموزونة التي تطغى على الفرقة الموسيقية حين تغدو الموسيقى أكثر هدوءاً. كانت أدريين تعرف تلك الموسيقى حقّ المعرفة. إنّه دوماً لحن الفالس الذي لا يملّه المرء، مصحوباً بتلك الحيرة التي ترِد في كل لحظة تقريباً. كانت أصوات نسائية تغني كلماته، وهي أصوات حادة:

أنا لا أحبك،

أو بالأحرى ليس إلا في حلم...

اصغت أدريين. مكثت واقفة في الشارع المعتم وذراعاها يتأرجحان. بدت، ورأسها مائل إلى أمام، متنبّهة لكل ما يمكن أن تسمع. كان ضوء الحفل يخيفها بعض الشيء ولولا ذلك لاقتربت أكثر. في تلك الأثناء انتهى الفالس. علت عاصفة من التصفيق وافترق كل زوجين راقصين بضحكات وصيحات تهليل وبهجة، فجعلت الضجة أدريين تتراجع. ظنّت أنّهم مقبلون نحوها فتراجعت من حيث أتت وشرعت تركض، وقد تولاها خوف بلا سبب كما غضبها قبل قليل وكما ضحكها أيضاً. سلكت شارعاً صغيراً يصعد نحو الضاحية. كان قلبها يخفق. وهمهمت بشيء ما بصوت مخنوق وجرت بسرعة أكبر.

أضحت بعد قليل على الطريق العام. كان ضجيج الاحتفال ما يزال يصلها. وضعت كفيها على أذنيها وواصلت الجري. كان وقع خطاها يرنّ فوق الحجارة. كانت الأشجار عن اليمين وعن الشمال تتميّز بشكل ضئيل عن السماء حيث تومض آلاف مؤلفة من النجوم. الليل مظلم. والطريق وحده يظهر في العتمة.

بعد بضع دقائق أبطأت من جريها والتقطت أنفاسها. كان يسود صمت عميق، والمدينة أضحت بعيدة، لكنّ أدريين لم تتوقف، إنّها تمشي الآن مشية غير منتظمة، فهي تسرع تارة وتبطىء تارة أخرى، لكنّها منهكة حتى بدا أنّ التعب سوف يتغلّب أخيراًعلى الفتاة وعلى فزعها، إنّها تتكلّم بصوت خافت، كما حالها قبل قليل، لكنّ لسانها تثاقل ولم تعد تنطق من كلمة واحدة يمكن فهمها.

كان قلقها يكبر أحيانا بشكل مباغت. عندئذ تستجمع قواها وتركض على الطريق لبضع ثوان، كأنّها موخوزة بمهماز. ثم يشرد فكرها مجدداً نحو دروب أخرى، وهي تجرّ قدميها جراً.

أوقفها بعض المتجوّلين بعد ذلك بقليل، حين كانت تتجاوز المنازل الأولى في القرية المجاورة. فلم تقوَ على ذكر اسمها ولا عنوانها. لم تعد تتذكّر من شيء مطلقاً.

* * *

الطبعة الأولى / ٢٠١٠

عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة



www.syrbook.gov.sy

مطابع الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠١٠

سعر النسخة ٢١٠ ل.س أو ما يعادلها